



لماذا الدين؟

رحلة من الذاكرة

فاتن صبري

لماذا الدين؟

رحلة من الذاكرة



فاتن هاشم صبري

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - 2021م



fatensabri.com



fatensabri@fatensabri.com



la luz-the light



la luz (the light)



laluz_thelight

أدعو الله أن يتقبل مني

هذا الكتاب ويجعله في ميزان حسناتي

وحسنات:

أبي العطف رحمه الله.... من علمني كيف أعيش بكرامة وشموخ.

أمي الحنونة رحمها الله.... إلى رمز التفاني والإخلاص.

زوجي.... أسمى رموز الإخلاص والوفاء ورفيق الدرب.

إخوتي.... سندي وعضدي ومشاطري أفراحي وأحزائي.

أولادي وأحفادي.... فلذات الأكباد.

شكر وتقدير إلى:

الجندي المجهول الذي علمني كيف أقف بكل ثبات فوق الأرض، إلى مثال
التفاني والإخلاص.

والذي لم ييخل بمساعدتي يوماً، وأمدني بالنصح والإرشاد، ومن دعا لي
بالخير.

إلى من توجيهاته خلف كل كلمة وجملته في هذا الكتاب.

إلى زوجي الرجل المثالي أطل الله في عمره ليظل عوناً لي.

المهندس لؤي صبري.

شكر وتقدير إلى:

الأستاذ الدكتور محمد عبد الله السحيم: أستاذ العقيدة في جامعة الملك

سعود.

إدارة موقع دار الإسلام ومركز رواد الترجمة من مراجعين ومحررين.

المحتويات:

٢	وما توفيقى إلا بالله
٤	وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
١٣	أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟
٢٧	مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ
٤٢	بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
٥٨	فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ
٧٣	بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ
٨٩	الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
١٠٨	الدِّينِ الْقَيِّمِ
١٢٧	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
١٥٢	إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدود
١٧٩	وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
٢٠٦	يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ
٢٤١	إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ
٢٦٧	وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
٢٨٥	رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ



وما توفيقى إلا بالله

لطالما طلبت العون من الله في حياتي، وتيسير لي علمًا نافعًا والاستفادة منه، وكنت أدعوه وأقول: يا رب دبر لي فيني لا أحسن التدبير، وقد رأيت في المنام حينها الرسول عليه الصلاة والسلام يعطيني مجموعة من الكتب، ولم أفهم في ذلك الوقت تأويل المنام. وعندما بدأ زوجي رحلته كدبلوماسي منتدب للأمم المتحدة، وقراري للالتحاق به مع الأولاد، شعرت حينها بفراغ كبير لبعدي عن عملي وأهلي والأصدقاء، حينها فتح الله لي طريق دراسة اللغات لأملأ وقت فراغي، ولقد اعتقد الكثير من الأصدقاء أن اجتهادي في دراسة اللغات لن يضيف إلى رصيدي العلمي شيئًا، وأنه مضيعة للوقت، لأنني سوف أنسى ما تعلمته بمجرد عودتنا إلى بلادنا بعد تقاعد زوجي، ولم أتوقف حينها عن ترديد دعاء: يا رب دبر لي فيني لا أحسن التدبير، حتى يسّر الله لي طريقًا للحوار مع غير المسلمين عن عقيدة التوحيد ومعرفة الخالق بسبب إتقاني للغات، مما أثار تعجب الجميع.

ولطالما تعرضت لمعوقات كثيرة في طريقي كادت أن توقفني عن الاستمرار، حتى رأيت في لحظة يأس من يقول لي في المنام: استمري، وأرسل الله لي يد العون والتشجيع من حيث لا أحسب، وبناءً على هذا التشجيع ونصيحة أساتذتي الأفاضل قررت أن أكتب هذا الكتاب خلال فترة الحجر المنزلي الذي فُرض على الجميع بسبب جائحة الكورونا.

وإني لأحمد الله العليّ القدير أن وفقني لكتابة هذا الكتاب، وأدعو الله أن يجعله مشكاة تنير الطريق أمام الباحثين عن الحقيقة وأصحاب العقول النيرة والقلوب المنفتحة، ويجعله رسالة خير وسلام للجميع بالتعرف على الدين الصحيح السليم والفطري، والمتمثل في سماحة الإسلام وخاتم الشرائع السماوية الذي جاء به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الدين الذي جاء به أيضًا جميع أنبياء الله وهو: الإيمان بخالق الكون وعبادته وحده بلا وسيط، هذا الدين الذي جاء ليصحح المفاهيم المغلوطة ويعيد للدين مكانته الصحيحة.

وادعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة

إن الحاجة إلى الدين أشد من الحاجة إلى الطعام والشراب، الإنسان بطبعه متدين، فلو لم يهتدِ إلى الدين الحق لسوف يخترع له دينًا، كما حصل في الديانات الوثنية التي ابتدعها البشر. والإنسان محتاج للأمن في الدنيا كما أنه محتاج للأمن في منقلبه وبعد موته، والدين الحق هو الذي يمنح أتباعه الأمن التام في الدارين.

من مقاييس الدين الحق:

الايمان بياله:

لا بد للإنسان من الايمان، يمكن أن يسميه إلهًا أو يسميه أي شيء آخر، وقد يكون الإله شجرة أو نجمًا في السماء أو امرأة أو رئيسه في العمل أو نظرية علمية أو حتى هوى في نفسه، لكن لا بد له من الإيمان بشيء يتبعه ويقدسه ويرجع له في نهج حياته وقد يموت لأجله وهذا ما نسميه العبادة.

الإله الحق هو الخالق:

إن عبادة غير الإله الحق تتضمن الادعاء بأنهم آلهة، والإله لا بد أن يكون خالقًا، والدليل على أنه الخالق يكون إما بمشاهدة ما خلقه في الكون وإما بوحى من الإله الذي ثبت أنه خالق، فإذا لم يكن لهذا الادعاء دليل، لا من خلق الكون المشهود ولا من كلام الإله الخالق، كانت بالضرورة باطلة.

وأن الإيمان بالخالق يقوم على حقيقة أن الأشياء لا تظهر بدون سبب، ولا الصدفه ممكن أن تكون موحدة للكون لأن الصدفه ليست سببًا رئيسيًا، وإنما هي نتيجة ثانوية تعتمد على توافر عوامل أخرى (وجود الزمان، المكان، المادة

والطاقة) لكي يتكون من هذه العوامل شيئاً بالصدفة. فلا يمكن استخدام كلمة "صدفة" لتفسير أي شيء لأنها لا شيء على الإطلاق.

الخالق:

- يجب أن يكون وجوده قد سبق وجود الزمان، المكان، والطاقة، واستناداً على ذلك، لا يمكن للطبيعة أن تكون هي المسبب بخلق الكون، لأن الطبيعة نفسها تتكون من زمان، مكان وطاقة، وبالتالي يجب أن يكون ذلك السبب موجوداً قبل وجود الطبيعة.
- يجب أن يكون الخالق قاهراً أي يمتلك السلطة على كل شيء.
- يجب أن يكون بيده الأمر، ليصدر أمره ببدء الخلق.
- يجب أن يمتلك علماً كلياً بكل أمر، أي لديه معرفة كاملة بجميع الأشياء.
- يجب أن يكون واحداً فرداً، لا ينبغي أن يحتاج لوجود مسبباً آخرًا معه، ولا ينبغي أن يحتاج أن يتجسد في صورة أحد من مخلوقاته ولا يحتاج أن يكون له زوجة أو ولد في أي حال من الأحوال، لأنه يمتلك جميع صفات الكمال.
- يجب أن يكون حكيماً لا يفعل شيء إلا لحكمة خاصة.
- يجب أن يكون عادلاً، ومن عدله أن يكافئ ويعاقب، وأن يكون ذا صلة بالبشر، فلن يكون إلهاً لو خلقهم وتركهم، ولهذا فهو يرسل الرسل إليهم ليوضح لهم الطريق ويبلغ البشر منهجه. والذي يستحق المكافأة من سلك هذا الطريق، والعقاب لمن حاد عنه.

الدين:

هو منهج حياة، والذي ينظم علاقة الإنسان بخالقه وبمن حوله، وهو الطريق إلى الآخرة.

- يجب أن يكون أقرب إلى فطرة الإنسان الأولى التي تحتاج لعلاقة مباشرة مع خالقها بدون تدخل ووسطاء، والتي تمثل الفضائل والسجايا الحيرة في الإنسان .
- يجب أن يكون دين واحد، سهل وبسيط، مفهوم وغير معقد، صالح لكل زمان ومكان.
- يجب أن يكون دينًا ثابتًا لكل الأجيال ولكل البلاد ولكل أنواع البشر، لا يقبل الزيادة ولا النقصان حسب الأهواء، كما هو الحال في العادات والتقاليد التي منشأها البشر.
- يجب أن يحتوي على عقائد واضحة ومبرهنة ولا يحتاج لوسيط ولا يؤخذ الدين بالوجدانيات بل بالدليل الصحيح المبرهن.
- يجب أن يغطي كل قضايا الحياة وكل زمان ومكان، وينبغي أن يصلح للعالمية وكذلك للآخرة، يبني الجسد ولا ينسى الروح.
- يجب أن يحمي حياة الناس ويحافظ على أعراضهم وأموالهم واحترام حقوقهم.

وبذلك من لم يتبع هذا المنهج الذي جاء بتوافق مع فطرته، عاش حالة اضطراب وعدم استقرار، والشعور بضيق الصدر والنفس، فضلاً عن عذاب الآخرة.

لماذا الإسلام؟

- دين الإسلام موافق لفطرة الإنسان.
- دين الإسلام عقيدته مبرهنة، واضحة وبسيطة، وبعيدة كل البعد عن الاعتقاد الأعمى. فالإسلام لا يكتفي بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساساً للاعتقاد، بل يتبع مبادئه بالحجة المقنعة الدامغة، والبرهان الواضح، والتعليل الصحيح الذي يملك زمام العقول ويأخذ الطريق إلى القلوب.
- دين الإسلام تعاليمه مرنة وشاملة لكل نواحي الحياة، لأنه متعلق بالفطرة البشرية التي خلق الله الإنسان عليها وقد جاء هذا الدين مطابقاً لسُنن هذه الفطرة. وهي:
- الإيمان بآله واحد أحد، الذي ليس له شريك ولا ولد ولا يتجسد في صورة إنسان أو حيوان ولا صنم أو حجر، وعبادة هذا الخالق وحده بدون وسيط.**
- دين الإسلام جاء بالأجوبة على الأسئلة الفطرية للبشر عن غاية الوجود ومصدر الوجود والمصير بعد الموت، ويقيم الأدلة في مسألة الألوهية من الكون، ومن النفس، ومن التاريخ على وجود ووحداية الله وكماله، وفي مسألة البعث يدلل على إمكانية خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدل على حكمته بالعدالة في إثابة المحسن وعقوبة المسيء.
- وتجتمع الإنسانية في أصل واحد، وتمضي نحو غاية واحدة، والتنوع والاختلاف ضرورة كونية تلزم الإنسان ضرورة استمرار منطق الحوار.

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" ^١.

والغاية من هذا الاختلاف هو: التعارف والتكامل بين جميع الأجناس والأعراق. وطريق الحوار هو الطريق الذي سلكه رسل الله من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" ^٢.

والجميع من أصل واحد، وجاءوا إلى الأرض لهدف واحد وهو معرفة الخالق وعبادته وحده.

ولتقرير رسالة التوحيد، بعث الله جميع الرسل إلى كل الأمم مرشدين أقوامهم إلى حقائق الكون؛ ولعبادة الخالق وحده كما عبد الرسول ربه، وليس بعبادة الرسول أو أي شيء آخر، لينطلقوا منها ويحققوا غاية خلقهم، وإن لكل أمة رسول، وكل الرسالات السماوية عبر الزمان والمكان جاءت لخدمة هذه الغاية.

"وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..." ^٣.

وكل رسالة سماوية تؤكد ما جاءت به سابقتها، حيث تدريج الرسل عليهم الصلاة والسلام في إبلاغ مراد الله، وتوحدوا في أصل التوحيد ثم تنوعوا في الشرائع حسب حاجة الإنسان.

فالقرآن الكريم وهو كتاب الله وكلامه الذي لم يتغير ولم يتبدل رغم مرور مئات السنين، ورغم اختلاف البلاد والحضارات لازال كما أنزل، ولازال يقود المسلمين

^١ (هود: ١١٨).

^٢ (الحجرات: ١٣).

^٣ (النحل: ٣٦).

في حياتهم الدنيا وفي طريقهم إلى الآخرة، يُصدق أصول الديانات التي سبقته وامتدت إلى زمانه والتي جاءت بها الرسل مناسبة لزمانهم. ومع تغير الحاجة يأتي طور من الديانة جديد يتفق في أصله ويختلف في الشريعة تدرجًا مع الحاجات، مع تصديق اللاحق للسابق في أصل التوحيد، وباتخاذ سبيل الحوار يكون المؤمن قد استوعب حقيقة وحدة المصدر لرسالة الخالق؛ لينطلق من نقطة الإيمان الخاص به، إلى بدء رحلة الاستخلاف في الأرض. وهذا التنوع لا يُشكل عائقًا أمام التواصل الإنساني، فالحوار له أصول ومنطلقات وجودية وإيمانية، تُحتم على الإنسان احترامها والانطلاق منها للتواصل مع الآخر؛ لأن الغاية من هذا الحوار هو التخلص من التعصب والهوى الذي هو عبارة عن إسقاطات للانتماءات العصبية العمياء؛ التي تحول بين الإنسان وحقيقة التوحيد النقي، وتؤدي إلى التصادم والدمار كما هو واقعنا الآن.

وينطلق حوار رسل الله على أساس جوهري وهو الإيمان بكل الرسالات السماوية والاعتراف بها؛ فلا يمكن إنكار حقيقة التنوع كما لا يمكن إنكار حقيقة تواتر الرسل.

وباعتراف القرآن الكريم بالحقائق الكونية، وبعرضه ملخص الرسالات السماوية التي تجتمع في أصل التوحيد، وبدعوة أتباعه إلى الاعتراف بهذا الأصل، كان هذا الكتاب الخاتم تنويجًا لهذا التواصل البشري. والإنسان المؤمن يُسلم بأن الله هو مصدر كل شيء، وهذا هو الدافع الأكبر لرحلته في الحياة وفق منهج الله وشريعته.

والحياة الدنيا بداية لرحلة أبدية يستأنفها الإنسان بعد الموت بالبعث والحساب ومن ثم الجزاء، ويعتبر الإسلام أن وجودنا في هذه الدنيا هو لهدف وغاية سامية وهي معرفة الله عز وجل وعبادته بالتوجه إليه مباشرة.

ورغم قصر الحياة الدنيا فهي بمثابة دار ابتلاء وامتحان للبشر ليمتازوا على درجات ومراتب عند اقبالهم على الحياة الآخرة.

والذي يقع من ابتلاءات هو إرادة الله، والذي أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، حيث أنه لا يوجد شر مطلق بالوجود^٤.

وبتوفير الإسلام للترباط والانسجام بين العقل والدين، العقل والنقل، والعقل والقلب، فإنه لا تنوير ولا تخضعة ولا تقدم ولا جمال ولا علم حقيقي إلا بالإسلام.

وقد نجح الإسلام كمنهج، بينما فشلت الرأسمالية والشيوعية، وإنه ما من مستشرق درس الإسلام وحضارته - مهما كان موقفه منه - إلا واعترف بأن الإسلام دين ودولة.

ولكن ابتعاد المسلمين عن دينهم الصحيح وعجزهم عن نشر مبادئ الإسلام بصورة صحيحة ساهم في العقود الأخيرة بازدياد نسبة الملحدين والمشككين والحائرين في العالم.

ولقد تقدم الناس في الغرب بالعلوم والمعارف عندما تركوا المعتقدات الخاطئة والتي كانت تقوم على أساس الدين المشوه لديهم، وأخذوا بأسلوب العلم

^٤ من أقوال الشيخ محمد راتب النابلسي.

والمنطق، لكن مع توجههم للعلم بطريقة سليمة كانوا قد خسروا القيم والأخلاق والغاية من وجودهم بتغاضيهم عن اعتناق الدين الصحيح. وسوف نبحث هذه النقاط بالتفصيل من خلال سرد حوارات واقعية مع شخصيات من جنسيات وثقافات مختلفة في هذه الرحلة.

بداية الرحلة

أفي الله شك؟

لا ملجأ من الله إلا إليه!

لطالما في صغري أحببت عبارة " لا ملجأ من الله إلا إليه"، وكنت أرددها دائماً لأستشعر قربي من الله، لكنني لم أفهمها جيداً حتى حصل معي موقف طريف منذ أكثر من عشرين عاماً، عندما كان ابني طفلاً صغيراً لا يتجاوز عمره الثلاثة أعوام يصصر على لمس فرن الطهي وهو ساخن، حتى اضطرت أن أضربه على يده لأمنعه من العودة إلى هذا التصرف؛ فبكى وأخذ يجول من مكان إلى آخر في المنزل لا يدري أين يذهب، تزامن هذا مع نداء أبيه له ليرضيه، لكن المفاجئة أنه عاد لي مباشرة بدلاً من الذهاب لأبيه وبكى في حجري مما أضحك والده، وقال: سبحان الله.

أما أنا فتذكرت قوله تعالى **"لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ"**^٥، وقلت في نفسي: الآن فهمتها، فالله سبحانه وتعالى يُذكرنا عندما نتعرض لبعض المصاعب للرجوع إليه كلما ابتعدنا عنه، وشعرت حينها بفرحة عارمة.

حكمة الله:

لقد وضع الخالق قوانين الطبيعة والسنن التي تحكمها وتصون نفسها بنفسها عند ظهور فساد أو خلل بيئي وتحافظ على وجود هذا التوازن بهدف الإصلاح في الأرض واستمرار الحياة على نحو أفضل، وأن ما ينفع الناس والحياة هو الذي

^٥ (التوبة: ١١٨).

يمكث ويبقى في الأرض، وعندما يقع في الأرض من كوارث يتضرر منها البشر كالأأمراض، البراكين، الزلازل والفيضانات، تتجلى أسماء الله وصفاته كالشافي والحفيظ مثلاً، في شفائه للمريض وحفظه للناجي، و يتجلى اسمه العدل في عقاب الظالم لغيره والعاصي، ويتجلى اسمه الحكيم في ابتلاء وامتحان غير العاصي والذي يُجازى عليه بالإحسان إن صبر وبالعذاب إن ضجر، وبذلك يتعرف الإنسان على عظمة ربه من خلال هذه الابتلاءات تمامًا كما يتعرف على جماله من خلال العطايا، فإن لم يعرف الإنسان إلا صفات الجمال الإلهي فكأنه لم يعرف الله عز وجل.

سألني ملحد يومًا عن هؤلاء الذين وقع عليهم الابتلاء بالكوارث والأمراض أو ما شابه، فقلت له ببساطة:

إن الحياة الدنيا ليست إلا لحظة إذا قارنتها بالحياة الأخرى الأبدية، ومن ثم يهون كل ما عاناه المؤمن في الدنيا بغمسة واحدة في نعيم الجنة كما بشر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن وجود المصائب والشر والألم كان السبب وراء إلحاد كثير من الفلاسفة الماديين المعاصرين، ومنهم الفيلسوف "أنتوني فلو"، وكان قد اعترف بوجود الإله قبل موته وكتب كتابًا أسماه "يوجد إله"، على الرغم من أنه كان زعيمًا للإلحاد خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وعندما أقر بوجود إله قال:

"إن وجود الشر والألم في حياة البشر لا ينفي وجود الإله، لكنه يدفعنا لإعادة النظر في الصفات الإلهية"، ويعتبر "أنتوني فلو" أن لهذه الكوارث الكثير من الإيجابيات، فهي تستفز قدرات الإنسان المادية فيبتكر ما يحقق له الأمان، كما تستفز أفضل سماته النفسية وتدفعه لمساعدة الناس. وقد كان لوجود الشر والألم

الفضل في بناء الحضارات الإنسانية عبر التاريخ. وقال: إنه مهما تعددت أطروحات لتفسير هذه المعضلة فسيظل التفسير الديني هو الأكثر قبولاً والأكثر انسجاماً مع طبيعة الحياة^٦.

إن المتأمل السطحي يرى ما يُسبِّبه مرض الكورونا اليوم من معاناة وحالات وفاة وما ترتب عليها من توقف لكافة أنشطة الحياة وانعزال الناس في بيوتهم اتقاءً لهذا المرض، يراه شراً لا محالة، غير أن الشر نسبي وليس مطلقاً، فلو أننا تفحصنا الوضع من زاوية أخرى لوجدنا أن نسبة التلوث في هذه الفترة نزلت لأقل مستوياتها في كل أنحاء العالم نظراً لتوقف حركة الطيران وحركة السيارات والذي بدوره أدى إلى تقليل الانبعاثات الصادرة عن هذه الحركات الملوثة للبيئة. وكأن الكرة الأرضية والبيئة دخلت في مرحلة نقاهة خلال فترة انتشار مرض الكورونا، ولا بد للإنسان أن يتأمل ويعيد النظر في أموره الحياتية.

تسبب هذا الوضع في لم شمل الأسر داخل البيوت، كما ذكرهم بنعم الله عليهم وبتقصيرهم في الحمد والشكر لرب العالمين، فالإنسان لا يشعر بالنعمة إلا حينما يفقدها. كما بدأت الناس تعي أهمية النظافة أكثر من أي وقت مضى، وتعي ضرورة اتباع أساليب وقاية جادة واستخدام معقمات بصورة مفرطة، وغسل اليدين بالماء والصابون في كل وقت وحين، من كان يتوقع كل ذلك؟

مما لا شك فيه أن هذا الحدث الجلل أعاد ترتيب أولويات الحياة، كما أظهر مدى ضعف الإنسان وهشاشته وجبروته الكاذب، ومحاولاته البائسة ضد هذا الميكروب، هذا الجبروت الذي هزمه فيروس لا يرى بالعين المجردة. هذا الحدث

^٦ مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

كسر كبرياء الكثير ممن ظنوا أن البشر وصلوا لأعلى درجات العلم المادي، وصاروا أشبه بالآلهة، وظنوا أنهم بذلك استغنوا عن الدين والخالق.

إن مرض الكورونا يفتك بالصغير والكبير، الضعيف والقوي، الفقير والغني، الإنسان البسيط والملك ولا يفرق بين أحد. وقد سمعنا عن كثير من الأثرياء الذين فروا إلى الملاجئ أو القصور المنعزلة في محاولة للهروب من بطش هذا المرض. هؤلاء أنفسهم كانوا لا يكثرثون بمعظم الأوبئة والأمراض لظنهم أنه يمكنهم القضاء عليها من خلال الإنفاق على العلاج. المشكلة الآن لدى الأثرياء أن الأموال متوفرة في حين أن العلاج غير متوفر. وكأن الفيروس جاء ليقيم المساواة بين البشر، لا يُفرق بين قوي وضعيف ولا بين غني وفقير.

إنه لمن العجيب أن نرى أن البشرية بأسرها توحدت لأول مرة في التاريخ لمواجهة هذا الميكروب.

إن لم يكن هناك إله فمن أين لنا هذا الخير؟

إن المتسائل من الملحد ينسب وجود الشر في هذه الحياة الدنيا كذريعة لنفي وجود الإله، يكشف لنا عن قصر نظره وهشاشة فكره عن الحكمة وراء ذلك، وعن غياب وعيه عن بواطن الأمور، وقد اعترف الملحد بسؤاله ضمناً أن الشر استثناء.

لذلك قبل السؤال عن حكمة ظهور الشر، كان من الأحرى طرح السؤال الأكثر واقعية وهو "كيف وُجد الخير بدايةً؟"

لا شك أن السؤال الأكثر أهمية لا بد أن يبدأ من سبب وجود الخير. فلا بد أن نتفق على نقطة البداية أو المبدأ الأصيل أو السائد، ومن ثم يمكن أن نجد التعليقات للاستثناءات.

يضع العلماء قوانين ثابتة ومحددة لعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا بدايةً، ومن ثم يتم عمل دراسة للاستثناءات والحالات الشاذة عن هذه القوانين. وبالمثل لا يمكن للملحدين التغلب على فرضية ظهور الشر إلا حينما يُقرّوا بدايةً بوجود عالم مليء بالظواهر الجميلة، المنظمة والجيدة التي لا حصر لها.

ويمكننا مقارنة فترات الصحة والفترات التي يظهر فيها المرض على مدى متوسط العمر، أو مقارنة عقود من الازدهار والرخاء وما يقابلها من فترات الخراب والدمار، وكذلك قرون من هدوء الطبيعة والسكينة وما يقابلها من ثوران البراكين والزلازل. من أين يأتي الخير السائد بدايةً؟ إن علماء قائماً على الفوضى والمصادفة لا يمكن أن ينتج علماء جيداً.

ومن المفارقات أن التجارب العلمية تؤكد ذلك. ينص القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أن الإنتروبيا الكلية (درجة الاضطراب أو العشوائية) في نظام معزول بدون أي تأثير خارجي ستزداد دائماً، وأن هذه العملية لا رجعة فيها.

بمعنى آخر، الأشياء المنظمة ستتهافت وتتلاشى دائماً ما لم يجمعها شيء من الخارج. على هذا النحو، فإن القوى الديناميكية الحرارية العمياء لم تكن لتنتج أبداً أي شيء جيد من تلقاء نفسها، أو أن تكون جيدة على نطاق واسع كما هي دون أن ينظم الخالق هذه الظواهر العشوائية التي تظهر في الأشياء الرائعة مثل الجمال والحكمة والفرح والحب، وهذا كله فقط بعد إثبات أن القاعدة هي الخير والشر هو الاستثناء.

يقول ابن القيم:

"إن الشرّ والألم: إما إحساناً ورحمة، وإما عدلٌ وحكمة، وإما إصلاحٌ وتهيئةٌ لخير يحدث بعدها، وإما دفعٌ لشرٍّ هو أصعب منه".

في حوار لي مع ملحد روسي طرح كثير من الأسئلة من ضمنها المتاعب والآلام التي يعاني منها البشر.
قلت له ما قرأته يومًا^٧:

إن نظرتنا إلى الشر والألم تتوقف على نظرتنا إلى حقيقة الحياة الدنيا والغرض من الوجود الإنساني فيها والتي تختلف لدى المتدينين عنها لدى الماديين.
قلت له: إن المنظور المادي يعتبر أن الحياة الدنيا ليس وراءها غرض تحكمها غاية، وأن الإنسان اذا مات صار عديمًا، إذ ليس هناك بعث تتبعه حياة أخرى، فعلى الإنسان أن يحصل على أقصى ما يستطيع من متع، وبالتالي يصبح ما قد يشعر به من ألم وكل ما يحجبه عن هذه المتع شر لا جدال فيه، وانطلاقًا من هذا المنظور يصبح ما يتعرض له الإنسان من شرور وآلام أمورًا عشوائية تمر به خلال حياته في دنيا نشأت بأسلوب عشوائي أيضًا، ومن ثم يصبح القول بوجود إله كله رحمة ومحبة ينظم هذه الحياة هراء وعبث بالنسبة لهم، وهذا يعني أن كل ما يحجبهم عن هذه المتعة يُعتبر ألم بالنسبة لهم.

معرفة الله:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"^٨.

نفهم هنا من الآية الكريمة أن الله تعالى مَيَّزَ الجن والأنس منفردين دون سائر المخلوقات بحرية الاختيار. وأن تميز الإنسان هو بتوجهه لرب العالمين مباشرة وإخلاص العبودية له بمحض إرادته، ويكون بذلك حقق حكمة الخالق بجعل الإنسان على رأس المخلوقات.

^٧ مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

^٨ (الذاريات: ٥٦).

تتحقق معرفة رب العالمين من خلال إدراك أسمائه الحسنی وصفاته العليا والتي تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين وهي:

أسماء جمال: وهي كل صفة تختص بالرحمة، العفو والطف، منها الرحمن، الرحيم، الرزاق، الوهاب، البر، الرؤوف... إلخ.

أسماء جلال: وهي كل صفة تختص بالقوة والمقدرة والعظمة والهيبة، ومنها العزيز، الجبار، القهار، القابض، الخافض... إلخ.

ويترب على معرفتنا لصفات الله عز وجل القيام بعبادته على النحو الذي يليق بجلاله وتمجيده وتنزيهه عما لا يليق به، طمعاً في رحمته واثقاً لغضبه وعقوبته. وتمثل عبادته بالامتثال بالأوامر واجتناب النواهي والقيام بالإصلاح وتعمير الأرض. وبناءً على هذا يصبح مفهوم الحياة الدنيا عبارة عن امتحان واختبار للبشر لكي يتمايزوا ويرفع الله درجات المتقين ويستحقوا بذلك خلافة الأرض وورثة الجنة في الآخرة، في حين يلحق بالمفسدين الخزي في الدنيا ويكون مآلهم عذاب النار.

"إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمُ اللَّهُمَّ أَحْسَنُ عَمَلًا"^٩.

المفهوم الحقيقي للإله:

لتقديم بعض التصورات عن مدى تدهور العلاقة بين الناس ورب العالمين، أعرض هنا قصة حدثت معي لسيدة ملحدة تقول إنها بعد أن كانت مؤمنة بالله أُلحِدت. فسألتها عن السبب فقالت: إن ابنتها مرضت بالسرطان، وقد دعت الله أن يُنجي ابنتها، وكانت تدعو الله وتقول إنه إن نجَّى ابنتها فسوف تؤمن به، وماتت البنت وكفرت الأم بالله.

^٩ (الكهف: ٧).

هذه القصة من القصص التي أثرت في كثيرٍ، وسبحان الله ما جاء في خاطري في هذه اللحظة أنهم بالفعل ما قدروا الله حق قدره، فهم يتعاملون مع الله بمبدأ إذا أعطيتني أو من بك وإذا لم تعطني لن أو من بك. فهذه المرأة لم تعرف الله حق المعرفة ولم تعرف القيمة الحقيقية لهذه الحياة التي نعيشها أصلاً، لأنها لو كانت تعرف قيمة هذه الحياة لما تصرفت هذا التصرف ولما تعاملت مع ربها بهذه الطريقة. مثلاً في علم الرياضيات يقولون: أن أي رقم مقارنة باللانهاية هو صفر. فحياتنا عبارة عن مجموعة أرقام ونخسر كل يوم من حياتنا رقم من هذه الأرقام، فحتى لو عشنا مائة أو مائتي سنة فمقارنة باللانهاية هو صفر، وإن الموت آتٍ لا محالة في أي عمر، بمرض أو بدون مرض، وساعة الموت محددة. فنحن نعيش في الواقع في الصفر. فأنا قلت للسيدة: إنك لم تعرفِ الله حق المعرفة، لأنك لو عرفتِه حقاً لما رفضتِ الإيمان به والتسليم له، فجهلك بصفات الله تجعلك تعامله وكأنه إنسان أمامك تقايضيه بالمثل - سبحان الله - وهل الله تعالى زميل لك في العمل؟! من هو الله بالنسبة لك؟! هل إيمانك كان مشروع بينك وبين رب العالمين؟! هل افترضتِ أنها إساءة وتردين الإساءة بالإساءة؟! هذا شيء عجيب! هل أنت مخلدة في هذه الدنيا؟!

فلو كنت عرفت الله حق معرفته لما كفرت به، وهو أرحم بك من أمك وأبيك، وأنه تعالى لديه جنة عرضها السماوات والأرض. هل تحسرين ذلك بهذه الدنيا؟! هل تفضلين الصفر على اللانهاية؟!

قلت لها أيضاً: إنه ليس من المنطق أن نحكم على مسرحية دون أن نتابعها للنهاية، ولا أن نرفض كتاباً لأن الصفحة الأولى لم تعجبنا، هذا الحكم يُعتبر ناقصاً.

لقد وصلني أسئلة كثيرة ومتكررة عن كيفية وقاية أبنائنا من الإلحاد. فأنا أقول وأكرر أن الحل هو في معرفة المفهوم الحقيقي للإله، لأنه من عرف الله هان عليه كل شيء. لأننا طبعا لم ندرك حكمة آباءنا وأمهاتنا عندما كنا صغارا في كثير من التصرفات، وكنا كثيرا ما نتساءل لماذا يتصرف الوالدين بهذه الطريقة، هل يحبني أبي فعلا؟ لماذا لم يوافق على ذهابي لهذه الرحلة؟ هل تحبني أمي؟ فإن كانت تحبني فلماذا تضغط علي في الدراسة والحصول على الدرجات العالية. ولماذا تجربني على أداء الواجبات اليومية؟ لماذا ترسلني أمي للنوم كل يوم مبكرا؟ عندما كبرنا وأصبح لدينا أولاد، فهمنا الحكمة من تصرفات آباءنا. وفهمنا أنه لا يوجد على الأرض من يجب لنا الخير أكثر منهم. فالمعرفة العميقة للإله مهمه جداً لأننا إذا عرفنا الله حق المعرفة سوف نجد التفسير لكثير من تصاريف الأمور، وتتسع آفاق الإدراك والمعرفة وحينها يبلغ الإنسان رشده ويهتدى لحل كثير من المشاكل.

"مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" ١٠.

وكثيراً ما نسمع عن زيادة نسبة الإلحاد بسبب الحروب التي يتسبب فيها الإنسان والكوارث الطبيعية. لا شك أن تقدير الله لهذه الأمور أن تقع ما هو إلا امتحان واختبار لإيمانهم، حيث إن كثيراً من الناس يعبد الله على حرف.

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ" ١١.

وهل أعبد الله أو أذكره فقط في الرخاء وعندما أتعرض للشدة أكفر به؟

١٠ (التغابن: ١١).

١١ (الحج: ١١).

رحمة الخالق:

في أحد الأيام تحاورت مع ملحد أمريكي وقلت له: إن الخالق الذي خلق عباده هو أرحم بهم من أمهاتهم، وأن المؤمن عندما يضع في اعتباره أن من سبحانه يوم القيامة هو ربه الذي خلقه والذي هو أرحم به من أمه التي ولدته، فتخيل مدى فرحته ومدى اطمئنانه عندما يقابل ربه، وهذا كافي لأن نشعر بالسعادة في هذه الدنيا وسوف تهون علينا كل الصعاب.

فأعطيته مثال بسيط عن أهمية معرفة الله، قلت له: إنك لو أخبروك أن فاتن صبري التي تتكلم معك من هواة تربية الأسود مثلاً، وأنها لديها شخصية قوية ولا ترحم وممكن أن تؤذي، فطبعاً سوف تصدق لأنك لا تعرفني، واحتمال كبير أن تأتي هنا وتأخذ الاحتياطات اللازمة وترتعد، لكن من يعرفني جيداً فسوف يتفاجأ ويضحك من هذه المعلومة لأنه يعلم جيداً أن فاتن تخاف من القطط أصلاً، وضحك كثيراً.

في حوار لي مع قسيس من قساوسة الفاتيكان وكنا قد دخلنا في نقاش عن عقيدة التوحيد، قلت له: إن المسلم يؤمن بإله واحد أحد، ليس له شريك ولا ولد، وأنه تعالى أرسل الأنبياء والرسل كعيسى المسيح وموسى ومحمد لنشر رسالة التوحيد في العالم، خلق المسيح من غير أب وخلق آدم من غير أب ولا أم، فهو يخلق ولا يلد، وأمرنا بعبادته وحده كما عبدوه هم، فنحن نعبد الله كما عبد المسيح الله ولا نعبد المسيح نفسه، ونحن نعبد الله كما عبد محمد الله ولا نعبد محمد نفسه ونصلي لله. وكذلك فقد كانت السيدة مريم تصلي لله وحده، وعليه فيجب ألا نصلي لمريم نفسها ولا نطلب منها، بل نطلب من الله كما كانت السيدة مريم تطلب من الله مباشرة.

حينها قاطعني هذا القسيس وقال: نحن لا نعتبر مريم هي الله ولا نعبدها، ولكننا نستخدمها كوسيلة للوصول إلى الله. ويرر ذلك بمثال الأسرة عندما يطلب الأطفال مثلاً زيادة في المصروف أو ما شابه فإنهم يلجؤون إلى الأم لكي تكون وسيطاً بينهم وبين أبيهم، لأن قلب الأم طيب ورقيق وتحبهم أكثر، ويمكن أن توصل طلبهم بطريقة أفضل للوالد. طبعاً جوابي كان قاطعاً وصارماً في هذه النقطة وقد تفاجأ به، حيث قلت له: نعم كلامك صحيح، ولكن هذا في حالة أن الأطفال لا يعرفون أبيهم حق المعرفة، حيث أنه باعتقادهم أن الأم هي أرحم بهم من أبيهم، لكنهم لو عرفوا أن هذا الأب هو أرحم من الأم لذهبوا إليه مباشرة، وهذا جهل من الأولاد بطبيعة الأب.

واسترسلت قائلة له: أن البشر لو عرفوا الله حق المعرفة وعرفوا أن الله أرحم بهم من أمهاتهم وآبائهم لذهبوا إليه مباشرة.

فقاطعني ثانية وقال: لا أنتِ لم تفهميني، نحن نستخدم السيدة مريم كوسيلة للوصول لرب العالمين كالذي يريد أن يضيّف زواره مثلاً ويضع المشروبات على صينية، فالسيدة مريم هي الصينية التي نرسل بها طلباتنا لرب العالمين.

فقلت له: سبحان الله! ومن كانت بمثابة الصينية التي استخدمتها مريم للوصول الى رب العالمين؟! هل مريم عبدت الله مباشرة أم عن طريق وسيط؟ هل وضعت دعائها على صينية؟ أخبريني! هل عبدت المسيح عليه السلام؟ أم عبد المسيح أمه؟ أم اتخذت قسيساً أم وسيطاً أم قديساً؟

الشاهد هنا أن هذه القصة كانت بالنسبة لي نقطة انطلاق لنشر المفهوم الحقيقي للإله، وكانت سبب لكتابة كتابي: "المفهوم الحقيقي للإله"، الذي أردت به أن أوضح للعالم أن المفهوم الحقيقي للإله هي النقطة المفقودة الآن، لأن أتباع الديانة

الهندوسية مثلاً يؤمنون بإله واحد أحد ولكن هناك من أفتعهم أن الله يتمثل في حجر أو في صنم وقد أعجبهم ذلك لأنهم لم يعرفوا من هو الله، وأن الله لا يأت إلى الأرض، وأن ذاته العليا لا بد أن تكون خارج السماوات والأرض، وإرادته وقدرته نافذة لجميع مخلوقاته.

إن عدم معرفة رب العالمين يؤدي إلى وضع أفكار أو تصورات خاطئة عن الإله كأن يتجسد في ثلاثة أقانيم أو يتمثل في جسد بشر. إن تحريف المفهوم الحقيقي للإله في العهد القديم لم يشوش أذهان الناس فقط ويضعهم في حيرة فحسب، بل تسبب في توجيههم إلى الإلحاد وصرفهم عن الدين بالكلية. فالتوراة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام ذكرت أن الله تعالى بصفاته العليا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يموت، وهو الخالق الأبدي الرحيم المنزه عن كل عيب أو نقص، وأنه المعبود وحده، لكن نجد في العهد القديم (التوراة المخرفة)، أنهم ينسبون إليه صفات لا تليق به (كأن ينسى، لا يعرف، يخاف، يرتاح) سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وسبحان الله في صغري كنت دائماً أتساءل: لماذا ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه خلق السماوات بدون أن يتعب وكنت أتعجب جداً من الداعي لذكر هذه النقطة، حيث أنه معروف أن الله تعالى لا يتعب، حتى التحقت بمجال الدعوة، عندما عرفت أن النصراني يعتقد أن الله عندما خلق السماوات والأرض ارتاح. وهم دائماً يسألوني: لماذا لا يعتبر المسلمون يوم الأحد يوم مقدس، وأقول ببساطة: لأن الله لا يتعب لكي يرتاح. المفاجأة أنهم يضحكوا بشدة من جوابي ويقولون فعلاً نعم كلامك صحيح.

التوحيد هو وسيلة الخلاص:

إنه لمن الخطأ أن نُعرّف الإسلام على أنه الإيمان بآله واحد ونقف إلى هنا، فالإسلام هو: الإيمان بآله واحد أحد وهو الخالق والذي ليس كمثله شيء، وعبادته وحده مباشرة بدون قسيس ولا قديس ولا صنم أو حجر ولا أي وسيط آخر.

فالإسلام ليس فقط توحيد الربوبية بل وتوحيد رب العالمين في العبادة (توحيد الألوهية، بمعنى عبادته وحده بدون وسيط). إن الإيمان بآله واحد (توحيد الربوبية) موجود في ديانات كثيرة، وكانت موجودة في عقيدة كفار قريش أيضاً؛ فعندما سُئلوا عن سبب عبادتهم للأصنام قالوا: لتقرننا إلى الله زلفى، فهم لا ينكرون وجود الله.

"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" ١٢.

وبإمعان النظر في معتقدات الشعوب، نكتشف أن غالبية الأمم التي لديها موروث ديني ولديها رموز دينية مختلفة لا تزال تؤمن بوجود خالق للكون وتلجأ إليه عند الشدائد، مما يؤكد أن هذه الديانات والمعتقدات لها أصول تاريخية نابعة من ديانة أصلية واحدة صحيحة، وأن ما لدى الشعوب الحالية من تراث ديني يحتوي بداخله على عقيدة التوحيد والإيمان بآله واحد والتفرد بعبادته، وأن هناك دلائل وشواهد في هذه الديانات والكتب تشير إلى أن جذورها وأصولها ترجع إلى عقيدة الإسلام والتوحيد.

إن الاختلافات بين الديانات تتمثل في الوسيلة المتبعة في التواصل مع الخالق مباشرة أو من خلال اتخاذ وسطاء (قديسين، كهنة، أصنام أو أنبياء). فلو أن جميع الديانات أقروا بترك اللجوء للوسطاء وتوجوا مباشرة للخالق لتوحدت البشرية ولاستقامة قلوبهم واهتدت للحق. فكما أن الجميع يتفق في وحدانية التوجه نحو الخالق مباشرة دون شريك أو وسيط عند وقوع المصائب أو الشدائد، فكان لا بد من دعوة الجميع لعبادة رب العالمين مباشرة في السراء والضراء. كما ورد القرآن الكريم:

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^{١٣}.

^{١٣} (آل عمران: ٦٤).

من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله

لا عيش إلا عيش الآخرة:

لطالما جاهدت نفسي لأستوعب قيمة هذه العبارة من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فأردت أن أخرج من التناقض الذي يعيش في داخلي من حي لتحقيق السعادة لي ولأحبائي في هذه الدنيا، وبنفس الوقت أستوعب عظمة السعادة الأخروية، حتى مرض أبي، وكنت أعيش وأولادي مع زوجي المبتعث لمشروع للأمم المتحدة في أفريقيا، حزنت لبعدي عن أبي ورجوت له الشفاء، وكنت أبكي بحرق وأقول: يا رب اشفي أبي وأسعده، أريد له السعادة يا رب في هذه الدنيا.

ومات أبي، وبكيت حرقه عليه، حتى رأيت في منامي ما يجعلني أبكي فرحاً. رأيته يستلقي على سرير ويقول لي: اقتربي، فاقتربت فقال لي: إننا أحياء هنا ولسنا بأموات، فأخذ يشير بيده إلى من حوله ويقول: أنظري كيف منهم من يقرأ القرآن، فقلت له بلهجتي العامية: أنت مبسوط؟ فقال أنا سعيد. قد قالها بمد طويل ما زال صداها في أذني حتى هذه اللحظة، فاستيقظت فرحة قائلة: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، وفرحت فرحةً كبيرة.

وهم الرجل المعاصر:

في قصة جميلة لعالم فيزياء أمريكي أتى لزيارة مركزنا وقد أمضى معه الزملاء أكثر من ساعتين في مكتبة المركز في حوار قوي، وكان النقاش على أساس علمي

لإثبات وجود الله والذي كان ينكره هذا العالم. كنت أستمع بصمت ولم أتدخل في الحوار حتى شعر الإخوة بالتعب، فقد كان مجادلاً قويًا، وانتهى الحوار بدون الوصول لأي نتيجة مع الزائر، وغادروا جميعهم المكتبة.

وتوجه الزائر إليّ بالسؤال إن كنت على استعداد لإقناعه بطريقة علمية بوجود الله، وسألني إن كان لدي معرفة بالعلم المادي، فأجبته مبتسمة: أنا عندي معرفة بما هو أفضل من ذلك، عندي معرفة بالله.

قال: لا أرجوك، أنا مُصر أنه لا يوجد إله، لكن يوجد علم.

قلت له: إنك لا يمكن أن تدحض وجود الكاتب لمعرفتك بالكتاب، إنهم ليسوا بدائل. العلم اكتشف قوانين الكون لكن لم يضعها، الخالق هو الذي وضعها.

قلت له: على أية حال، إنس العلم هذه الحظة وأخبرني، أنت تريد أن تقنعي بعدم وجود الله، فهل أنت سعيد بهذه القناعة؟ هل أنت راضٍ عن نفسك؟ فاجأني بقوله: أبدًا، أنا لم أشعر بالسعادة قط في حياتي، أنا تعيس، لا أدري ماذا أفعل، وبكى.

قلت له: افعل ما يحقق لك السعادة، وسألته: هل تعرف قانون الجذب الكوني؟ أنك تحصل على ما تتوقع.

سأل بدهشة: وهل تؤمنين بهذا القانون؟

قلت له: أنا أعرفه ولكن لا أؤمن به، أنا أؤمن بشيء أعظم منه وهو حُسن الظن بالله.

أننا إذا آمنا أن الإله الخالق خلقنا ليرحمنا ولم يخلقنا ليعذبنا، وأنه أعد لنا جنة عرضها السماوات والأرض، فإننا نحصل على ما نتوقع إذا امتثلنا أمره. أما أنتم

فتؤمنون أنكم لا شيء، وجئتم من لا شيء، وسوف تصيرون إلى لا شيء، فتصيرون إلى ما هو أسوأ.

هل تقبل رد ابنك عليك عندما تسأله ماذا يريد أن يصبح عندما يكبر ويقول لك: لا شيء؟ إنك لن تقبل هذا الرد وسوف تعمل المستحيل لحث ابنك على العمل والدراسة والاجتهاد ليكون شخصاً ذا قيمة في المستقبل. قال: أنا أشعر أنني ضائع.

قلت له: سوف تبقى ضائع حتى تعود إلى الله، كالطفل الضائع عن أمه لن يجد السكينة والسعادة حتى يجد أمه.

تأثر هذا العالم الفيزيائي أكثر وقال: هل يستطيع أي شخص أن يعتقد الإسلام؟

قلت له: طبعاً فهو دين الفطرة.

قال: هل عليّ فقط أن أؤمن بوجود الله؟

قلت له: والإيمان برسله وأنبيائه من آدم إلى محمد عليهم السلام، والإيمان باليوم الآخر.

قال: نعم، نعم.

واسترسلت قائلة: وأن تقبل عيسى عليه السلام (المسيح) على أنه نبياً ورسولاً وليس إله أو ابن إله.

فقال بلهفة: لا لا المسيح ليس إله، هو نبي فقط.

الشاهد هنا، أن الإنسان يجب أن ينظر لذاته أولاً قبل أن يأخذه الغرور بعيداً عن الحقيقة، فمهما تطورت العلوم والتكنولوجيا حوله، فالإنسان لا يستطيع أن يطور نفسه إلى خلق آخر قابل للخلود أو حتى أن يعيش مستقلاً بذاته ودون

الحاجة للطعام، الشراب، الهواء أو حتى الاستغناء عن الذهاب للخلاء لقضاء حاجته. ويحاول الإنسان جاهداً أن يبحث في هذا الفضاء الفسيح عن حياة توفر له الديمومة والسعادة، وهو يعلم يقيناً أنه يعجز أن يصل للقمر بدون ألبسة واقية أو يكون في داخل مركبة تخرجه عن نطاق الأرض، وكل ذلك خشية أن يدركه الموت.

" قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِمَّنْ نُبْعِدُكُمُ الْإِلَهِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِينًا^{١٤}."

في عصر من العلمانية، يصف تشارلز تايلور كيف اتخذ المجتمع الغربي من الكون منعطفاً محوره الإنسان، وبعبارة أخرى، فإن الشخص العلماني ينظر الآن إلى نفسه على أنه سيد الكون، وخلص إلى أن كل ما لا تستطيع عينه رؤيته غير موجود.

لا عجب أن المجتمعات الغربية على وجه الخصوص، على الرغم من الكماليات ووسائل الراحة العديدة التي تملكها، واجهت أكبر صعوبة في التعامل مع مشكلة الشر، فلذلك فإن متزفيها يلجؤون إلى الانتحار في كثير من الأحيان لمجرد تعرضهم لأي مشكلة.

قال فيكتور فرانكل:

" الناس اليوم لديهم كل وسائل العيش ، ولكن لا معنى للعيش، مما يجعل الحياة سحجاً حيث يتدافع فيه القاطنون بين جدران الحياة والموت، مذعورين من كل

^{١٤} (الإسراء: ٥٠ - ٥١).

لدغة، في حياة بدون معنى، كل ألم يُعتبر حدث عشوائي لا يمكن تفسيره - لا مفر منه - لا يمكن تصنيفه إلا من حيث الطاقة والمادة، ولا يمثل سوى الفوضى والاضطراب والمأساة".

إن الهدف الأساسي للحياة هو ليس التمتع بإحساس عابر بالسعادة؛ بل هو تحقيق سلام داخلي عميق من خلال معرفة الله وعبادته. إن تحقيق الهدف الإلهي سيؤدي إلى النعيم الأبدي والسعادة الحقيقية. لذا، إذا كان هذا هو هدفنا الأساسي، فإن مواجهة أي مشاكل أو متاعب سوف تكون في سبيل بلوغ هذه الغاية.

تخيل شخصًا لم يواجه أي معاناة أو ألم مطلقًا، هذا الشخص بحكم حياته المترفة نسي الله، وبالتالي فشل في القيام بما خُلق لأجله. قارن هذا الشخص بشخص قادته تجاربه من المشقة والألم إلى الله، وحقق هدفه في الحياة. من منظور التعاليم الإسلامية، الشخص الذي قادته معاناته إلى الله أفضل من الذي لم يتألم وأدت به ملذاته إلى الابتعاد عنه.

كل إنسان يسعى في هذه الحياة لتحقيق هدف أو غاية، وغالبًا ما تكون الغاية مبنية على المعتقد الذي لديه. والشيء الذي نجده في الدين ولا نجده في العلم هو السبب أو المبرر الذي يسعى لأجله الإنسان.

فالدين يوضح ويبين السبب الذي خُلق من أجله الإنسان. في حين أن العلم هو وسيلة وليس لديه تعريف للنية أو المقصد.

إن أكثر ما يخشاه الإنسان عند الإقبال على الدين هو الحرمان من متع الحياة. فلاعتقاد السائد عند الناس أن الدين يعني بالضرورة الانعزال، وأن كل شيء حرام إلا ما أحله الدين.

وهذا الخطأ الذي وقع به الكثيرون وجعلهم ينفرون من الدين. وجاء الدين الإسلامي ليصحح المفهوم، وهو أن الأصل هو الحلال للإنسان وأن المحرمات والحدود معدودة ولا يختلف عليها أحد.

وأن الدين يدعو الفرد للاندماج مع كافة أفراد المجتمع كما يدعو للموازنة بين متطلبات الروح والجسد وحقوق الآخرين.

إن من أكبر التحديات التي تواجه المجتمعات البعيدة عن الدين هي كيفية التعامل مع الشر والتصرفات السيئة للإنسان. فلا تجد غير فرض أشد العقوبات لردع أصحاب النفوس المنحرفة.

قيمة الحياة الدنيا:

إن الامتحان جعل لتمييز الطلاب على مراتب ودرجات عند اقبالهم على الحياة العملية الجديدة. ورغم قصر الامتحان إلا أنه يقرر مصير الطالب نحو الحياة الجديدة المقبل عليها. وكذلك الحياة الدنيا رغم قصرها هي بمثابة دار ابتلاء وامتحان للبشر، ليتمايزوا على درجات ومراتب عند اقبالهم على الحياة الآخرة. إن الإنسان يخرج من الدنيا بأعماله ولا يخرج منها بالماديات. فالإنسان يجب أن يفهم ويعي أنه يجب أن يعمل في الدنيا من أجل الحياة الآخرة وابتغاء الأجر في الآخرة.

لقد نسي الناس المعنى الحقيقي من هذه الحياة عندما تدمروا من فيروس الكورونا. لقد خلقنا الله للاختبار، وجزء من هذا الاختبار هو خوض تجربة المعاناة والشر. إن اجتياز الاختبار يُسهل وصولنا إلى النعيم الأبدي في الجنة.

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُوفُ " ١٥.

يُسيء الملحد فهم الغرض من وجودنا على الأرض. إن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا ساحة للتجارب والحن من أجل اختبار سلوك الإنسان وتنمية الفضيلة لديه. على سبيل المثال، كيف يمكننا تنمية الصبر إذا لم نواجه مواقف تختبر صبرنا؟ كيف يمكننا أن نُنمي الشجاعة إذا لم تكن هناك مخاطر يجب مواجهتها؟ كيف يمكن أن نكون رحيمين إذا لم يكن هناك من يحتاج إليها؟ وأذكر أنني كنت أردد دائماً "اللهم آتنا الحكمة التي من أوتيتها أوتي خيراً كثيراً"، وعندما انتقلت للعيش في أفريقيا وواجهت صعوبات الحياة في عالم لم أكن أعرف عنه الكثير، وحرصني على تربية أبنائي على الصراط المستقيم، دون أن أجعلهم منطوين ومنعزلين، مما أكسبني كثيراً من الحكمة، فأدركت ساعتها أن الله قد استجاب دعائي.

فلماذا الاختبار؟

منهم من يقول: بما أن الله رحيم ومصدر لكل خير، فلماذا لا يُدخلنا جميعاً الجنة؟

في الواقع أن الله يريد الإيمان لجميع عباده.

"وَلَا يَرْحَمُ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ" وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" ١٦.

ومع ذلك، إذا أرسل الله الجميع إلى الجنة، فسيحدث انتهاك صارخ للعدالة؛ وسوف يعامل الله نبيه موسى وفرعون بنفس الطريقة، ويدخل كل ظالم وضحاياه الجنة وكأن شيئاً لم يكن، هناك حاجة إلى آلية لضمان أن الأشخاص الذين يدخلون الجنة يدخلونها على أساس الجدارة.

١٦ (الزمر: Y).

وإن جمال التعاليم الإسلامية هو أن الله الذي يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا، قد أخبرنا أنه لدينا ما يلزم للتغلب على هذه الابتلاءات.

"لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..."^{١٧}.

ومع ذلك، إذا لم تتمكن من التغلب على هذه المضاعف بعد أن بذلنا قصارى جهدنا، فإن رحمة الله وعدله سيضمنان حصولنا على تعويض بطريقة ما، إما في هذه الحياة أو في الحياة الأبدية التي تنتظرنا.

معرفة الله في السراء والضراء:

في لقاء لي مع مسؤول كبير في مؤسسة دولية من الأرجنتين، وقد كان الحوار باللغة الإسبانية، أذكر أن الزملاء حذروني من التكلم معه عن الدين، لأن الدين برأيهم موضوع شائك وحساس، لكنني رفضت وقلت لهم: أنني لا أعرف أن أتكلم إلا عن الدين، وقد كنت أنا خيارهم الوحيد حيث أنني أتكلم الإسبانية. بدأت حوار معي بذكر وحدانية وعظمة الخالق، وعمل مقارنة بسيطة بين الديانات وتوضيح أن التوحيد هي الحلقة المفقودة، والتي بها تتوحد الأمم. فاجأني بدموعه واحمرار شديد بوجهه ورجفة في يديه قائلاً: أنتم المسلمون أفضل منا بكثير.

قلت له: لماذا؟

قال: إنكم تلجؤون له في السراء والضراء ونحن لا نلجأ إليه إلا في الشدائد، نحن متعلقون بالدنيا وأنتم متعلقون بالآخرة.

قلت له: إذا فالشدائد رحمة لكم وليس نقمة، فتأثر كثيراً.

^{١٧} (البقرة: ٢٨٦).

نحن البشر ننسى بسرعة لأسباب مختلفة. أحد هذه الأسباب هو الراحة والنعيم، لهذا يقطع الله أحياناً حلاوة الحياة ببعض الابتلاءات عندما نتشبث بترفها، وننسى هدفنا الرئيس الذي جئنا إلى هذه الدنيا من أجله.

قلت له: هذه الدنيا اختبار، والإنسان يخرج من الدنيا فقط بشهادة ناجح أو راسب. فمن الخطأ أن يحب الإنسان الدنيا، فهو كمن يقول إنه يجب الامتحان ومتعلق به ولا يريد الشهادة التي يخرج بها من هذا الامتحان.

لذلك فحب الدنيا لذاتها هو أصل الشرور وهو الذي يُوقع الإنسان في متاهة، فمشكلة الناس أنهم لا يفهمون سبب وجود هذين المتناقضين معاً في الدنيا. فالامتحان أو الابتلاء في الدنيا إما أن يكون بالخير أو بالشر. فامتحان الخير غالباً ما يشد الإنسان للدنيا ويبعده عن خالقه، في حين أن امتحان الشر يُبعد الإنسان عن الدنيا ويقرّبه أكثر لخالقه. فالإنسان لا يعي أن امتحان الشر ربما ينفعه أكثر مما يضره في هذه الدنيا. وخير مثال على ذلك ما حصل للإنسان من انفتاح الدنيا عليه بالعلوم والمعارف والتكنولوجيا، واستغنى بها عن الدين وحتى عن الآخرين، كما أن الشر ليس بالضرورة أن يكون من فعل الإنسان، لكن ربما يصيبه الضرر من بعض ما يحصل في الكون، مثل البراكين والزلازل وانتشار بعض الأمراض والتي هي في نظر الإنسان شر، غير أن هذه الظواهر والأحداث تقع فعلياً لعمل توازن بيئي. وهياً رب العالمين للإنسان من الوسائل ما يمكنه أن يدفع عن نفسه شر هذه الظواهر والأحداث.

فمثلاً ما تعرض له الإنسان مؤخراً من انتشار مرض الكورونا وما تسبب من تعطل حركة الإنسان وشلل لكافة أنشطة الحياة وفقدان عدد كبير من الضحايا، فأصبح الإنسان أكثر اقبالاً على مساعدة الآخرين وتوحدت مشاعر الناس

وحتى الأعداء منهم، ومن كانت لديهم نزاعات وخصومات تركوها جانباً ريثما يجدوا حلاً لهذا الخطر الذي داهم الجميع. وكأن وجود الابتلاء بالشر نفع الإنسان أكثر مما ضره وخاصة عندما توقفت بعض الحروب الأهلية بسبب هذا المرض.

كما سُمح للأذان أن يُرفع ويُعلن في بعض المناطق التي لم يتصور أن يسمع فيها كلمة "الله أكبر". وكأن هذا الابتلاء الذي ألمَّ بالناس كشف عن قلوبهم الغشاوة الزائفة.

"اغْلَمُوا أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِيبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَذَلِ غَيْثٍ أَغْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ" ١٨.

فكما ذكرنا أن الحياة الدنيا هي دار للامتحان والابتلاء وجعل فيها المتناقضات والأضداد، مثل الخير والشر، والمرض والدواء، والحر والبرد، والليل والنهار، والحياة والموت... إلخ، فكان لا بد من وجود الإرادة للإنسان ليختار.

وأما الشر الذي يقع من الناس، فهو ليس لأن الله زرع في الإنسان الخير والشر، إنه مفهوم خاطئ. إنما زرع الله إرادة الاختيار بين الإقبال على الخير أو الإقبال على فعل الشر، والإنسان هو الذي يختار بكامل إرادته وعليها سوف يحاسب.

"وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" ١٩.

"وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..." ٢٠.

١٨ (الحديد: ٢٠).

١٩ (الشمس: ٧-١٠).

٢٠ (الكهف: ٢٩).

عصر من الحساسية المفرطة:

إن الخير والشر في هذه الدنيا كانا متلازمين في كل زمان ومكان عبر العصور. غير أنه لوحظ زيادة الحساسية من ظهور الشر بين الحين والآخر في عصرنا الحاضر، والسبب ببساطة هو الحياة الرغدة التي أصبح يعيشها الإنسان الحديث بعد التطور الكبير في العلوم والتكنولوجيا وأصبحت المقولة الشائعة في عصرنا الحالي "نحو حياة أفضل، هنأ، أطول..." وغيرها من المقولات التي تُعبر عن سعادة الإنسان وتمكنه من تحقيق أحلامه وتخيالاته، حيث أنه تمكن من الوصول للقمر وهو شيء لم يتصوره الأقدمون. فكان من الطبيعي أن مشكلة وجود الشر سوف تتضخم وتكبر عند أولئك الذين لديهم حساسية خاصة عند رؤية دموع الأطفال وضعف كبار السن، وصراخ الألم من الأمراض.

انتاج التميز البشري:

يعلم الله النزعة البشرية إلى الغفلة والخمول، وبالتالي فهو أحياناً يوقظنا من غفلتنا. إن للإنسان صفات جميلة قادرة على أن تتطور وتنمي حياتنا دوماً للأفضل. وتظهر هذه الصفات والفضائل جلياً عند الأزمات والكوارث. فعند الأزمات والزلازل، تظهر قيم الشجاعة، الكرم، الأخوة والإيثار بشكل واضح حتى مع الأعداء.

إن البشر الذين على قلوبهم غشاوة الترف أو غشاوة العداوة أو غيرها من الصفات المذمومة تنقشع عند أول كرب يلهم بالإنسان. إن الابتلاءات مثل اليتيم، أو التشرد بلا مأوى، أو الجوع، أخرجت للعالم مواهب، أبطال وشخصيات رائعة من حولنا. نحت هذه الابتلاءات فضائل المثابرة فيهم والتي أدت بهم إلى صنع التاريخ.

إن أذكى العقول وأعظم الاكتشافات لم تؤت إلا من خلال بذل الدماء والعرق وذرف الدموع.

حتى على الصعيد الشخصي، فإنه ينشأ عن كل تجربة فاشلة حياة جديدة، فعندما يُعلق الله أمامنا باب تكون مجرد إشارة لحثنا على تغيير الاتجاه، فلهذا علينا أن ندرك أنه عند تعرضنا للمشاكل أن مشكلتنا الحقيقية لم تكن السحب الضخمة الداكنة التي تطاردنا، ولكن هي بالجفون الثقيلة التي منعنا من رؤية أشعة الشمس المشرقة.

لذلك فالله تعالى يجدد حياتنا بشكل دوري ببعض الاضطراب. إن بمجرد استيقاظهم من الغفلة، يدرك البشر حقيقة وجودهم، ويشعرون بدافع عاجل وقوي نحو العيش لأشياء أكبر وأهم، ومن ثم، فإن هذه "الشرور" تزرع بذور الامتياز البشري، ولا يكتشف الناس إمكاناتهم ويحققون أنفسهم فحسب، بل ينتقلون إلى مركز عميق من السمو الذاتي: العيش مع الله، بالله، والله في الدنيا والآخرة^{٢١}.

سعادة الدنيا والآخرة:

سألني ملحدٌ يومًا ما عن حاجة الإنسان للإيمان بالخالق، وإنه برأيه يكفي أن يكون هناك أخلاقيات وقيم تحكمنا نحن البشر، وعلاقات يحترم بعضها البعض.

^{٢١} <https://yaqeeninstitute.org/mohammad-elshinawy/why-do-people-suffer-gods-existence-the-problem-o>.

problem-o.

محمد الشاوي.

قلت له: ليس هناك معنى أن يحافظ الموظف على علاقته بباقي زملائه ويحترمهم، في حين أن يُهمل علاقته مع صاحب العمل، لذلك كي نحصل على الخير بحياتنا ويحترمنا الآخرون يجب أن تكون علاقتنا بخالقنا أفضل وأقوى علاقة.

إضافةً إلى ذلك، فنقول ما الدافع الذي يدفع بالإنسان إلى إقامة الأخلاقيات والقيم وباحترام القوانين أو احترام الآخرين. أو ما الضابط الذي يضبط الإنسان ويجبره على فعل الخير وليس الشر. وإن قلتم بقوة القانون، فنرد ونقول: إن القانون لا يتوافر في كل زمان ومكان، ولا يكفي وحده لحل كافة النزاعات على المستوى المحلي والدولي. ومعظم تصرفات البشر تتم في معزل عن القانون وأعين الناس.

ويكفي دليلاً على الحاجة للدين هو وجود هذا العدد الكبير من الديانات والتي تلجأ إليها غالبية أمم الأرض لتنظم حياتها وتضبط تصرفات شعوبها على أساس قوانين دينية. فكما نعلم أن الضابط الوحيد للإنسان هو معتقده الديني في حال غياب القانون، فالقانون لا يمكن أن يتواجد مع الإنسان في كل حين وكل مكان.

فالوازع والرادع الوحيد للإنسان هو اعتقاده الداخلي بوجود رقيب عليه وحسيب، وهذا الاعتقاد في الأصل دفين وراسخ في وجدانه، يظهر بوضوح لدى الإنسان عندما يهمل بفعل خاطئ، حيث تتنازع لديه ملكات الخير والشر ويحاول إخفاء أي عمل فاضح عن أعين الناس، أو أي عمل تستنكره الفطرة السليمة. كل هذا دليل على وجود لمفهوم الدين والاعتقاد في أعماق النفس البشرية.

فالدين جاء ليمأل الفراغ الذي لا يمكن للقوانين الوضعية أن تملأه أو تُلزم العقول والقلوب به على اختلاف الزمان والمكان.

كان مما قرأت وأعجبني أن الدافع أو المحرك لدي الإنسان لعمل الخير يختلف من شخص لآخر. وأن كل شخص له دوافعه ومصالحه الخاصة لفعل أو الالتزام بأخلاقيات أو قيم محددة.

- العقوبة: وقد تكون هي الرادع للإنسان لكف شره عن الناس.
- المكافأة: وقد تكون هي الدافع للإنسان للإقبال على فعل الخير .
- إرضاء الذات: وقد تكون الضابط للإنسان لضبط نفسه عن الشهوات والرغبات. وأن للإنسان مزاج وهوى وما يعجبه اليوم قد لا يعجبه غداً.

- الوازع الديني: وهو معرفة الله والخوف منه واستشعار وجوده أينما ذهب، وهو الدافع القوي والفعال^{٢٢}.

إن للدين أثراً كبيراً في تحريك مشاعر وعواطف الناس سلبيًا أو إيجاباً. وهذا يدلنا على أن أصل فطرة الناس مبنية على معرفة الله، وقد تُستغل في كثير من الأحيان بقصد أو بغير قصد كدافع لتحريكه. وهذا يوصلنا إلى خطورة الدين في وعي الإنسان لأن الأمر يتعلق بخالقه.

يقول ابن القيم:

"إن في القلب شعث لا يلثمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة لا يُزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يُذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته،

^{٢٢} Atheism a giant leap of faith Dr. Raida Jarrar.

وفيه قلقٌ لا يُسْكِنُه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيرانُ حَسراتٍ لا يُطفئُها إلا الرِّضا بأمره ونهيهِ وقَضائِهِ ومُعانقَةِ الصَّبْرِ على ذلك إلى وقتٍ لقائِهِ، وفيه طَلَبٌ شَدِيدٌ لا يَقِفُ دُونَ أن يكونَ هو وحده المطلوب، وفيه فاقة لا يَسُدُّها إلا مَحَبَّتُهُ ودوامُ ذِكْرِهِ والإخلاصُ له، ولو أُعْطِيَ الدُّنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلكَ الفاقةُ أبداً".

بديع السمّوات والأرض

ففرّوا إلى الله!

في زيارة لنا لدولة جنوب أفريقيا، رأينا ما لا يخطر على البال من جمال يأخذ بالألباب، حتى وصلنا إلى منطقة رأس الرجاء الصالح في مدينة كيب تاون، وأدركنا أننا في عالم آخر. شواطئ من البطاريق وعوالم للطيور والفراشات بألوان لم نرها من قبل مع كثرة تجوالنا وترحالنا. وفي هذا المكان الذي يمتلئ بالخضرة والبهجة، يعيش انسان بسيط من دولة ماليزيا وقد وُلد في هذا المكان وترعرع، رجل مُسِن كان يعمل سائقًا وقد أخذنا في جولة لمدة عشرة أيام في هذه المدينة. ما أدهشني أنني عندما سألته عما إذا كان قد زار مكانًا آخر في العالم، قال: أنا لا أعرف إلا مكة، ولا أريد أن أعرف إلا مكة، وإنني كلما حصلت على مبلغ من المال ذهبت لأزور مكة. وقال إنهم يذهبون بقوافل يقطعون فيها القارة السوداء وتأخذ هذه الرحلة منهم الكثير من الوقت والجهد والمال، لكنه يُصر على الذهاب كلما حصل على المال. تأثرت كثيرًا وقلت في نفسي: رجل يترك هذا الجمال ليذهب إلى أرض مقفرة لا زرع فيها ولا شجر، وحينها تذكرت الآية الكريمة "فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ"^{٢٣}، وقلت في نفسي: صدق الله العظيم. ما أعظم هذا الخالق الذي زرع في قلوبنا بذرة التعلق به، والشوق للقائه والذي سهّل علينا الطريق إليه، وسرّرت كثيرًا.

^{٢٣} (الذاريات: ٥٠).

وما قدروا الله حق قدره!

"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ... " ٢٤.

من القصص الجميلة التي أذكرها لحواري مع دبلوماسي من الصين يتكلم الإنجليزية بطلاقة، وكان قد أضحكني عندما قال: إن الخالق خلق الكون وانشغل، ولم يعد يتدخل فيه. بصراحة ظننت أنه يستهزأ، لكنني علمت فيما بعد أن هذه العقيدة من أساسيات ديانة منتشرة في العالم.

قلت له: أن الله تعالى يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات من أكمامها، وأحصى كل شيء عددا.

فقال: أليس عجيباً أن يتدخل الخالق في كل صغيرة وكبيرة؟

قلت له: ببساطة إن الذبابة التي تبدو تافهة في نظر الناس، ممكن أن تتسبب في نقل الأوبئة والأمراض، ويمكن لها أن تُغير موازين القوى. ألم تكن البعوضة سبباً في مصرع الإسكندر؟

كما يكفي أن نرى في وقتنا الحاضر من انتشار الميكروبات الصغيرة التي يخشاها الإنسان دون أن يراها وتتحكم في مصيره. إن عظمة الخالق أنه وحده يعلم قيمة كل شيء.

إنني دائماً ما أذكر حوارٍ مع هذا الدبلوماسي وأقول في نفسي: "قَلْبُهَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْنَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" ٢٥.

إن الدول العظمى تتسابق لاستعراض ما لديها من قوة وجيوش بعمل العروض العسكرية، والله تعالى يرينا عظمتها بما لا تراه العيون.

٢٤ (الأنعام: ٩١).

٢٥ (الحج: ٤٦).

إن انتشار فيروس الكورونا في هذه الأيام، جعل العالم يستشعر عظمة الخالق، وكيف تبدلت الموازين واختلقت المعايير والأولويات، وكيف انهارت أمام هذا الكائن المجهري الأسلحة النووية والهيدروجينية، لينهار غرور الإنسان أمام الله. يقول ابن القيم:

"تأمل خطاب القرآن، تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أرمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومرؤها إليه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مُطلِّعًا على أسرارهم وعلايتهم، مُنفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، يمنح ويعطي، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر".

عظمة الله تتجلى في تواصله مع خلقه:

لقد شدي كثيرًا حوار مع الصيني، وعكفت على قراءة المزيد عن هذا الاعتقاد الذي يؤمن أتباعه أن الخالق خلق الكون وتركه، ولم يتواصل معنا عن طريق الرسل، وعكفت عن البحث على طريقة الرد عليه وعلى غيره ممن يتبنون هذا الاعتقاد، وهو ما يُسمى لديهم بمفهوم الحياد الإلهي. خلال بحثي ودراستي لهذه النقطة، وجدت أن القرآن الكريم أقر بتواصل الله مع خلقه عن طريق الرسل^{٢٦}.

وتجلت عظمة الله بتقديم دلائل تواصله مع الإنسان في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

^{٢٦} مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

"رُسُلًا مُبْتَلِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِّعَلَّآ يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ؕ وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا"
٢٧.

بدايةً أكد سبحانه وتعالى بأن هناك حكمة من خلق الإنسان.

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" ٢٨.

وأكد بالنفي مراراً أن تكون الغاية من الخلق اللهو أو اللعب.

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِيْنَ" ٢٩.

"لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِيْنَ" ٣٠.

وأكد استسلام جميع ما في السماوات والأرض له سبحانه.

"أَفَعَبِرَ دِينِ اللّٰهِ يَتَّعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" ٣١.

وبيّن أنه خلق الجن والإنس لعبادته.

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" ٣٢.

وبيّن أن تميّز الإنسان هو بالتوجه لرب العالمين مباشرة وإخلاص العبودية له

بمحض إرادته، ويكون بذلك حقّق حكمة الخالق بجعل الإنسان على رأس

المخلوقات .

"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّٰهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيْلًا" ٣٣.

والعبادة المقصودة هنا هي بمعناها الشامل، وهو معرفة رب العالمين والتواصل

معه والتعرف على صفاته، وتمجيده وتنزيهه عما لا يليق به.

٢٧ (النساء: ١٦٥).

٢٨ (المؤمنون ١١٥).

٢٩ (الأنبياء: ١٦).

٣٠ (الأنبياء: ١٧).

٣١ (آل عمران: ٨٣).

٣٢ (الذاريات: ٥٦).

٣٣ (النساء: ١٢٥).

إضافة لما أشار إليه القرآن الكريم، هناك عدد من الأدلة العقلية على تواصل الخالق مع البشر ومنها^{٣٤}:

الحكمة:

فمثلاً إذا بنى الإنسان مسكناً، ثم تركه بدون منفعة له أو لغيره أو حتى لأولاده، فإننا بطبيعة الحال نحكم عليه بأنه انسان غير حكيم أو غير سوي. لذلك - والله المثل الأعلى - فإنه من البديهي أن يكون هناك حكمة من خلق الكون وتسخير ما في السماوات والأرض للإنسان.

الفطرة:

يوجد في داخل النفس البشرية دافعاً فطرياً شديداً لمعرفة أصله ومصدره والغاية من وجوده، إن فطرة الإنسان تدفعه دوماً للبحث عن المتسبب بوجوده. فالشخص الذي يُولد ولا يجد والده أو والدته تبقى لديه رغبة جامحة للبحث والتعرف على أمه وأبيه المتسببين في وجوده في هذه الحياة.

وكذلك الإنسان تدفعه فطرته دوماً للبحث عن المتسبب في وجوده. ومع أن الإنسان يستطيع أن يهتدي لخالقه بفطرته إلا أنه لا يستطيع أن يُميز صفاته أو كيفية التواصل معه إلا من خلال تدخل هذه الإرادة الغيبية، وذلك بإرسال رسل لتكشف لنا عن هذه الحقيقة.

ف نجد أن كثيراً من الشعوب وجدت طريقها في الرسالات السماوية، في حين أن غيرها من الشعوب لا زالت في ضلالها تبحث عن الحقيقة، وتوقفت في تفكيرها عند الرموز المادية الأرضية.

^{٣٤} مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

إن وجود الدافع الفطري لدى الإنسان للتواصل مع خالقه ومعرفة الغاية من وجوده ومعرفة مآله بعد الموت بزغت عند الإنسان منذ القدم، ووضع لها الأساطير، وأسس لها الفلسفات التي تقوم على هذه الأسئلة الوجودية والمحورية. إن وجود هذه الأفكار في وعي الإنسان وتوجهه للبحث عن أجوبة في هذا المجال تعطينا دليلاً قوياً على أن هناك إرادة غيبية تقف وراء ذلك، وتدفع بالإنسان للبحث والتواصل مع خالقه. وإنه لمن المستنكر أن يُترك المخلوق بهذه الفطرة بدون إرشاد أو هداية من المصدر الذي زرع تلك الفطرة فيه.

الاخلاق:

إن ظمئنا للماء هو دليل على وجود الماء قبل أن نعرف بوجوده، كذلك شوقنا إلى العدل هو دليل على وجود العادل. إن الإنسان الذي يُشاهد ما في هذه الحياة من نقائص، ومن ظلم الناس لبعضهم البعض، لا يقتنع بأن الحياة يمكن أن تنتهي بنجاة الظالم وضياع حق المظلوم. بل إن الإنسان يشعر بالراحة والطمأنينة عندما تُطرح عليه فكرة وجود البعث والحياة الآخرة والقصاص. لا شك أن الإنسان الذي سوف يُحاسب على أعماله لا يمكن أن يُترك دون توجيه وإرشاد، وبدون ترغيب أو ترهيب، وهذا هو دور الدين.

كما أن وجود الديانات السماوية الحالية الذي يؤمن أتباعها بألوهية مصدرها يُعتبر دليل مباشر على تواصل الخالق مع البشر. وحتى وإن أنكر الملحدون إرسال رب العالمين لرسل أو كتب سماوية، فيكفي وجودها وبقائها دليلاً قوياً على حقيقة واحدة وهي رغبة الإنسان الجائعة في التواصل مع الإله واشباع الفراغ الفطري لديه.

نجد في القرآن الكريم الحرص الواضح على تقديم الأدلة على صدق الأنبياء والمرسلين، واختيار الأسلوب في الإقناع الذي يناسب كل زمان ومكان. فليس من المنطق أن نقبل أو نؤمن بوجود خالق، ولا يكون هناك بروتوكول تواصل (طريقة، شريعة أو منهاج تواصل) معه، وهذا هو الدين.

إن من صفات الخالق الحكمة، ومن الصفات المفطورة في الإنسان هو تنازع الخير والشر ووجود الإرادة للاختيار. فمن البديهي أن يتبين لنا حتمية حكمة الخالق، ويكفي وجود الموت على حتمية الحساب. فالموت ليس افناء إنما هو مرحلة الانتقال للحساب. وهذا هو دور الديانات السماوية في تبيان هذه الحقيقة .

عظمة الخالق تتجلى في اجابة المضطر:

أذكر حوار لي مع سيدة ألمانية متزوجة من أرجنتيني وأم زوجها الأرجنتينية عن عظمة الخالق، وكان اللقاء بدون حضور الزوج، وكنت قد أدركت أن السيدة الألمانية لا تعتقد بوجود إله، لكن حصل أثناء الحوار ما أبكانا جميعًا.

والدة الزوج كانت تسألني بإلحاح عن المصاعب التي يتعرض لها الإنسان وكيف يتصرف للنجاة منها، وقد كان هذا الحوار مؤثر للغاية، لدرجة أنه أبكى والدته الزوج عندما كنت أشرح عن رحمة الله وحكمته من وجود المصاعب والآلام التي قد يتعرض لها الإنسان في الحياة. وكنت مستطردة في الحديث عن صفات الجلال والجمال للخالق، حتى قالتا لي: إذاً ما الحل؟ ماذا نفعل عند تعرضنا للشدائد؟

قلت لهما: الحل فقط بقول يا رب.

قالتا: كيف؟

وكان سؤالهما قد أثار فضولي، وقد كنت قد أرشدهما لكيفية رفع اليد عند الدعاء وكلمات الدعاء، وقلنا بصوت واحد: يا رب.

وفجأة ونحن ما زلنا نردد الكلمات، حتى جاءت مكالمة هاتفية للألمانية بخبر جعلها تبكي فرحاً، بل وتقفز من شدة فرحها، وتأخذني بالأحضان تارة وتحتضن أم زوجها تارة أخرى، تزامناً مع سؤال والدتها زوجها لها بقولها: هل خرج، هل خرج؟ وقالت لها: نعم، نعم. وأخذتني كل واحدة منهن بالأحضان وقالتا: شكرًا يا رب.

وقد فهمت لاحقاً أن الزوج كان محجوزاً في السجن من ثلاثة أسابيع لتعارض في بياناته الشخصية لدى الحكومة، وقد كان ذا مركزاً مرموقاً في المجتمع، وحجزه بهذه الطريقة كان صدمة لهم.

قالت لي الألمانية كلمات لن أنساها في حياتي، قالت: أشكرك لأنك أخرجت من قلبي ما لم أعرف أنه موجود، لم أكن أتخيل في حياتي أنني مؤمنة بالله. فأدركت حينها عظمة الله الذي أجاب الدعاء في تلك اللحظة وهدى قلوباً تتوق لمعرفة.

كان قد أسعدني كثيراً ما اعترفت به لي هذه السيدة، حيث أثبتت ما أردده دائماً لطلابي في محاضراتي للمسلمين وحواراتي مع غير المسلمين بقناعتي الكاملة أن الإلحاد غير موجود أصلاً، والجميع مؤمن بالله شاء أم أبى، عرف أم لم يعرف. ودورنا فقط مساعدة من يدّعي الإلحاد على إظهار ما يخفيه من الإيمان أو يحاول إخفائه.

وما أحوجنا جميعا الآن في هذه الظروف من انتشار لمرض الكورونا لدعاء المضطر، وكأننا جميعاً في بطن الحوت، فما أن أحوجنا أن نردد سوياً الآية الكريمة: "...أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" ... ٣٥.

لماذا الدين؟

سألني ذات يوم طبيبة برتغالية عن أهمية اعتناق الدين الإسلامي، ولماذا عليها اعتناق أي دين أصلاً؟ ولماذا لا تكفي بإيمانها بالله فقط، وأن تعبد بطريقتها. وقالت إنها مؤمنة بوجود خالق للكون لكنه بالنسبة لها لا يتواصل مع البشر عن طريق الرسل، وقالت إنها تقوم بأعمال خيرية وتساعد البشرية والحيوانات أيضاً، لكنها لا تنتظر أجر من الله وتعمل هذا في سبيل الإنسانية، وأن سعادتها ومكافئتها تنتظرها من البشرية.

قلت لها: وهل تعتقدين أن الإنسانية لا تفي؟ هل سعادة الإنسانية دائمة؟ عند فناء الإنسانية لن يبقى إلا الحي الذي لا يموت. أنتِ كمن يدرس اثني عشر سنة على مقاعد الدراسة ويقول: لا أريد الشهادة.

تخيلي نفسك مشتركة في مؤسسة ضمان اجتماعي للحصول على راتب تقاعدي، وأعلنت الشركة أنه لن يكون بمقدورها دفع الرواتب التقاعدية وسيتم إغلاقها قريباً، وعلمتي أنتِ بذلك، هل ستستمرين بالتعامل معها.

المؤمن هو من يعمل ويجتهد ويساعد الإنسانية لكن في سبيل الله، وبالتالي سوف يحصل على سعادة الدنيا والآخرة.

قلت لها: بخصوص أهمية وجود الدين، تخيلي أنك تسيرين في طريق ولا تعرفين نهايته، وأمامك خيارين، إما أن تتبعي التعليمات الموجودة في الطريق على اللافتات أو تحاولي التخمين مما قد يُسبب لك الضياع والهلاك.

أو تخيلي أن تشتري جهاز تلفاز وتحاولي تشغيله بدون الرجوع إلى تعليمات التشغيل، فسوف تُفسديه. جهاز التلفاز الصادر من نفس المصنع يصلني هنا مثلاً مع نفس كتيب التعليمات الذي يصلك إلى البرتغال، فيجب علينا استخدامه بنفس الطريقة.

قلت لها أيضاً: إنك إن أردتِ التواصل معي مثلاً فعليّ أن أخبرك بالوسيلة الممكنة، كأن أخبرك أن تكلميني هاتفياً وليس عن طريق البريد الإلكتروني مثلاً، وعليك أن تستخدم رقم الهاتف الذي أزودك به أنا شخصياً، ولا يمكنك استخدام أي رقم آخر.

نجد بعض الشعوب تقوم بالرقص والغناء في دور العبادة للتواصل مع رب العالمين، وغيرها ممن يُصنّف لِيُوقظ الإله حسب عقيدتهم.

إن من عظمة الله أن جعل لنا نظاماً نسير عليه جميعاً، لينظم علاقتنا به وعلاقتنا بمن حولنا، وهو ما يُسمّى بالدين.

لا يمكن للبشر أن يعبدوا الله باتباع أهواءهم، لأنهم سوف يضرّوا بأنفسهم أولاً قبل أن يضرّوا بغيرهم. فمنهم من يعبد الله باتخاذ وسيط، ويتصور أن الله يأتي بصورة بشر أو حجر، فالله يريد أن يحمينّا من أنفسنا عندما نعبد ما لا ينفعنا ولا يضرنا، بل ويتسبب في هلاكنا في الآخرة. فعبادة غير الله مع الله تُعد أعظم الكبائر، وعقابها الخلود في النار.

سألتني: لماذا اتخذ الوسطاء في عبادة الله يؤدي إلى الخلود في النار؟

قلت لها: تخيلي أن تهديني بهدية وأشكر أنا شخصاً آخر، وأتوجه له بالشاء والشكر وأنت من أهديني هذه الهدية. هذا حال العباد مع خالقهم، أعطاهم الله ما لا يُعد ولا يُحصى من النعم وهم بدورهم يشكرون غيره، وهو الغني عنهم سبحانه وتعالى.

وكما هو معروف في القانون البشري أن المساس بحق الملك أو صاحب الأمر لا يستوي مع غيرها من الجرائم الأخرى. فما بالك بحق ملك الملوك، إن حق الله تعالى على عباده أن يُعبد وحده، وحق العباد هو الحصول على علاقة مباشرة معه بدون وسيط، وبالتالي الحصول على الأمان في الدنيا والآخرة.

الدين الصحيح:

سألتني بعدها عن الدين الصحيح الذي يجب أن تعتنقه بعد إيمانها بالله. قلت لها: أنه من عظمة الله أن جعل الدين الصحيح سهل ومنطقي وموافق للفطرة التي فطر الناس عليها، وهو عبادته وحده وعمل الصالحات وترك المنكرات، وهو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء. كنت قد قرأت مرة أنه يمكن تمييز الدين الصحيح عن غيره من خلال ثلاثة نقاط أساسية^{٣٦}:

- صفات الخالق أو الإله في هذا الدين.
- صفات الرسول أو النبي.
- محتوى الرسالة.

فالرسالة السماوية أو الدين، لا بد أن يحتوي على وصف وشرح لصفات الجمال والجلال للخالق، والتعريف بنفسه وذاته وعلى أدلة وجوده.

^{٣٦} مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " ٣٧.

وأما فيما يختص بمفهوم الرسول وصفاته، فإن الدين أو الرسالة السماوية: تشرح كيفية اتصال الخالق بالرسول.

"وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى " ٣٨.

تبين أن الأنبياء والرسل مسؤولون عن التبليغ عن الله.

"يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... " ٣٩.

وأن الرسل لم يأتوا لدعوة الناس لعبادتهم، بل لعبادة الله وحده.

"مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ " ٤٠.

وتؤكد أن الأنبياء والمرسلين هم الذروة في الكمال الإنساني المحدود.

"وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " ٤١.

وأن الرسل يمثلون القدوة البشرية للإنسان.

"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " ٤٢.

إنه من غير الممكن، قبول ديانة تخبرنا نصوصها أن أنبيائها زناة، أو قتلة أو سفاحون وخونة ولا ديانة تعج نصوصها بالخيانة في أسوء معانيها.

٣٧ (الإخلاص ٤-١).

٣٨ (طه: ١٣).

٣٩ (المائدة: ٦٧).

٤٠ (آل عمران: ٧٩).

٤١ (القلم: ٤).

٤٢ (الأحزاب: ٢١).

أما فيما يختص بمحتوى الرسالة ينبغي أن تتميز بالآتي:

التعريف بالإله الخالق.

إن الدين الصحيح لا يصف الإله بصفات لا تليق بجلاله أو تقلل من قدره، كأن يأتي بصورة حجر أو حيوان أو أن يلد أو يولد أو يكن له مثل من أحد من مخلوقاته.

"...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"^{٤٣}.

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"^{٤٤}.

توضيح الغاية والهدف من الوجود.

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"^{٤٥}.

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا"^{٤٦}.

أن تكون المفاهيم الدينية في حدود الإمكانيات البشرية.

"...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ..."^{٤٧}.

"لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ..."^{٤٨}.

"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا"^{٤٩}.

^{٤٣} (الشورى: ١١).

^{٤٤} (البقرة: ٢٥٥).

^{٤٥} (الناريات: ٥٦).

^{٤٦} (الكهف: ١١٠).

^{٤٧} (البقرة: ١٨٥).

^{٤٨} (البقرة: ٢٨٦).

^{٤٩} (النساء: ٢٨).

تقديم البرهان العقلي على صحة ما يقوم بعرضه من مفاهيم ومُسلمات.

فيجب أن تعطينا الرسالة البراهين العقلية الواضحة والكافية للحكم على صحة ما جاء بها.

فلم يكتف القرآن الكريم بسوق الأدلة والبراهين العقلية، بل تحدى المشركين والملاحدين على أن يقدموا البراهين على صحة ما يقولون.

"وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ^{٥٠}.

"وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" ^{٥١}.

"قُلْ اظْهَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ" ^{٥٢}.

ألا يوجد تناقض بين المضامين الدينية التي تطرحها الرسالة.

"أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" ^{٥٣}.

"هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" ^{٥٤}.

ألا يتناقض النص الديني مع قانون الفطرة الأخلاقي للإنسان.

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" ^{٥٥}.

^{٥٠} (البقرة: ١١١).

^{٥١} (المؤمنون: ١١٧).

^{٥٢} (يونس: ١٠١).

^{٥٣} (النساء: ٨٢).

^{٥٤} (ال عمران: ٧).

^{٥٥} (الروم: ٣٠).

"يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَهُدًى مِّنَ الذِّكْرِ فَتَقْبَلُوهَآ وَنُحُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يُثَبِّتَ عَلَيْكُمْ وَهُدًى وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الشَّوَابَ أَن يُثَبِّتُوا مِثْلًا عَظِيمًا" ٥٦.

ألا تتناقض المفاهيم الدينية مع مفاهيم العلم.

”أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ“^{٥٧}

ألا يكون منعزلاً عن واقع حياة الإنسان، ومُواكِب للتقدم الحضاري.

”قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ“ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ“ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَصَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^{٥٨٨}.

صالح لكل زمان ومكان.

...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...^{٥٩}.

عالمية الرسالة.

”قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ“^{٦٠}.

نُخَلِّصُ مِمَّا سَبَقَ أَنْ مِنْ عَظَمَةِ الْخَالِقِ أَنَّهُ تَوَاصَلَ مَعَ خَلْقِهِ، وَأَرْسَلَ الرِّسْلَ بِالذِّينِ السَّمَاوِيِّ الصَّحِيحِ وَالسَّلِيمِ لِكَافَةِ الْبَشَرِ رَحْمَةً بِجَمٍّ وَلِلتَّخْفِيفِ مِنْ مَعَانَاثِهِمْ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَدْرِكُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ. فَنَجِدُ فِئَةً مِنَ النَّاسِ تَنْكُرُ إِرسَالَ

٥٦ (النساء: ٢٦- ٢٧).

٥٧ (الأنبياء: ٣٠).

٥٨ (الأعراف: ٣٢).

٥٩ (المائدة: ٣).

٦٠ (الأعراف: ١٥٨).

الله للرسول، في حين أن فئة أخرى من الناس جعلوا مع الخالق شركاء ووسطاء
واتبعوا طرق مختلفة للتواصل مع الخالق، وآخرين عانوا من معتقدات من حولهم
وانتهى بهم المطاف إلى ترك الدين بالكلية.

إن الحقيقة التي نريد أن نثبتها هنا أنه لا بد من وجود دين أولاً، وأنه لا بد أن
يكون دين واحد، لأن الخالق واحد (ولكن بشرائع ومناهج مختلفة تناسب
الأمم)، وأخيراً، أنه لا بد أن يكون الدين الصحيح هو دين الإسلام. فكيف
يقبل الله من عباده ديناً بدون التسليم له بالوحدانية وعبادته مباشرة، فإذا نظرنا
على وجه هذه البسيطة على مدار الزمان والمكان فلن نجد غير الإسلام ديناً
بمفهومه السمع والواضح الذي لا لبس فيه والذي يوفر للإنسان فرصة التواصل
المباشر مع خالقه.

فما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ

والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ:

في يوم كنت أشعر فيه بإحباط شديد من الحال الذي وصل إليه العالم من الابتعاد عن دين الله والتوجه لغيره في السؤال والطاعة مما لا ينفع ولا يضر، وكنت مسترسلة في تفكيري، حينما قاطعني مدرس اللغة الفرنسية المسلم بسؤاله عن سبب شرودي في التفكير، وكان ذلك الموقف في مركز اللغات بأفريقيا، وقلت له: ما يزعجني ويشد تفكيري هو غفلة الناس عن دين الله وشعوري بالمسؤولية تجاه ذلك، وأود أن تصل كلمة لا إله إلا الله إلى القاصي والداني. قال لي: لا تقلقي يا אחتي فالله وعد بحفظ دينه، ولن يُخلف الله وعده. وقد لفت نظري قوة إيمان هذا الشخص، وبقينه بالله، وتذكرت الآية الكريمة: "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"^{٦١}، وشعرت حينها براحة كبيرة.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ:

إن ما نشاهده اليوم في هذه الأزمة من موتى لا يعرف عنهم أحد، ودور مسنين تعج بالجلث الهامدة والتي تبرأ منها كل من حولها، ومن يموت في الطريق لا يدري عنه أحد، ومن لديه المال ينتظر العلاج، وكيف أصبحوا يُضْحَوْنَ بالكبير من أجل الصغير، ويتسابق المرضى على أَسِرَّةِ المستشفيات، وكأن هذا الموقف يعرض مشهداً شبيهاً بمشاهد يوم القيامة.

^{٦١}(الصف:٨).

فأزمة الكورونا أسقطت من قلوب الناس كثيرًا من الرموز التي كانوا يعلقون عليها أوهامهم، وجعلت آلهتهم الزائفة التي يقدسونها من دون الله تنهار. واحدًا تلو الآخر، فمن كان يعبد المال لم ينفعه ماله، ومن كان يظن أنه بالعلم المادي وحده يمكن أن ينجو لم ينفعه علمه، ومن كان يتوسل بالحجر والصنم لم يعد يقترب منهما خشية العدو، وكثيرًا ما نسمع عن قساوسة دعوا أتباعهم إلى اللجوء إلى الله مباشرة وتجنب المجيء إليهم، وأصبحت شمس لا إله إلا الله تتألأ في العالم.

لا شك أن الموقف يدفع بالإنسان دفعًا للرجوع والإنابة لرب العالمين والاستعانة به، وتتجلى كلمات الحديث الشريف في أجمل معانيها: **"إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ"**.^{٦٢}

أذكر كلمات قالها لي عجوز إسباني، قال: نحن في الغرب لا نعبد الله ولا نعبد المسيح، نحن نعبد النساء والمال. ومع أنه قد قال ذلك مازحًا لكن عبارته تحمل كثيرًا من الحقيقة، وتحضرنى عبارته الآن وقد قال الجميع في الغرب: اللهم نفسي.

أفرايت من اتخذ إلهه هواه:

كنت قد قرأت مرة^{٦٣}، أن التصميم، الضبط الدقيق، اللغة المشفرة، الذكاء، النية، الأنظمة المعقدة والقوانين المترابطة وما إلى ذلك، هي مصطلحات أرجع الملحدون مصدرها للعشوائية والمصادفة. على الرغم من أنهم لم يعترفوا بذلك أبدًا، يشير العلماء إلى الخالق بأسماء أخرى (الطبيعة الأم، قوانين الكون،

^{٦٢} (الترمذي).

^{٦٣} Atheism a giant leap of faith. Dr. Raida Jarrar.

الانتخاب الطبيعي "نظرية داروين"، إلخ...)، في محاولات بائسة للهروب من منطق الدين والاعتقاد بوجود خالق.

"إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَفْسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ"^{٦٤}.

إن استخدام أي اسم غير "الله" يسلب بعض صفاته المطلقة ويثير المزيد من الأسئلة. على سبيل المثال:

إنه لتجنب ذكر الله، يُعزى خلق قوانين عالمية وأنظمة معقدة مترابطة إلى الطبيعة العشوائية، ويُرجع بصر الإنسان وذكائه لأصل أعمى وأحمق.

إن بعض أتباع داروين الذين يعتبرون الانتقاء الطبيعي (عملية فيزيائية غير عقلانية) قوة إبداعية فريدة تحل جميع المشاكل التطورية الصعبة دون أي أساس تجريبي حقيقي، كانوا قد اكتشفوا فيما بعد تعقيد التصميم في بنية ووظيفة الخلايا البكتيرية، فبدأوا باستخدام عبارات مثل البكتيريا "الذكية"، "الذكاء الميكروبي"، "صنع القرار" و"البكتيريا لحل المشاكل". وبالتالي تحولت البكتيريا إلى إلههم الجديد.

الإنسان في الإسلام خليفة في الأرض وفي الحضارة الغربية حيوان متطور:

في حوار مع زائر فرنسي كان قد تطرق لموضوع أصل وجود الإنسان على الأرض، وقال: إن الغرب يتبنى نظرية تشارلز داروين، وأنا بشر متطورون عن قروود.

قلت له: فلماذا لم تتطور بقية القروود الآن لتصبح من بقية البشر؟

^{٦٤} (النجم: ٢٣).

قلت له أيضًا: النظرية هي مجموعة من الفرضيات، وتأتي هذه الفرضيات عن طريق مشاهدة أو ملاحظة ظاهرة ما، وتتطلب هذه الفرضيات لإثباتها القيام بتجارب ناجحة، أو المشاهدة المباشرة التي تبرهن على صحة الفرضية، فإذا كانت إحدى الفرضيات التي تنتمي إلى النظرية لا يمكن إثباتها لا عن طريق التجربة ولا عن طريق المشاهدة المباشرة فيعاد النظر في النظرية بالكامل.

فأعطيني أرجوك مثال عن كائن حي تطور عن آخر.

قال: أعطيك مثال منذ أكثر من ٦٠٠٠٠ عام.

قلت له: إذا لم تشاهده أنت أو تلاحظه فلا مجال لقبول حجتك.

قال: لا، لقد لوحظ في عهد قريب أن مناقير الطيور قد تغير شكلها في بعض الأنواع.

قلت له: لكنها بقيت طيورًا، وبناءً على نظريتك يجب أن تتطور الطيور إلى نوع آخر. وبالتالي فالنظرية ليس لها معنى.

قال: لا، لا، أنا أوؤمن بالعلم وأقرأ كتب كثيرة في هذا المجال وأصدقها.

قلت له: فما الفرق بينك وبين المؤمن بالله والمؤمن بكتاب الله؟ أنت تعتبر المؤمن بوجود خالق للكون إنسانًا متخلفًا لأنه قد آمن بشيء لم يره، مع أن المؤمن يؤمن بما يرفع من شأنه ويعلي مقامه، وأنت تؤمن بما يُحقِّرك ويُدني من شأنك.

الحقيقة أن فكرة أن الإنسان أصله قرد أو تطور عن قرد لم تكن من أفكار دارون أبدًا، لكنه يقول: بأن الإنسان والقرد يعودان إلى أصل واحد مشترك ومجهول سمّاه (الحلقة المفقودة) والتي حدث لها تطور خاص وتحولت إلى إنسان،

ومع أننا كمسلمين نرفض كلام داروين تمامًا، لكنه في كل الأحوال لم يقل كما يظن البعض: إن القرد هو جد الإنسان.

وقد ثبت أن دارون آمن بوجود إله^{٦٥}، لكن فكرة أن يكون الإنسان من أصل حيوان جاءت من أتباع دارون في المستقبل عندما أضافوها لنظريته وهم أصلاً من الملحدّين، وبالطبع نحن كمسلمين نعلم علم اليقين أن الله كرّم آدم وجعله خليفة في الأرض ولا يليق بمقام هذا الخليفة أن يكون من أصل حيوان أو ما شابه.

عصر من الجنون:

من الحوارات الشيقة التي قمت فيها كانت مع أمريكي كان قد بذل أقصى جهده لإقناعي بنظرية داروين.

قلت له: هل التطور البيولوجي حقيقة علمية أم نظرية، وهل مفهوم التطور يعني بالضرورة إنكار وجود الإله، أم يمكن الجمع بين المنظورين؟

قال لي: إن لم تؤمني في الدارونية الحديثة، فإنك إنسان متخلف جاهل أو مجنون.

واستطرد قائلاً: طبعاً الداروينية الحديثة لا مجال لقبول خالق للكون فيها.

قلت له: أنا لا أدري من هو المجنون حقاً!

دارون نفسه المؤسس لهذه النظرية يقول: "نفترض أنه من الممكن أن تكون العين بكل ما فيها من أجهزة دقيقة تضبط الطول البؤري للمسافات المختلفة

^{٦٥} السيرة الذاتية لداروين - طبعة لندن: كولنز ١٩٥٨ - ص ٩٢، ٩٣.

وتسمح بدخول كميات مختلفة من الضوء، قد تكونت عن طريق الانتقاء الطبيعي، فإن ذلك يبدو وأنا أعترف بأنه شيء منافي للعقل إلى أعلى درجة^{٦٦}. قلت له: دارون كان يؤمن بأن الخلية الحية الأولى وراءها خالق عظيم، ثم تولت الطبيعة تطويرها إلى ما نشهده الآن من تنوع الكائنات، انظر ماذا فعلتم أنتم وأتباعه حتى اعتبرتموه رمزاً للإلحاد.

واستطردت قائلة:

إن نظرية داروين التي تقول: أننا جئنا إلى هذا الكون نتيجة طفرات عشوائية وليس من خالق عظيم، هي مجرد نظرية ولم تُثبت بعد، وقد ثبت أن داروين نفسه واضح هذه النظرية كان لديه شكوك عديدة، وقد كتب رسائل عديدة إلى زملائه يُعبر عن شكوكه وعن أسفه، وقال: "إنه من الصعب جداً بل من المستحيل أن نتصور أن كوناً هائلاً ككوننا وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء أو لأن الحاجة أم الاختراع. وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود أجدني مدفوعاً إلى القول بوجود عقل ذكي، ومن ثم فإني أؤمن بوجود الإله^{٦٧}."

ولقد أثبتت نظرية الفوضى أنه ليس هناك وجود حقيقي للصدفة، بل إن كل ما يحدث مهما صغر في الكون تكمن وراءه قوانين دقيقة للغاية لا ندركها.

نظرية داروين هي منظومة من ثلاث عناصر:

- الأصل المشترك، ويعني أن جميع الكائنات الحية حيوانية ونباتية تطورت عن أصل واحد، وهو الكائن وحيد الخلية. وهنا وقعوا في

^{٦٦} "Chapter 7: Oller and Omdahl." Moreland, J. P. The Creation Hypothesis: Scientific.

^{٦٧} السيرة الذاتية لداروين - طبعة لندن: كولنز ١٩٥٨ - ص ٩٢، ٩٣.

ورطة فقدان الكائنات الانتقالية، وهي الحلقات التي ينبغي أن توجد نتيجة للانتقال من كائن الى آخر، فدارون لم يضع يده على سلسلة تطورية واحدة في سجل الحفريات تحوي ما يكفي من الكائنات الانتقالية.

وضع دارون تصور يمثل الخلية الأولى فيه الأصل المشترك، وهو عبارة عن جذع شجره وتمثل فروعها الكائنات التي تطورت من هذه الخلية، وسماها شجره الحياة، لكن في دراسة لحمس فالتين لهذه النظرية أو التصور الذي وضعه داروين، قال: إن الكثير من فروع شجره الحياة التي بناها دارون مقطوعة الأصل، أي لا يمكن العثور على أسلاف لكائناتها.

- الطفرات العشوائية، وتشير الى الترقى من كائن الى آخر أكثر تعقيداً حدث نتيجة لتغيرات عشوائية في الشفرة الوراثية للكائن، وينبغي أن يكون شديد البطيء، بل ويضيف أنه بدون هذه الصفة تصبح نظريته غير مقبولة.

وقد فاجأ العالم التطوري ستيفن جولد أتباع دارون بنتائج أبحاثه المستفيضة التي أظهرت أن سجل الحفريات لا يكشف تطوراً شديداً البطء، لكنه يتسم بصفتين أساسيتين كانتا قد هدمتا النظرية:

- الظهور المكتمل المفاجئ.

- الثبات والركود.

- الانتخاب الطبيعي، وهو آليه تنتقل من الطفرات العشوائية المفيدة الى الأجيال الثانية ومن ثم يتم المحافظة عليها. وهذه فرضية تفتقد

الدليل، فالعلم لا يستطيع أن يُثبت عشوائية الطفرات، ومن ثم يصبح القول بالعشوائية مفهوماً فلسفياً وليس علمياً^{٦٨}.

يقدم العلم الأدلة المقنعة على مفهوم التطور عن أصل مشترك، وهو ما ذكره القرآن الكريم.

"... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" ٦٩.

الله سبحانه وتعالى خلق الكائنات الحية ذكية ومفطورة على أن تتلاءم مع البيئة المحيطة بها، ويمكن أن تتطور في الحجم أو الشكل أو الطول، فمثلاً الخراف في البلاد الباردة لها شكل معيّن وجلود تحميها من البرد، ويزداد الصوف أو ينقص حسب حرارة الجو، وبلاد أخرى خلاف ذلك، فالأشكال والأنواع تختلف باختلاف البيئة، وحتى البشر يختلفون بألوانهم وصفاتهم وألسنتهم وأشكالهم، حيث أنه لا يوجد إنسان يشبه الآخر، غير أنهم يبقوا بشرًا لا يتغيرون إلى نوع آخر من الحيوانات. وقد قال سبحانه وتعالى:

"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ لِأَبْنَاتٍ لِلْعَالَمِينَ" ٧٠.

"وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي - عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي - عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٧١.

فظرية التطور التي يراد بها إنكار وجود خالق، تنص على الأصل المشترك في نشأة جميع الكائنات الحية الحيوانية والنباتية، وأنها تطورت عن أصل واحد وهو

^{٦٨} مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

^{٦٩} (الأنبياء: ٣٠).

^{٧٠} (الروم: ٢٢).

^{٧١} (النور: ٤٥).

كائن وحيد الخلية، وأن تشكيل الخلية الأولى كان نتيجة تجمع للأحماض الأمينية في الماء والتي بدورها شكلت البنية الأولى لحمض النووي DNA والذي يحمل الصفات الوراثية للكائن الحي. ويتجمع هذه الأحماض الأمينية سُكَّلت البنية الأولى للخلية الحية. ونتيجة لعوامل بيئية وخارجية مختلفة أدت لتكاثر هذه الخلايا والتي شكلت النطفة الأولى ومن ثم تطورت لعلقة ومن ثم تطورت لمضغة. وكما نلاحظ هنا، هذه المراحل شبيهة جدًا بمراحل خلق الإنسان في رحم الأم. غير أن الكائنات الحية يتوقف عندها النمو، ويتشكل الكائن الحي حسب صفاته الوراثية المحمولة على حمض DNA. فمثلاً الضفادع يكتمل نموها وتبقى ضفادع. وكذلك كل كائن حي يكتمل نموه حسب صفاته الوراثية.

حتى لو أدخلنا موضوع الطفرات الجينية وأثرها على الصفات الوراثية في نشأة كائنات حية جديدة، فهذا لا يدحض قدرة الخالق ومشئئته. غير أن الملحدون يقولون: إن هذا يتم بصورة عشوائية. في حين أننا نرى أن النظرية تؤكد أنه لا يمكن لمراحل التطور هذه أن تتم وتسير إلا بقصد وتدبير من خبير عليم. فبالتالي من الممكن تَبَيَّن مفهوم التطور الموجه، أو التطوير الإلهي الذي يقول بالتطور البيولوجي ويرفض العشوائية، وبأنه لا بد من أن يكون وراء التطور عالم حكيم قادر، أي أننا ممكن أن نقبل التطور لكننا نرفض الداروينية تمامًا. ويقول عالم الحفريات والبيولوجي الكبير ستيفن جولد: "إما أن أحد نصفي زملائي أغبياء بشدة أو أن الداروينية مليئة بالمفاهيم التي تتماشى مع الدين".

القرآن الكريم يُصَحِّح مفهوم التطور من خلال سرد قصة خلق آدم:

لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً:

"هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا"^{٧٢}.

خلق آدم كان بداية من طين:

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ"^{٧٣}.

"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ"^{٧٤}.

"إِن مِّثْلَ عَيْسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَذَلِكِ لَأَدَمُ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"^{٧٥}.

تكريم آدم أبو البشر:

"قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ أَشْتَكَبْتَ أُمَ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ"^{٧٦}.

فتكريم آدم أبو البشر لم يكن فقط أنه خلق مستقلاً من طين، بل أنه خلق

مباشرةً بيدي رب العالمين، كما هو مشار إليه في الآية الكريمة، وطلبه تعالى من

الملائكة السجود لآدم طاعة لله.

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"^{٧٧}.

خلق ذرية آدم:

"ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ"^{٧٨}.

"ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْقَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"^{٧٩}.

^{٧٢} (الإنسان: ١).

^{٧٣} (المؤمنون: ١٢).

^{٧٤} (السجدة: ٧).

^{٧٥} (آل عمران: ٥٩).

^{٧٦} (ص: ٧٥).

^{٧٧} (البقرة: ٣٤).

^{٧٨} (السجدة: ٨).

^{٧٩} (المؤمنون ١٣-١٤).

" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ^{٨٠}.

تكریم ذریة آدم:

" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ^{٨١}.

نلاحظ هنا التشابه في مراحل نشأة نسل آدم (ماء مهين، نُطفة، علقة، مُضغة،...) ومع ما ورد في نظرية التطور في نشأة الكائنات الحية وطرق تكاثرها.

" فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَلَزُمُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ^{٨٢}.

ولقد جعل الله نسل آدم بداية من ماء مهين للدلالة على وحدة مصدر الخلق ووحدانية الخالق، وأنه مَيَّزَ آدم عن سائر المخلوقات بخلقه مستقلاً تكريماً للإنسان ولتحقيق حكمة رب العالمين في جعله خليفة في الأرض. وأن خلق آدم من غير أب ولا أم هو أيضاً للدلالة على طلاقة القدرة، وضرب مثلاً آخر في خلق عيسى عليه السلام (المسيح) من غير أب لتكون معجزة على طلاقة القدرة وآية للناس. " لئن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^{٨٣}.

وأن ما يحاول الملحدون إنكاره بنظرية التطور هو دليل ضدهم.

البقاء للأصلح:

في حوار مع أحد من مؤيدي نظرية داروين ومن أشد المدافعين عنها، وكان من أشد المدافعين عن المثلية الجنسية أيضاً، فقلت له : أنت من المدافعين عن

^{٨٠} (الفرقان: ٥٤).

^{٨١} (الأنعام: ٧٠).

^{٨٢} (الشورى: ١١).

^{٨٣} (آل عمران: ٥٩).

المثلية و من أنصار داروين، و نظرية داروين تقول بالانتخاب الطبيعي، والانتخاب الطبيعي هو عبارته عن آلية تنتقل بها الطفرات العشوائية المفيدة إلى الأجيال التالية، ومن ثم يتم المحافظة عليها، أما الكائنات التي تحتوي على طفرات غير مفيدة فتموت وتندثر وتنفى، نظرية داروين تقول أن البقاء للأصلح للحياة، وطبعاً كما نعرف أن زواج الذكر والأنثى هو من الأشياء المفيدة للحياة، لأنهم ينتجون أجيالاً قادمة لبناء وتعمير الأرض. وأنت تقول: إن وجود المثليين على وجه الأرض شيء طبيعي وأنها رغبات طبيعية وميول طبيعي، وهم ليسوا شواذاً وإنما هم يمارسون شيئاً طبيعياً، قلت له: أليس هذا مخالف لنظرية داروين، حيث أن نظرية داروين تقول: أن بالانتخاب الطبيعي الطفرات العشوائية المفيدة والصالحة للبقاء هي التي تبقى، فما المفيد من تصرفات المثليين؟

فطبعاً لم أجد منه إجابة!

دين الفطرة:

هناك قصة جميلة حدثت معي من خلال لقائي بزائرين من المكسيك، وقد كانا في منظر مخيف، الوشوم على جسديهما وعلى أيديهما، أقراط في أذنيهما وفي أنحا كثيرة من وجهيهما، كدت ألا أقبل أن أكلمهما عن الإسلام، ولكن قبلت اصطحابهما لأنهما لا يتكلمان الإنجليزية، لكن برفقة بعض الزملاء، وقد كنت أنوي أن أنهي هذه الجولة بسرعة.

بدأت حديثي عن أن المسلمون يؤمنون بإله واحد، الإله الخالق، إله موسى والمسيح عيسى وإبراهيم، بناءً على علمي المسبق أنهم من المكسيك، وافترضت

أن الأغلبية من أهل هذه البلد هم من المسيحيين (النصارى) الذين يعرفون المسيح عيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام.

قلت لهما: إن الإله الخالق واحد أحد ليس له ولد، وليس كمثل شئ، خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق المسيح نبي الله بلا أب، وأرسل رسالة واحده مع الأنبياء، وإن الرسالة الواحدة تقول: أن هناك خالق واحد يجب أن نعبد كما عبد الأنبياء هذا الخالق.

قوم نوح مثلاً عبدوا الأصنام وكانت هذه الأصنام رموز لأشخاص صالحين، غير أنهم رفعوا من شأن هذه الرموز ومقامهم حتى عبدوهم، وقوم المسيح عيسى عليه السلام عبدوه ورفعوا قدره إلى مقام الألوهية. ولهذا كان الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء من فترة إلى أخرى ليذكروهم بعبادة الله وحده والرجوع إلى الصواب.

فمثلاً في زمن إبراهيم عليه السلام، أتباع إبراهيم عليه السلام كان دائماً عليهم عبادة الله وحده وشهادة أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله. وبعث الله موسى عليه السلام لتصديق رسالة إبراهيم، أتباع إبراهيم عليه السلام كان عليهم قبول النبي الجديد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن موسى وإبراهيم رسل الله.

وعندما جاء المسيح عليه السلام لتصديق رسالة موسى عليه السلام، كان على أتباع موسى تصديق المسيح واتباعه عليه السلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن المسيح، موسى وإبراهيم رسل الله.

وعندما جاء محمد عليه الصلاة والسلام لتصديق رسالة من قبله من الأنبياء، كان على أتباع المسيح وموسى عليهم السلام قبول النبي الجديد وشهادة أن لا إله الا الله، وأن محمد، المسيح، موسى وإبراهيم رسل الله.

فوجئت بالزائرين ييكيان بكاءً شديداً، رجلان بضخامة وعضلات وطول، وكم كنت على خوف شديد منهما في البداية، وفجأة رأيت منظرًا مهولاً، فسألتهما مباشرة عن سبب بكائهم، فأجاباني، ومن شغفهما وحماسهما الشديدين كانا يتكلمان بنفس الوقت كالأطفال ويشتكيان بمرارة.

قالا: إننا كنا منذ الصغر على يقين كبير بأن الخالق واحدٌ أحد، وأنه ليس له ولد، وأننا لم نقبل بالمسيح إلهًا أبدًا ولا ابن إله، والتثليث كان بالنسبة لنا بلا معنى ولا مغزى ولا تفسير، وكانا قد رفضاه، ورفضنا كل نظريات الإلحاد والتطور البيولوجي العشوائي، وقد أدمن كل منهما على المخدرات وقاما بتصرفات فظيعة مع إيمانهم الداخلي العميق بوجود إله.

وقالا: إننا لم نكن نعتقد بوجود دين على وجه الأرض يقول بلا إله إلا الله. فقد اعتقدنا أن المسلمون يعبدون محمدًا، وأن المسيحيون (النصارى) يعبدون المسيح، وأن البوذيون يعبدون بوذا، واعتقدنا أننا مجانين وغير طبيعيين، فما نجده من ديانات على وجه الأرض لا يطابق ما في قلوبنا فلجأنا إلى النوادي الليلية. وقالوا إنهما عاشا حياةً تعيّسةً للغاية، ولم يستمتعا بهذه الحياة الفارغة أبدًا.

قلت لهما: طبعًا هذا الدين موجود، وهذا هو أصل الديانات، وهذا هو الدين الحق، وهو الدين الواحد للجميع، أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وقلت

لهما: أن كل مسلم عليه أن يشهد: بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن المسيح رسول الله.

وقد دخل وقت صلاة الظهر، وبدأ مؤذن المسجد بالآذان بصوت جميل جدًا، فبكيا أكثر وزاد بكائهما مع صوت الآذان، وتوقفن عن الحديث لسماع الآذان. وما إن انتهى المؤذن من أداء الآذان حتى قلت لهما: أتدريان ماذا قال؟
قالا: لا.

قلت لهما: لقد قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونقول دائمًا أن محمدًا خاتم رسل الله، فبذلك نكون قد قبلنا المسيح وموسى وجميع أنبياء الله.

قالا: أنستطيع أن نقول كما قال؟

قلت لهما: إن قلتما فسوف تكون الخطوة الأولى في قبول هذا الدين.

قالا: نعم نحن قبلنا.

ونطقا الشهادة وسط أجواء رائعة من الدموع والفرح، وأنا شخصيًا بكيت.

وكان هذا أكبر دليل على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

قال ابن تيمية: "إنَّ حقيقة التوحيد أن نَعْبُد الله وحده، فلا يُدعى إلا هو، ولا يُخشى إلا هو، ولا يُتَّقَى إلا هو، ولا يُتَوَكَّل إلا عليه ولا يكون الدين إلا له، لا لأحدٍ من الخلق".

بل كذبوا بما لم يُحيطوا بعلمه

وهو معكم أينما كنتم:

في حوار لي مع سائقي الشخصي في نيجيريا وقد كان كاثوليكيًا متدينًا، قال: إنني أؤمن أن المسيح هو ابن الله، لكنني على قناعة أنه يجب عليّ أن أدعو وألجأ إلى الله وحده، فأنا لا أطلب من المسيح أبدًا. قال لي معقبًا: كنت أدعو الله يومًا وأبكي وأقول: يا رب أنا لا ألجأ إلا إليك، ولا أدعو غيرك، أنت تعرف أنني أنوي الزواج، والزواج مسؤولية، زوجتي في المستقبل سوف تحمل بابني ويكون عليّ يومًا أن أذهب بها إلى المستشفى لتضع جنينها، وسوف احتاج عندها سيارة لأقلها بها، وقلت: يا رب أريد سيارة خاصة بي، وبكيت بشدة. واستطرد قائلاً: وبعد مرور عدة أسابيع، فوجئت بشري من أثرياء منطقتنا - وقد كنت أقوم له ببعض الأعمال مقابل مبلغ من المال - يقول لي: كنت قد اشتريت لزوجتي سيارة كهدية ولم تقبلها مني لأنها صغيرة، وأنا مغتاظ جدًا منها، وفاجأني بقوله: أنا سوف أعطيك هذه السيارة.

قال لي السائق: أنتَ لن تتخيلي فرحتي حينها، وكانت فرحتي باستجابة الله لي أكبر من فرحتي بحصولي على السيارة.

أما أنا فتذكرت قول الله تعالى: "وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ"^{٨٤}، وقلت في نفسي: ما أعظمك يا الله، إذا كان هذا حالك مع من يُشرك بك ويقول لك ولد، فما

^{٨٤}(الحديد: ٤).

بال حالك بمن قال عنك: "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"^{٨٥}. وفرحت كثيراً.

وفرحوا بما عندهم من العلم:

أذكر أنني كنت دائماً أشعر بالملل خلال تنقلي مع زوجي في بلدان صعبة، ومحاولات زوجي الجاهدة لأن يساعدني للتأقلم والعيش فيها، أذكر أنه قد قام مرةً بدعوة زميل له من دولة أرمينيا مع زوجته على العشاء في مطعم جميل وهادئ، ليعطيني الفرصة لأتعرف على الزوجة، لعل صداقتها تُهَوِّن عليَّ غربي. لقد لفتت نظري هذه الزوجة بحشمتها وبراءة وجهها، لدرجة أنني شعرت أنها طاقة من الإيمان والبراءة.

وفرحت بها، وخصوصاً أنها قالت لي أنها مُدرسة لغة إسبانية وتريد أن تتعلم العربية. اتفقنا على أن أعلمها العربية مقابل أن تتحدث معي بالإسبانية كل يوم لمدة ساعة حتى لا أنسى هذه اللغة، وأبدأ أنا بتعليمها العربية لساعة أخرى يومياً.

بدأت لقاءاتنا وكنا نسكن في نفس المجمع السكني وملتقي في مقهى صغير داخل المجمع، وكانت الأمور تجري على أحسن حال، حتى حصلت المفاجأة، عندما سألتني عن معنى كلمة "الحمد لله" الذي يرددنها المسلمون، قلت لها: المسلم يحمّد خالقه في السراء والضراء، وهو يعلم أن ما يصيبه من الخير يأتي من رب العالمين، وما يصيبه من سوء فمن نفسه، وعليه أن يتوب إلى الله ويستغفره.

^{٨٥} (الإخلاص: ٣-٤).

فاجأني بما لم أتوقعه وقالت: الله غير موجود، أنتم تضحكون على أنفسكم، الحياة ستفنى ونصير إلى العدم.

أما أنا فشعرت بذهول شديد، ليس لأنني لم أقابل ملحدين في حياتي، فأنا دائماً ما أتخاور مع ملحدين، لكنني لم أتوقع هذا الوجه الذي يحمل كل هذه البراءة والحشمة في اللباس يخفيان قلباً أسوداً لا يعرف الله.

قالت: أنا معي درجات عليا في الفيزياء، وأبي عالم فيزياء، وأبي حذرني من الخوض في هذه التّراهمات، وكأني أسمع صوته الآن يقول لي: احذري أن يخذعوك.

قلت لها: وعندما تتعرضين لمواقف صعبة ولا يستطيع أباك نفسه مساعدتك ولا غيره، فلمن تلجئين؟

قالت: أنا لا أحتاج أحداً، أنا أعتمد على نفسي ولا أحتاج الإله المزعوم أن يساعدني.

قلت لها: عجب أمركِ، كيف يمكن أن يكون ما تقولينه صحيحاً وأنت فقط عند إصابتكِ بأنفلونزا حادة قد لا تستطيعين أن تصلي لكوب الماء لتشريبي. ماذا قالت لكِ الفيزياء؟ الفيزياء أخبرتك أن هناك موجات صوتية عليك أن تؤمني بها دون أن تربيها، وأخبرتكِ عن موجات فوق بنفسجية عليك أن تؤمني بها دون أن تربيها، وأن الضوء خارج الزمان، وأن الجزيئات المتصلة عندما تنفصل عن بعضها تظل تتواصل مع بعضها في نفس الوقت، وأقنعتك بوجود عوالم أخرى، وصدّقت ذلك دون أن تري شيئاً. وأخبركِ العلم المادي بأن تؤمني وتصدقني بأشياء غير موجودة أصلاً كالسرّاب، وتؤمنين بهذا وتُسلمين به، وعند موتكِ لن تنفعكِ الفيزياء ولا الكيمياء، حيث أنهم وعدوك بالعدم.

أنتِ آمنَتِ أن الضوء خارج الزمن، ولم تقبلي أن الخالق لا يخضع لقانون الزمان والمكان. بمعنى أن الله تعالى قبل كل شيء وبعد كل شيء، وأن الله تعالى لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

أنتِ آمنَتِ أن الجزئيات المتصلة عندما تنفصل عن بعضها تظل تتواصل مع بعضها في نفس الوقت، ولم تقبلي فكرة أن الخالق بعلمه مع عبده أينما ذهبوا. أنتِ آمنَتِ بأن لديك عقل دون أن تربنيه، ورفضتِ الإيمان بالله دون أن تربنيه أيضًا.

أنتِ رفضتِ الإيمان بالجنة والنار، وقبلتِ بوجود عوالم أخرى لم تربيهها. قلت لها معقبة: من المؤمنين أيضًا من لديه درجات عليا بالفيزياء والكيمياء، لكنه يدرك أن القوانين الكونية وراءها خالق عظيم، فالعلم المادي الذي يؤمن به أباك قد اكتشف القوانين التي خلقها الله، لكن العلم لم يخلق هذه القوانين. فالعلماء لن يجدوا شيئًا يدرسونه بدون هذه القوانين التي أوجدها الله. في حين أن الإيمان ينفع المؤمن في الدنيا والآخرة. في زيارتك القادمة لأبيك أخبريه بما قلته لكِ واساليه عمّن يتبنى التّراهاات فعلاً.

قالت: هذه ليست تّراهاات، العلم يقول: أننا جئنا نتيجة لأحداث عمياء وعشوائية وغير عقلانية، ووفقًا للعلم، يتجه هذا الكون نحو الزوال الحتمي وسيعاني من "الموت الحراري". وسيتم تدمير حياة الإنسان قبل هذا الموت الحراري، حيث ستقوم الشمس في نهاية المطاف بتطهير الأرض، طبعًا النهاية للموت والعدم.

قلت لها: بناءً على ذلك إذا افترضنا أن هذه الحياة عبارة عن سفينة غارقة بركابها لا محالة حسب قولك، فما الهدف من توفير وسائل الراحة على سطح هذه السفينة.

أين الطريق؟

وكنت قد استطردت حوارى مع هذه السيدة الأرمنية قائلة لها: أنتم تزعمون أن كل شيء لا معنى له جوهرياً، وبالتالي لدينا الحرية في إيجاد معنى لأنفسنا من أجل الحصول على حياة مُرضية. إن إنكار الهدف من وجودنا هو في الواقع خداع للذات. وكأننا نقول لأنفسنا: "دعونا نفترض أو نتظاهر بأن لدينا هدفاً في هذه الحياة". وكأن حالنا كحال الأطفال الذين يتظاهرون باللعب بأنهم أطباء وممرضين، أو أمهات وآباء. إننا لن نحقق السعادة إلا إذا عرفنا هدفنا في الحياة.

قالت: أنا سعيدة هكذا.

قلت لها: ما هي السعادة الحقيقية والهادفة؟ تخيلي أنك وُضعتِ ضد إرادتك في قطار فحم، وتجدين نفسك في الدرجة الأولى، تجربة فاخرة ومريحة، قمة في الرفاهية.

هل ستكونين سعيدة في هذه الرحلة دون الحصول على أجوبة لأسئلة تدور في ذهنك مثل: كيف ركبت القطار؟ ما هو الغرض من الرحلة؟ الى أين تتجه؟ إذا بقيت هذه الأسئلة دون إجابة، كيف يمكنك أن تكوني سعيدة؟ حتى إذا بدأت في الاستمتاع بكل الكماليات التي تحت تصرفك فلن تحققي أبداً سعادة حقيقية وذات مغزى. هل الوجبة الشهية في هذه الرحلة كافية لأن تُنسيك هذه الأسئلة؟ إن هذا النوع من السعادة سيكون مؤقتاً ومزيفاً، لا يتحقق إلا بتجاهل

متعمد لإيجاد أجوبة لهذه الأسئلة المهمة، إنها حالة من حالات النشوى الزائفة الناتجة عن الشكر التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

حينها تفاجأت بتغير في نبرة صوتها، وقالت: حسناً، إذا كان الله حقاً موجود، فهذا بالنسبة لي سيّان، فأنا على أية حال زوجة صالحة، ولا أؤذي أحداً، وأعامل الجميع باحترام. فلماذا سوف يعاقبني؟

تذكرت حينها قول الله تعالى:

"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ" ^{٨٦}.

وقوله تعالى:

"وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا" ^{٨٧}.

قلت لها: ما فائدة علاقتك بكل من حولك إذا كانت علاقتك بخالقك مقطوعة، هل تقبلين علاقتك مع والدك الذي تتخذه مثلاً، أن تكون أسوأ علاقة في حياتك؟ وهل سيقبل والدك بهذا ويكافئك عليه؟

سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير:

تقي الدين بن تيمية يقول: "كيف يُطْلَبُ الدَّلِيلُ على مَنْ هو دَلِيلٌ على كُلِّ شيء؟" وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت: "وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ... إذا احتاج النَّهَارُ إلى دَلِيلٍ".

^{٨٦} (النحل: ٦٢).

^{٨٧} (الكهف: ٣٦).

يسرد لنا القرآن دلائل وجود الله^{٨٨}:

دليل الخلق والإيجاد:

وبعني أن نشأة الكون من العدم تدل على وجود الاله الخالق.
"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"^{٨٩}.

دليل الوجوب:

إذا قلنا إن كل شيء له مصدر، وأن هذا المصدر له مصدر، وإذا استمر هذا التسلسل على الدوام فإنه من المنطق أن نصل إلى بداية أو نهاية. لا بد من أن نصل إلى مصدر ليس له مصدر، وهذا ما نسميه "السبب الأساسي"، وهو يختلف عن الحدث الأساسي، فعلى سبيل المثال، إذا افترضنا أن الانفجار العظيم هو الحدث الأساسي، فإن الخالق هو المسبب الأساسي الذي سبَّب هذا الحدث.

سألني ملحد يوماً سؤالاً ظنًا منه أنني لن أجده إجابة، قال: إذا كان الله هو الخالق، فمن الذي خلق الله؟

قلت له: أجبني على سؤال بسيط أولاً، وسوف تعرف الإجابة.

قال: حسنًا.

قلت له: ما هي رائحة اللون الأحمر؟

قال: لا يوجد إجابة على هذا السؤال لأن اللون الأحمر لا يُصنف ضمن الأشياء التي يمكن شمّها.

^{٨٨} مقتبس من كتاب خرافة الإلحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

^{٨٩} (آل عمران: ١٩٠).

قلت له: شكرًا لك، وبذلك كل سبب له مُسَبَّب، لكن الإله ببساطة لم يُسَبَّب، ولا يُصنّف ضمن الأشياء التي يمكن خلقها. الإله هو الأول قبل كل شيء، فهو المسبب الأساسي.

إن الشركة المصنّعة لسلعة أو بضاعة كالتلفزيون أو الثلاجة مثلاً، تضع قوانين وضوابط لاستخدام الجهاز، وتقوم بكتابة هذه التعليمات في كتاب يشرح طريقة استخدام الجهاز وتُرفقه مع الجهاز. وعلى المستهلك اتباع هذه التعليمات والتقيد بها إذا ما أراد أن يستفيد من الجهاز على النحو المطلوب، في حين أن الشركة المصنّعة لا تخضع لهذه القوانين.

لله المثل الأعلى، فالله هو الذي خلق قانون السببية، ولا يمكن اعتباره خاضعاً للقانون الذي خلقه، لقد خلق الوقت، لذا فهو لا يخضع للوقت، فهو لا يمر في نفس المراحل الزمنية التي نمر نحن بها، ولا يتعب، ولا يحتاج إلى وضع نفسه في شكل مادي أو أن ينزل إلى الأرض، لذلك لا يمكننا أن نراه في هذه الحياة، لأننا محاصرون في الزمان والمكان، فعلى سبيل المثال: يمكن للشخص الذي يجلس في غرفة بلا نوافذ أن يرى داخل الغرفة فقط. ولرؤية ما في الخارج يجب عليه مغادرة الغرفة، ومع أن قانون السببية من سنن الله الكونية، إلا إن الله سبحانه وتعالى فعالٌ لما يريد وله طلاقة القدرة.

فسألني: لماذا لا يمكن أن يأتي الخالق إلى الأرض بأي صورة كانت؟

قلت له: على سبيل المثال، ولله المثل الأعلى، ولتقريب الفكرة فقط، فعندما يستخدم الإنسان الجهاز الإلكتروني ويتحكم فيه من الخارج، فإنه لا يدخل بأي حال من الأحوال داخل الجهاز.

فضحك وقال: فعلاً كلام سليم.

دليل الاتقان والنظام:

ويعني أن دقة بناء الكون وقوانينه تدل على وجود الاله الخالق.

"الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ" ٩٠.

"إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" ٩١.

دليل العناية:

وهو أن الكون قد تم بناؤه ليكون ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان، ويعود هذا الدليل إلى صفات الجمال والرحمة الإلهية.

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ" ٩٢.

دليل التسخير والتدبير:

ويختص بصفات الجلال والقدرة الإلهية.

"وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسَرَّحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا يَشِقُّ الْأُنَاسُ" ٩٣ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْحَيْلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ٩٤.

دليل التخصيص:

ويعني أن ما نراه في الكون كان يمكن أن يكون على هيئات عديدة، لكن الله عز وجل اختار منها الهيئة الأفضل.

"أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَلَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) وَنَسْأَلُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ" ٩٤.

"أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا" ٩٥.

٩٠ (المالك: ٣).

٩١ (القمر: ٤٩).

٩٢ (إبراهيم: ٣٢).

٩٣ (النحل: ٥ - ٨).

٩٤ (الواقعة: ٦٨-٦٩-٧٠).

٩٥ (الفرقان: ٤٥).

من أين جئنا:

يذكر القرآن احتمالات لشرح كيفية خلق الكون ووجوده^{٩٦}:

"أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ"^{٩٧}.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ:

وهذا يتنافى مع كثير من القوانين الطبيعية التي نراها من حولنا، فمثال بسيط، كأن نقول إن أهرامات مصر وجدت من لا شيء كافي أن يدحض هذا الاحتمال.

أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ:

خلق الذات: هل استطاع الكون أن يخلق نفسه؟ يُشير مصطلح "مخلوق" إلى شيء لم يكن موجودًا وظهر إلى الوجود، الخلق الذاتي هو استحالة منطقية وعملية، وهذا يرجع إلى حقيقة أن الخلق الذاتي يعني أن شيئًا ما كان موجودًا وليس موجودًا في نفس الوقت، وهو أمر مستحيل، والقول إن الإنسان خلق نفسه يعني أنه كان موجودًا قبل أن يكون موجودًا!

إن كثيرًا من الناس حين تسأله من أوجدك فيقول ببساطة: والدي هم السبب في وجودي في هذه الحياة، ومن الواضح أنه جواب يراد به الاختصار وإيجاد مخرج لهذه المعضلة، فالإنسان بطبيعته لا يريد أن يمعن التفكير ويجتهد، فهو يعلم أن والداه سيموتان، ويبقى هو وتأتي من بعده ذريته لتعطي نفس الجواب،

^{٩٦} Hamza Andreas Tzortzi. The Divine Reality: God, Islam & The Mirage of Atheism.

^{٩٧} (الطور: ٣٥-٣٧).

وهو يعلم أنه ليس له يد في خلق أبنائه. فالسؤال الحقيقي هو: من أوجد سلالة الإنسان؟

وقد علق أحد الملحدين على هذه النقطة بقوله: أنه يمكن العثور على الخلق الذاتي في الكائنات أحادية الخلية، والمعروف أيضاً في علم الأحياء باسم التكاثّر اللاجنسي.

أجبت بما كنت قد قرأت يوماً^{٩٨}: أنه يجب بدايةً افتراض أن الخلية الأولى موجودة أصلاً لطرح هذا النقاش، وإذا افترضنا هذا القول، فإن هذا ليس خلقاً ذاتياً، بل هو أسلوب تكاثّر، والذي ينشأ من خلاله النسل من كائن حي واحد، ويرث المادة الوراثية لذلك الوالد فقط.

أم خلقوا السماوات والأرض:

لم يدّع أحد أنه خلق السماوات والأرض إلا صاحب الأمر والخلق وحده، هو من كشف عن هذه الحقيقة، عندما أرسل رسله إلى البشرية، والحقيقة هي أنه هو خالق وبداع ومالك السماوات والأرض وما بينهما، وليس له شريك ولا ولد.

"قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ"^{٩٩}.

ويمكن أن نضرب مثلاً هنا: عند العثور على حقيقة في مكان عام، ولم يأت أحد ليدّعي أنه صاحب الحقيقة باستثناء شخص واحد، قام بتقديم مواصفات الحقيقة ومواصفات ما بداخلها للدلالة على أنها له، في هذه الحالة تصبح هذه

^{٩٨} Hamza Andreas Tzortzi. The Divine Reality: God, Islam & The Mirage of Atheism.

^{٩٩} (سبأ: ٢٢).

الحقيقية من حقه إلى أن يظهر شخص آخر غيره ويدّعي أنها له، وهذا حسب قوانين البشر.

وجود خالق:

كل ذلك يقودنا إلى الجواب الذي لا مفر منه وهو وجود خالق. والغريب أن الإنسان يحاول دائماً أن يفترض احتمالات كثيرة بعيدة عن هذا الاحتمال، مع أن فطرته السليمة ترشده إليه، لكنه قد يستبعد هذا الاحتمال وكأنه شيء خيالي لا يمكن تصديقه أو التحقق من وجوده. فلو وقفنا وقفه صادقة عادلة ونظرة علمية ثابتة لتوصلنا لحقيقة أن الإله الخالق لا يمكن الإحاطة به، فهو الذي خلق الكون بأسره، فلا بد أن ذاته خارج الإدراك الإنساني، ومن المنطقي أن نفترض أن هذه القوة الغيبية ليس من السهل التحقق من وجودها، ولا بد من هذه القوة أن تُفصح عن ذاتها بنفسها بالطريقة التي تراها مناسبة للإدراك البشري، ولا بد للإنسان أن يصل لقناعة، أن هذه القوة الغيبية حقيقة موجودة وأنه لا مفر من اليقين بهذا الاحتمال الأخير والمتبقي لتفسير سر هذا الوجود.

"قُولُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَم مِّنْهُ لَذِيَرٌ مُّيِّنٌ" ١٠٠.

وأنه لا بد من الإيمان والتسليم بوجود هذا الإله الخالق المبدع إذا ما كنا نبحث عن دوام الخير والنعيم والخلود الأبدي.

لماذا نحن هنا:

أذكر سيدة بريطانية كنت قد قابلتها في نيجيريا وسألتني: لماذا خلقنا الله؟ قلت لها: تخيلي نفسك غنية جداً وكرمة للغاية، ماذا كنت ستفعلين؟ قالت: كنت سوف أدعو أصدقائي وأحبابي إلى الطعام والشراب.

قلت لها: صفاتنا هذه ما هي إلا جزء بسيط مما عند الله، فالله الخالق له صفات جلال وجمال، هو الرحمن الرحيم، المعطي الكريم، لقد خلقنا ليرحمنا ويسعدنا ويعطينا، وكل الصفات البشرية الجميلة مشتقة من صفاته.

وقلت معقبة: إنه خلقنا ومنحنا القدرة على الاختيار، فيما أن نختار طريق الطاعة والعبادة، وإما أن ننكر وجوده ونختار طريق التمرد والمعصية.

قالت: لماذا لم يجبرنا على عبادته؟

قلت لها: كان بإمكانه أن يجعلنا مكرهين على الطاعة والعبادة، لكن الإكراه لا يحقق الهدف المرجو من خلق الإنسان.

فالحكمة الإلهية تمثلت في خلق آدم وتمييزه بالعلم.

"وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ١٠١.

ومنحه القدرة على الاختيار.

"وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" ١٠٢.

وفتح باب التوبة والإنابة له، كون أن الاختيار لا بد وأن يُوقع في الخطأ والزلل والمعصية.

"فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" ١٠٣.

وكل ذلك التجهيز ليجعله خليفة في الأرض.

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ١٠٤.

١٠١ (البقرة: ٣١).

١٠٢ (البقرة: ٣٥).

١٠٣ (البقرة: ٣٧).

١٠٤ (البقرة: ٣٠).

فالإرادة والقدرة على الاختيار في حد ذاتها نعمة إذا تم استخدامها وتوجيهها بصورة سليمة وصحيحة، وتكون نقمة إذا تم استغلالها لمقاصد ومآرب فاسدة. إن الإرادة والاختيار لا بد أن تكون محفوفة بالمخاطر والفتن والكفاح وجهاد النفس، وهي بلا شك أعظم درجة وتكريماً للإنسان من الخنوع المؤدي للسعادة المزيفة.

"لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا" ١٠٥.

فما فائدة الثواب والعقاب إن لم يكن هناك اختيار نستحق عليه الجزاء؟ وهذا كله مع العلم أن مساحة الاختيار الممنوحة للإنسان فعلياً محدودة في هذه الدنيا، والله سبحانه وتعالى سوف يحاسبنا فقط على ما أعطانا فيه حرية الاختيار، فالظروف والبيئة التي نشأنا فيها لم يكن لنا خيار فيها، كما أننا لم نختَر آباءنا ولا نملك التحكم في أشكالنا وألواننا.

عز العباداة ولا ذل المعصية:

إن عبادة الله لا تقتصر على توجهننا له وحده بالصلاة والصوم فقط، بل إن عبادة الله تعني أيضاً حبه وطاعته ومعرفته أكثر، عبادة الله يجب أن تكون هي الهدف النهائي لوجودنا، إنها تحررنا من "العبودية" للآخرين والمجتمع. إن التسليم لله رب العالمين وحده يحفظ كرامة الإنسان من التذلل لغيره، ومن كان يتبغي العزة فإنه يجدها في التقرب لرب العالمين بالكلام الطيب والعمل الصالح.

"مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْوَرَّةَ فَلِلَّهِ الْوَرَّةُ جَمِيعًا" إِلَيْهِ يَضَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ".^{١٠٦}

وكلما تواضع الإنسان لربه، كلما زاده رفعةً وشأنًا.

وأذكر هنا كلمات أرددها كثيرًا وهي: "ربي كفى بي عزًا أن أكون لك عبدًا، وكفى بي فخرًا أن تكون لي ربًا".

ويستشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة في كلمات الرسول عليه الصلاة والسلام: **"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ الْأُمَّةِ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَبْغُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَبْغُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْغُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَبْغُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ"**^{١٠٧}.

وليس كما يظن البعض أن المؤمن مأسور بالعبادة، فالإنسان لا بد أن يكون قلبه متعلق بهدف يسعى لتحقيقه.

وإننا حتمًا إن لم نعبد الله فسوف ينتهي بنا المطاف إلى عبادة "آلهة" أخرى، فالقلب إما أن يتعلق بأمر من أمور الدنيا يسعى لتحقيقه ويجري ورائه للحصول عليه، أو أن يتعلق بخالقه وأصل وجوده، وبالتالي فإن رغباتنا وأهوائنا قد تستعبدنا دون أن نشعر، في حين أن ربط قلوبنا بالله عز وجل وبالآخرة تخرجنا من حلقة الاستعباد لغيره، ورب العالمين هو خالقنا وهو أحق من نلجأ إليه ونستعين به.

كثيرًا من الناس ينجذبون إلى الشهرة والموضة، كما أن الإعلانات ووسائل التواصل الاجتماعي تشد اهتمام الناس بشكل مفرط، ولها دور كبير في بث مفاهيم قاصرة تدعو للاهتمام بالجزئيات وتشتيت الأولويات، وهذا كله يُسهم

^{١٠٦} (فاطر: ١٠).

^{١٠٧} (صحيح الترمذي).

في معاناتنا، ويجعلنا نعيش حياةً مضطربة وغير سعيدة. كما أن بعض المعايير الاجتماعية وغيرها من الضغوط العائلية التي قد تفرض علينا مراعاة تقاليد ومفاهيم موروثة تشدنا بعيداً عن المطلوب منا في هذه الحياة وواجبنا تجاه الدين. الأم مثلاً تعد الطعام لأبنائها على أي حال، إن كانت مؤمنة أو غير مؤمنة، لكن المؤمنة تحدد نيتها وتهب أعمالها لله، وتنتظر منه الجزاء، فبذلك لن تحزن أبداً إذا لم يُقدر أبناءها مجهودها، فهي تنتظر ثوابها من الخالق، فبذلك نجد أمامنا امرأة لا تُحْبَط من خذلان أبناء، ولا تخاف من رئيس في العمل، ولا تحش من تنمر صديق، لأنها قالت بأعلى صوتها: حياتي كلها لله.

فنحن لا نملك في هذه الحياة إلا أن نقبل دعوة الله للإيمان به والتسليم له، لنكسب خيري الدنيا والآخرة، أو نرضى بالدنيا فتهلكنا، ويكون مصرينا الجحيم.

وإني أذكر تعليقاً للملحة برتغالية حاصلة على درجة الدكتوراة في الفلسفة، عندما قلت لها هذا الكلام، قالت: أنتم محظوظون بهذا الإيمان وهذه الطريقة في التفكير، أنا لم أجد هذا الجمال في التفكير في كتب الفلسفة ووجدته لديكم أنتم المسلمون.

العلم والإيمان

لا غالب إلا الله:

في زيارة لنا لقصر الحمراء في غرناطة وعند دخولنا القصر، رأينا عبارة "لا غالب إلا الله" منقوشة على الجدران، وفاضت عيناى بالدموع، فقد كانت نسمات الماضي المشرف للمسلمين تهب في كل مكان.

وذهبت بأفكاري إلى أجداد الماضي، عندما كان علماء المسلمون يعلمون العالم العربي والغربي الطب والصيدلة والهندسة والفلك والشعر، وأنشأ المسلمون أول جامعة تعرفها أرض أوروبا في إسبانيا، وإلى زمن عبد الرحمن الداخل الذي طوّق جيشه إيطاليا وفرنسا، وإلى زمن المعتصم عندما عبث رومي بعباءة امرأة فصاحت وآ معتصماه، فجهّز المعتصم جيشًا للدفاع عنها. فتعجّبت من الادعاء الذي يتبناه الكثيرون من أن اتباع تعاليم الدين هو سبب تخلف المسلمين اليوم!

وكان قد قطع شرودي بالتفكير المرشد السياحي الإسباني وهو يقول: العبارة المنقوشة في الأعلى تعني بالعربية "لا غالب إلا الله"، إن كان معنا عرب هنا فليقولوا نعم بصوت عالي إن كنت على صواب، فقلت فورًا: نعم، نعم، "لا غالب إلا الله" وابتهجت نفسي فرحًا.

وشهد شاهد من أهلها:

الكاتبة الألمانية الشهيرة سيجريد هونكه، صاحبة كتاب "شمس الله تشرق على الغرب"، الذي صدر عام ١٩٦٠ ميلادي، قد نقلت فيه نصاً طريفاً ومهماً يتحدث عن موقفًا مشابهاً تماماً لما يعيشه كثير من المسلمين اليوم.

المتحدث هو أسقف قرطبة "ألقاروا" في زمن تفوق الحضارة الإسلامية، وكان يشتمكي بقوله: "إن كثيرين من أبناء ديني يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوا وإنما ليتعلموا اللغة العربية ويحسنون التوصل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم، وأين النصراني اليوم من غير المتخصصين الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل من ذا الذي يدرس منهم حتى الأنجيل الأربعة؟ وأحسرتاه! إن شباب النصارى جميعهم اليوم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربي! إنهم يتعمقون بدراسة المراجع العربية باذلين في قراءتها ودراستها كل ما في وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة في اقتناء الكتب العربية وإنشاء مكتبات ضخمة، ويذيعون جهراً في كل مكان أن ذلك الأدب العربي حدير بالإكبار والإعجاب! ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى فإنهم يردون باستخفاف ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم، وأمصبيتاه! إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا تكاد تجد اليوم واحداً في الألف يستطيع أن يديج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس تعبيراً وكتابةً وتحبيراً، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى قد حذقوه ونافسوا في ذلك العرب أنفسهم."

لقد كانت اكتشافات العلماء المسلمين هي المعتمدة خلال العصور الوسطى، وقد كان العلماء المسلمون يتعبدون إلى الله بعلمهم، ويتقربون به إليه دون أن

يظهر أي تعارض بين العلم المادي والدين، بل كثيرًا ما كان من العلماء المسلمين فقهاء في علوم الدين، ورجال علم في نفس الوقت. ولقد وضع علماء الإسلام منهجًا تجريبيًا حسيًا وعقليًا في البحث، وقد كان مختلفًا تمامًا عن المنهج اليوناني، كما وضعوا نظريات علمية مستقلة للمعرفة. وحتى في العصر الحديث، هناك علماء كبار قد حازوا على جوائز نوبل في الطب والفيزياء دون أن يروا تعارضًا بين العلم التجريبي والدين.

إن فكرة النزاع بين الدين والعلم التجريبي لم تظهر عبر التاريخ حتى في اليهودية، فإنه على مدى عصور كثيرة كانت السيطرة للدين، وكان التطور العلمي بطيئًا ويدور في فلك الضرورات، أو كان ممزوجًا بالوثنيات والأساطير؛ ولكن ظهر هذا الصراع في عصر سيطرة الكنيسة بعد ظهور النصرانية بأكثر من تسعة قرون.

وقد ظهرت قضية الصدام بين الدين والعلم التجريبي في عصر النهضة الأوروبية، وبداية الوقوف بحزم من رجال العلم ضد سيطرة الكنيسة، وتطور الإلحاد عند البشر بصور مختلفة، ولكنه ظهر عند أصحاب الكتب السماوية السابقة بصورة واضحة بسبب المفهوم المعقد والمخرف عن الإله في تلك الكتب، والذي ينافي المفهوم البسيط الذي فطره الله في قلوب البشر. ومن الأسباب الأخرى التي دفعت الناس إلى الإلحاد والمطالبة باستبدال الدين بالعلم كانت بسبب مطالب وأوامر رجال الدين والمؤسسات الدينية غير المقبولة، والتي كانت بهدف مكاسب دنيوية وسياسية. وقد عانى العالم من الصراع بين الدين والعلم المادي الكثير من التدني في الأخلاقيات، القيم البشرية والفكر الإنساني.

العلم في القرآن:

لقد ذكر الله آيات كثيرة في القرآن الكريم في الدعوة لتحفيز العقل البشري وإيقاظ الحواس والتأمل والتفكير.

"وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٨"

"لَمَّا فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" ١٠٩.

أول آيات القرآن الكريم نزولاً تحدثت عن العلم بشكل عام وعن خلق الإنسان بشكل خاص، وهذا المزج الرائع في التكامل بين العلم والإيمان تتجلى صورته في كثير من الآيات.

"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" ١١٠.

ونجد هنا أن الآيات الكريمة أشارت إلى النظر والتدبر في إنزال المطر والألوان المختلفة من الثمرات والجبال والناس والدواب، وفي هذا إشارة واضحة لشمولية العلم والمعرفة بكافة تخصصاتها، مما جعل الدين والعلم جزأين متكاملين.

"أَلَمْ يَرَأَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ (٢٧)

١٠٨ (العنكبوت: ١٩-٢٠).

١٠٩ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

١١٠ (العلق: ١-٥).

وَمِنَ النَّاسِ وَالنَّوَابِ وَالْأَنْهَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^{١١١}.

ما الحاجة للدين؟

يقول "هانز شفارتز" أستاذ علم اللاهوت: "إنه مع أهمية العلم إلا أنه يمكن أن يستخدم للهدم تمامًا كما يمكن أن يستخدم في التعمير، وهنا يأتي الدور الأهم للإيمان، وأن التجربة العملية لا يمكن أن تأتي بكل الإجابات". وقال: "يحتاج الإيمان والمعرفة بعضهما البعض، ويجب على العلماء أن يعترفوا بأنهم أحيانًا ما يستخدمون الإيمان ليتمكنوا من فهم العلاقات العميقة بين مظاهر الطبيعة التي يلاحظونها".

ويرى شفارتز أن العلماء لا يمتلكون الحقائق والإجابات كما يدعون، ويجد في التساؤلات التي يواجهها العلماء يوميًا أكبر دليل على هذا الأمر، وخاصة العلماء الذين يبحثون في أصل الحياة، فكلما توصلوا لاستنتاج ناقضه اكتشاف جديد في اليوم التالي.

والسؤال عن مصدر حياتنا والمغزى منها والذي لا يمكن للعلم المادي الإجابة عليه أعطى الدور للميتافيزيقا أو علم ما وراء الطبيعة للإجابة عليه، وكانت حادثة هيروشيما وغيرها من الكوارث التي حدثت بسبب الاختراعات العلمية قد أفقدت العلم براءته، وأطلق الفيلسوف "كارل جاسبرز" وغيره على العلم المادي مُسمًى الخرافة.

^{١١١} (فاطر: ٢٧-٢٨).

ونستنتج من ذلك أنه من غير الممكن الإجابة على أسئلة أصل الحياة وهدفها والأخلاقيات مع استمرار المحافظة على التطور العلمي؛ إلا من خلال التوفيق والتكامل بين العلم والدين.

الإحاد الفجوات وليس إله الفجوات:

في حوار لي مع ملحد روسي كان قد طرح كثيراً من الأسئلة ومنها أنه قال: هل يستطيع الخالق خلق صخرة كبيرة لا يستطيع حملها؟

والمقصود بهذا النوع من الأسئلة أن إجابتي سواء كانت بنعم أو بلا فإنها تُظهر وكأن الخالق ليس كُلي القدرة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد أدهشني سؤاله جداً، لأنني كنت قد قرأت لأول مرة عن طرح الملحد لهذا النوع من الأسئلة في اليوم السابق فقط لحواري معه^{١١٢}، فكانت صدفة غريبة، ولقد استفدت من قراءتي لهذا الكتاب في الإجابة عن هذا السؤال وأسئلة أخرى كان قد طرحها هذا الملحد خلال الحوار.

فقلت له: حسناً هل تستطيع أن ترسم لي مثلثاً دائري الشكل؟ فقال لي مباشرة: أنت تتلاعبين بالكلام.

قلت له: أنت الذي تلاعبت في الكلام ليس أنا، فسؤالك ليس له معنى وليس فيه منطق. الخالق الإله الواحد الأحد جل جلاله لا يفعل ما لا يليق بجلاله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأعطيته مثلاً بسيطاً لتقريب الفكرة فقط، حيث قلت له: أي قسيس أو إنسان لديه منزله دينية رفيعة لا يخرج إلى الشارع العام عاري الجسد على الرغم من استطاعته فعل ذلك، لكنه لا يمكن أن يخرج للملأ بهذه الصورة؛ لأن هذا التصرف لا يليق بمكانته الدينية.

^{١١٢} كتاب خرافة الإحاد. د. عمرو شريف. طبعة ٢٠١٤م.

ولله تعالى المثل الأعلى، فالله قادر على كل شيء، لكنه لا يفعل ما لا يليق بمقامه جل جلاله.

قال: الإله غير موجود، العلم هو الطريق الوحيد للحقيقة.

قلت له: هذه العبارة ليس بياناً علمياً قائماً على الأدلة والملاحظات التجريبية، وبالتالي لا يمكن قبولها كحقيقة. الحقيقة أننا نعلم أن الأشياء لا تظهر بدون سبب، ناهيك عن هذا الكون المادي المأهول الضخم وما فيه من مخلوقات تمتلك وعياً غير ملموس وتطيع قوانين الرياضيات غير المادية.

قال: أنتم المؤمنون تتبنون مبدأ "إله الفجوات"^{١١٣}. عندما تعجزون عن تفسير شيء بأسلوب علمي، فإنكم تطرحون الإله كستار لجهلكم ولخمولكم العقلي، وفي نفس الوقت تستدلون بهذا الجهل على وجود إلهكم، أي كلما وجدتم ثغرة في العلم نسبتم إلى الإله القيام بها.

قلت له: هل الرجوع إلى صانع الطائفة عند عدم فهمنا لآلية عمل محرك الطائرة يعتبر فجوة في تفكيرنا؟ بالرغم من أن صانع الطائرة لا وجود له في أي خطوة من آلية عمل المحرك لكنه مسؤول عن وجود الآليات التي نعرفها.

إن العلم المادي يقول إن الكون قد نشأ من العدم، بينما يجبرنا العلم نفسه أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، مما أوقع العلماء في حيرة، فما أن المادة لا تُستحدث من عدم فكيف نشأ الكون من عدم؟ الآن يأتي دور الدين لتفسير ما أقر العلم بعجزه عن تفسيره. إن إلهنا ليس إلهاً لسد ثغرات منشأها الجهل، لكنه السبب الأول وراء كل الآليات التي يكتشفها العلم.

^{١١٣} نوع من النقاش في علم اللاهوت والذي يتم من خلاله جعل الفراغات (النقص) في المعرفة العلمية دليلاً على وجود الإله.

قلت له مسترسلة: أنتم من تتبنون مبدأ إلحاد الفجوات، فأنتم تستخدمون عدم قدرتكم أو عدم رغبتكم في إدراك مصدر قوانين الكون كدليل على أن هذا المصدر لا وجود له، وهذا في الواقع أكبر فجوة في الإدراك والمنطق، أليس هذا "إلحاد الفجوات"؟

قلت له مسترسلة: إنه لشرح وجود كون مادي محدود نحتاج إلى مصدر مستقل، غير مادي وأبدي. يمكن للعالم أن يدرس فقط الأشياء التي يمكن الشعور بها أو رؤيتها، وهو ما يعني الأشياء ذات الخصائص الفيزيائية المحدودة، لذلك لا يمكننا أبداً تفسير وجود الكون بالعالم المادي وحده.

إن الطبيعة بكل قوانينها ما هي إلا حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً لسبب وجود الكون، وما يُكتشف من قوانين ليست نفيًا لوجود الصانع، بل هي بياناً لخلق الله.

فعلى سبيل المثال، من يُودع في مؤسسة ادخار كل شهر مبلغاً من المال ويأتي في نهاية العام ليستلم المال الذي ادّخره مع الأرباح من المؤسسة ليقول له المحاسب: إن قانون الضرب الذي استخدمناه في حساب المبلغ هو الذي أوجد لك النقود. هل هذا من المنطق في شيء؟

في الواقع بدون ما قام به الشخص من إيداع للنقود سيظل رصيده صفراً، ومن ثم، فإن ادعاء أن قوانين الطبيعة هي التي أوجدت الكون هو السّفه بعينه. النظريات والقوانين تصف مسار الأمور بدقة لكنها لا توجد شيئاً من العدم. قوانين الحركة تستطيع أن تصف مسار كرة السّلة، لكن يد اللاعب هي التي تحرك الكرة، وهكذا فإن القوانين تحتاج إلى موجود تؤثر فيه قوة محددة، في مكان

ما وزمانٍ ما، وبدون هذه العناصر لا عمل لهذه القوانين، بل لن تكون موجودة أصلاً.

يعطينا الدين ما لا يعطينا العلم:

يستطيع الإنسان بالعلم المادي أن يصنع صاروخاً، لكن لا يستطيع بهذا العلم أن يحكم على جمال لوحة فنية مثلاً، ولا تقدير قيمة الأشياء، ولا يُعرفنا الخير والشر. بالعلم المادي نعلم أن الرصاصة تقتل، ولا نعلم أنه من الخطأ أن نستخدمها لقتل الغير.

يقول ألبرت آينشتاين عالم الفيزياء الشهير: "لا يمكن أن يكون العلم مصدرًا للأخلاق، لا شك أن هناك أسساً أخلاقية للعلم، لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أسس علمية للأخلاق، لقد فشلت وستفشل كل المحاولات لإخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته".

ويقول إيمانويل كانط الفيلسوف الألماني الشهير: "إن البرهان الأخلاقي لوجود الإله أقيم وفق ما تقتضيه العدالة، لأن الإنسان الخير يجب أن يُكافأ والإنسان الشرير يجب أن يعاقب، وهذا لن يحدث إلا في ظل وجود مصدر أسمى يحاسب كل إنسان على ما فعل، كما أن البرهان قائم على وفق ما تقتضيه إمكانية الجمع بين الفضيلة والسعادة، إذ لا يمكن الجمع بينهما إلا في ظل وجود ما هو فوق الطبيعة، وهو العالم بكل شيء والقادر على كل شيء، وهذا المصدر الأسمى والموجود ما فوق الطبيعة يُمثل الإله".

وكان الملحد الروسي قد سأل مجدداً: حسناً، لكن في اعتقادي، إن وجود تحقيق منافع وراء فكرة الإله جعلت الإنسان يتوهم بوجود الإله لتحصيل هذه المنافع.

قال الملحد مسترسلاً: إذا كان قوس قزح هو انعكاس الأشعة الشمسية على المطر، فمن الخطأ القول: إن منفعتنا في الاستمتاع بمنظر قوس قزح تدفعنا للاعتقاد بوجود خالق، فباكتشاف العلم للآلية التي أظهرت ألوان قوس قزح فقد نفى بالقطعية وجود الخالق.

قلت له: إذا كنت تسير في الطريق وضاع منك هاتفك المحمول، ووجدت كايينة هاتف عمومي وأردت الاستفادة منها والاتصال بزوجتك، هل استفادتك من وجود هذا الهاتف واكتشافك لآلية عمله دليل على عدم وجود صانع أصلاً لهذا الهاتف؟ أم أن الهاتف العمومي وجود حقيقي وله صانع؟ إن تحقيق المنفعة من الشيء لا ينفي وجود صانع للشيء بل يؤيده.

في الواقع، إن استمتاع البشر بمنظر قوس قزح الجميل واكتشاف العلم للآلية التي أظهرت القوس لا ينفي وجود خالق الشمس ومُنزل المطر. قال: الملحد لا يؤدي الآخرين، ولا يمكن أن يدفع إنساناً لفعل تصرفات سيئة كما يفعل بعض المتدينين باسم الدين.

قلت له: يدعو الدين إلى الأخلاق الحميدة وتجنب الأفعال السيئة، وبالتالي فإن السلوك السيئ لبعض المسلمين يرجع إلى عاداتهم الثقافية أو جهلهم بدينهم وابتعادهم عن الدين الصحيح. ألم تسمع عن محاولات إقامة الشيوعية في العالم التي تسببت بمقتل الملايين من المسلمين والمسيحيين، كيف تقول إذاً إن إنكار الإنسان للإله لا يمكن أن يدفعه لفعل تصرفات سيئة؟

يقول أحد الفلاسفة الشيوعيين: "كنا نظن أنه يمكن أن نكون أفضل دون إله، وأن نحافظ على إنسانية الإنسان، كم كنا مخطئين، لقد حططنا بالإله والإنسان سوياً".

قال: صفني لي الخالق؟

قلت له: سوف أعطيك مثالاً للتقريب فقط، صف لي أنت أولاً شيئاً غير مادي مثل "الفكرة". أعطني وزنها بالجرامات، وطولها بالسنتيمترات وتركيبها الكيميائي ولونها وضغطها وشكلها وصورتها^{١١٤}.

قال: طبعاً غير ممكن.

قلت له: إننا لكي نصف أمراً ليس مادياً فإن علينا استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي نستخدمها في دائرة العلوم، فما بالك في وصف خالق الكون وما يحتويه. قال: أنا أشعر أن فكرة الإيمان كقصص الأطفال المسلية أو رؤى المنام الجميلة التي تُسلي الإنسان عن همومه، ولكن ليس أكثر.

قلت له: هذه الرؤى الجميلة أفضل من كابوس الإلحاد الذي تعيشونه. الإلحاد ما هو إلا إعلان فشل صريح في التوصل إلى الحقيقة. كن مع خالقك الواحد الأحد المحيي المميت ولا تُبال.

قال: الطبيب أيضاً يُحيي ويميت حين يقرر علاج مريضه أو يتخلى عنه، والقاتل حين يتراجع عن قتل ضحيته فكأنه أحيّاها.

فذكرت له هذه الآية:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُذِّتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"^{١١٥}.

^{١١٤} كتاب الله يتجلى في عصر العلم. مجموعة من العلماء الأمريكيين.

^{١١٥} (البقرة: ٢٥٨).

قلت له معقبة: أتدري ما كان عقاب الله لهذا الرجل؟ لقد أرسل الله عليه مخلوقًا من أضعف مخلوقاته، وهي بعوضة، دخلت في أنفه ووصلت لدماعه حتى مات، ليثبت الله أن الإنسان مهما أوتي من قوة وجبروت يبقى عاجزًا عن حماية نفسه من أصغر مخلوقات الله.

استطرد الملحد الروسي: لكن الخالق كان عليه أن يأخذ رأيي قبل أن يخلقني! كيف يُجبر الخالق شخص على حياة هو لا يريد أن يعيشها؟

قلت له: إذا أراد الله أن يأخذ رأي خلقه في الخلق فيجب أن يتحقق وجودهم بدايةً. فكيف يمكن أن يكون للبشر رأي وهم في العدم؟ المسألة هنا مسألة وجود وعدم. إن تعلق الإنسان بالحياة وخوفه عليها هو أكبر دليل على رضاه عن هذه النعمة.

إن نعمة الحياة هي امتحان للبشر ليميز الإنسان الطيب الراضي عن ربه عن الإنسان الخبيث الساخط عليه. فحكمة رب العالمين من الخلق اقتضت لاستخلاص هؤلاء الراضين عنه ليحوزوا على دار كرامته في الآخرة.

قال: أنت تقولين: إن في بداية خلق الإنسان تم عقد ميثاق بين الإنسان وخالقه، حيث شهد له بالوحدانية والربوبية، لكنني لا أتذكر ذلك.

قلت له: ألا تنظر عينك إلى السماء رغمًا عنك عند تعرضك لخوف شديد؟ ألا ترتفع يدك دون أن تدري لطلب العون من القوة الخفية التي في السماء؟

قال: بلى. - وكنت قد بدأت أشعر بنبرة حزن في صوته - قلت له: إذا فأنت تتذكر ولكن في الضراء، فأنت في الواقع مؤمن، ولكن عليك أن تتذكر الخالق في السراء والضراء ليكتمل إيمانك.

كان قد فاجأني هذا الملحد الروسي بحركة غريبة عندما أخبرته أنني سوف أذهب إلى مكتبي وأحضر له نسخة من كتابي المفهوم الحقيقي للإله لكي يبحث في هذا الكتاب عن أجوبة للأسئلة التي لا زالت في ذهنه، حيث أنه أخبرني بضرورة مغادرته المسجد حالاً نظراً لانتهاء الوقت المحدد له لزيارة المسجد وفقاً لبرنامج مكتب السياحة الذي جاء عن طريقه، وقد كان المرشد السياحي ينتظره في قاعة المسجد لكن في زاوية بعيدة، وعندما ذهبت لإحضار الكتاب وعدت ثانية، دخلت القاعة ولم أجد الملحد الروسي في المكان الذي كنا نتحدث فيه، فأخذت أبحث عنه في كل مكان، وقد أخبرني المرشد أنه في زاوية أخرى، فنظرت حيث أشار لي المرشد، فوجدته قد أتم سجود المسلمين رافعاً رأسه من السجود وهو يبكي بشدة، فأدهشني المنظر، وقال لي المرشد السياحي مازحاً: ماذا فعلت بالرجل؟ قلت له: لم أفعل شيئاً، كان قد سألني أسئلة كثيرة وقد أجبت عليها، فقال المرشد لي: إن الزائر أخبرني في غيابك أنه متأثر جداً، وأنه لطالما أحب أن يكون مؤمناً، لكنه لم يجد أجوبة على أسئلة كثيرة تدور في ذهنه، والآن وجدها، فقلت للمرشد: الحمد لله، هذا من فضل الله وتوفيقه، والله يعلم علم اليقين أن هذا الشخص فيه خيراً كثيراً، وهو يبحث عن الحقيقة، ولهذا فقد يَسِّرَ له الطريق إلى هذا المكان.

العلة الفاعلة والعلة الغائية^{١١٦}:

يصف أبو حامد الغزالي رحمه الله أن لكل موجود (كتاباً مثلاً)، عللاً أربع. العلة المادية: وهي الأصباغ والورق الذي صُنِعَ منها الكتاب. العلة الظاهرة: وهي الهيئة التي شُكِّلَ عليها الكتاب.

^{١١٦} كتاب نهايت الحكاء في رد مذاهب أهل الأهواء لأبي حامد الغزالي.

العلة الفاعلة: هي المؤلف، صانع الورق وعامل الطباعة.
 العلة الغائية: وهي الغرض الذي من أجله كتب الكاتب الكتاب.
 ولقد تجاهل الملحدون العلة الغائية باعتبارها خارج نطاق العلم، لأنه لن يُخبر
 بالغاية من الصنعة إلا صانعها، واعتبروا التصديق بها ضد العلم، وصار على
 الجميع التصديق بأن الكون وما فيه لا غاية من ورائه.
 في الواقع، أن كل ما يقوم به الإنسان من نشاطات وما يجري في الكون من
 أحداث يجمع بين الآلية والغائية، فنحن على سبيل المثال، نتناول كوب الماء
 بأيدينا بآلية الحمل لنشرب ونروي ظمأنا، وكذلك نستخدم الطائرة بآلية الركوب
 للوصول إلى مكانٍ معين^{١١٧}.

قال لي ملحدٌ يوماً: إن الاعتراف بوجود الخالق يعطل العقل والمنطق.
 قلت له: إن دور العقل هو الحكم على الأمور والتصديق عليها، فعجز العقل
 عن التوصل للغاية من وجود الإنسان مثلاً، لا يلغي دوره، بل يعطي الفرصة
 للدين ليخبره بما عجز عن إدراكه، فيخبره الدين عن خالقه ومصدر وجوده
 والغاية من وجوده، فيقوم هو بالفهم والحكم والتصديق على هذه المعلومات،
 فبذلك يكون الاعتراف بوجود الخالق لم يعطل العقل ولا المنطق.

يقول ابن طفيل في قصة حي بن يقظان:

"إن العقل يستطيع بما لديه من الأفكار الفطرية الأولى أن يدرك الحق فيما يتعلق
 بالمبادئ الأولى، ويدرك منها وجود الله، وأما ما وراء ذلك من أسرار الوجود
 والخلق والخالق المحجوبة عنا بمُحجب الغيب، فهو أعجز من أن يدرك كُنْهها
 وأحقيتها؛ لأن الحواس لا تُدرك غايات الأشياء، ونحن نرى أن العقل قادر على

^{١١٧} مقتبس بنصرف من كتاب وهم الإلحاد. دكتور عمرو شريف. طبعة الأزهر نوفمبر/ديسمبر ٢٠١٣.

إدراك القوانين واستنباط الكليات والوعي بالعلل لو أنه تحرر من ضغوط المكابرة والعناد الإلحادي، وما لا يستطيع العقل فعله هو الوصول للتفاصيل والجزئيات التي يأتي بها الدين، وتُعتبر حقائق الدرجة الثانية، ومن المفروض أن تُقبل تبعاً للحقائق الكبرى، كما أن العقل أيضاً وإن كان قادراً على إدراك وجود الله، فهو عاجز عن إدراك كُنه الله، ولا أعتقد أنه من البحث العلمي في شيء الإصرار على البحث في كُنه الله، "ليس كُنهه شيء" ^{١١٨}. وهذا ليس لأنه لا يدرك بالحواس فحسب، بل لأنه لا يوجد عالم طبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها، فضلاً عن أن يعرف كُنه ذات الله، فهل يرجو الإنسان الذي لا يعرف المادة، ولا يعرف كيف يعرف، ولا يدرك كيف يدرك، أن يدرك حقيقة الله؟

وأتذكر هنا تعليق للمحد يومًا، أنه قال: لقد توصلَ العلم المادي إلى أن جهاز

الحاسوب يشبه عقل الإنسان، والسبب:

أولاً: كل الماديات ذات الأشكال والنظم يمكن تقليدها.

ثانياً: المخ عبارة عن مادة ونظام.

ثالثاً: إذا المخ يمكن تقليده.

رابعاً: إذا المخ هو حاسوب.

قلت له: أنت كمن يقول إن جهاز الحاسوب يُدرك ما يحتوي من معلومات! أو

كمن يقول إن جهاز التلفاز يُدرك ما يعرض من برامج، إن الفارق بينهما هو

إدراك عقل الإنسان وشعوره بما يفعل.

^{١١٨} (الشورى: ١١).

من عبادة الكون لعبادة رب الكون:

إن من مظاهر النزاع الذي قام بين الدين والعلم المادي في بلاد اليونان القديمة أن حُرِّمت الشرائع اليونانية دراسة علم الفلك، مما أعاق التطور العلمي بسبب عبادة موجودات الكون. ولقد عَجَّل فشل نظام دول المدائن في اليونان القديمة تدهور الدين القديم؛ ذلك لتزايد اليقين لديهم بأن آلهة المدينة عاجزة عن حمايتهم، فتزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة واختلط أهلها بالتجار الأجانب الذين بدورهم نشروا الشكوك واللهو بين المواطنين، وقد بقيت أساطير الآلهة المحلية القديمة بين الفلاحين والسُدَّج من سكان المدن، وانتشرت الخرافات والأوهام، في الوقت الذي بلغ فيه العلم المادي أوجهه، وبذلك لم يتقدم العلم في اليونان القديم إلا بعد أن توقف بعض مفكره عن تقديس موجودات الكون. لكن الخطأ الفادح الذي وقعوا فيه هو عندما اعتبروا أن الإلحاد ضروري لممارسة العلم الحقيقي.

وقصة إبراهيم عليه السلام في القرآن تعلمنا أن التحلي عن عبادة موجودات الكون لا تعني دحض وجود خالق للكون؛ بل هي دعوة لعبادة رب الكون^{١١٩}.

"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)".

^{١١٩} مقتبس بنصرف من كتاب وهم الإلحاد. دكتور عمرو شريف. طبعة الأزهر نوفمبر/ديسمبر ٢٠١٣.

^{١٢٠} (الأنعام: ٧٥-٧٩).

لماذا تخلفنا؟

إن الحضارة الإسلامية قد نجحت في إظهار حرية العقل والفكر، وكان دين الإسلام نفسه مسؤولاً، ليس فقط عن إنشاء حضارة علمية شارك فيها أناس من خلفيات عرقية مختلفة، لكنه لعب دوراً رئيساً في تطوير الحياة الفكرية والثقافية على نطاق لم يسبق له مثيل من قبل. منذ حوالي ثمانمائة عام كانت اللغة العربية هي اللغة الفكرية والعلمية الرئيسة في العالم، فلماذا تخلفنا الآن إذا؟ في حوار لي مع صديقة مسلمة كانت ابنتها قد رسبت في امتحان الثانوية العامة، البنت معروفة بإهمالها في الدراسة وعدم جدتها، وكان ذلك تزامناً مع مرض أم صديقتي الشديد، وكانت صديقتي يحكم عملها لا تستطيع البقاء مع والدتها في المنزل لرعاية شؤونها، وكان رسوب البنت يستدعي إعادة دراسة مناهج السنة الدراسية من المنزل، فكانت بالطبع فرصة لأن تكون برفقة جدتها هذه المدة، حيث أنه لن يتسنَّ لها الالتحاق بالجامعة هذا العام.

كنت قد تفاجأت أن صديقتي بدأت تُحدث الناس بأن الله قد تسبب في رسوب ابنتها لتتمكن من الجلوس مع أمها ورعايتها.

قلت لها: عجب! الله الذي قد تسبب في رسوب ابنتك أم إهمالها في دراستها؟ قالت: أما رأيت هذا التيسير والتوقيت المناسب لرسوب بنتي تزامناً مع مرض أُمي؟

قلت لها: "ولا يظلم ربك أحداً"^{١٢١}، الله لن يظلم ابنتك ليوفر سبل الراحة لك، الله عَلم بعلمه المسبق أن ابنتك مهملة ولن تنجح في الاختبار، لكنه لم يجبرها على الرسوب، ولو كانت ابنتك متفوقة هيئاً الله أسباباً أخرى لرعاية أمك.

^{١٢١} (الكهف: ٤٩).

وتذكرت حينها قصة من القصص التي روتها لي أُمِّي عند صغري ولا أدري ما مصدرها، ولكن فيها الكثير من الحقيقة.

والقصة تقول: أنه في بلاد الأندلس عندما كانت البلاد تحت حكم الإسلام، وأراد أحد الحكام الظلمة أن يحتلها، فأرسل جاسوسًا إليها ليأتيه بأخبار الجيوش ومدى استعدادهم، فما أن دخل بلاد الأندلس، وجد طفلًا صغيرًا في طرف المدينة يجلس تحت شجرة ويكي لأنه اعتاد على ضرب عصفورين بسهم واحد، واليوم لم يستطع أن يضرب إلا عصفورًا واحدًا بسهم واحد، وكان قد اعتبر هذا الإخفاق بسبب ذنب قد اقترفه، فقال الجاسوس في نفسه: إذا كان هؤلاء هم أطفالهم فكيف بكبارهم، فرجع من طرف المدينة إلي الحاكم وقال له: لا طاقه لك بمؤلاء، ولكن انتظر حتى تدخل عليهم المعاصي والذنوب لتتمكن من دخول تلك البلاد.

"...إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَغْضٍ مَا كَسَبُوا..."^{١٢٢}.

الشاهد هنا، أننا لا نتخلف بالمعاصي فقط، ولكن نتخلف أيضًا بعدم اعترافنا بتقصيرنا وذنوبنا، فالانتصار على الأعداء والنجاح في الحياة لا بد أن يسبقه الانتصار على النفس ومجاهدتها على: تقوية الإيمان، البعد عن المعاصي، حُسن الظن بالله، الأخذ بالأسباب، الاعتراف بالذنوب وتحديد التوبة دائمًا، ليأتي النصر ويتحقق المراد.

يقول ابن القيم: "احذر نفسك فَمَا أَصَابَكَ بَلَاءٌ قَطَّ إِلَّا مِنْهَا، وَلَا تُهَادِنَهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَكْرَمَهَا مِنْ لَمْ يُهْنَهَا، وَلَا أَعْرَهَا مِنْ لَمْ يُذْهِلَهَا، وَلَا جَبَرَهَا مِنْ لَمْ

^{١٢٢} (آل عمران: ١٥٥).

يَكْسِرُهَا، وَلَا أَرَا حَهَا مَنْ لَمْ يُتْعَبْهَا، وَلَا أَمْتَهَا مَنْ لَمْ يُخَوَّفْهَا، وَلَا فَرَحَهَا مَنْ لَمْ يُحْزَنْهَا".

إن في الحضارة الإسلامية لم يظهر ما يُسمى بالنزاع بين العلم والدين كقضية، بل قد اعتبر بعض علماء الطبيعة والفلك والرياضيات المسلمين أنفسهم في عبادة لله تعالى.

لقد تقدم الغرب بالعلوم والمعارف عندما ترك المعتقدات الخاطئة، والتي كانت تقوم على أساس الدين المشوّه لديهم، ولذلك نجح عندما ترك هذه البدع وبدأ بالأخذ بأسلوب العلم والمنطق، وترك الخوض في الغيبيات المستقاة من أفكار رجال الدين، ومع توجّههم للعلم بطريقة سليمة كانوا قد خسروا القيم والأخلاق والغاية من وجودهم بتغاضيهن عن اعتناق الدين الصحيح.

لكن عند العرب كان الوضع على النقيض، فقد تخلّف العرب عندما تركوا الدين الصحيح وتوجهوا للعلم بأسلوب خاطئ، عندما جروا وراء الأسلوب الغربي في التفكير والتقليد الأعمى. وإذا ما رغبتنا في استرجاع أجماد الماضي، فلا بد من تصويب الوضع وإعادة ترتيب الأولويات، فالدين عندنا صحيح ومعتقداته سليمة، ويبحث ويُحفز على العلم بأسلوب روحي، عقلي ومنطقي، ويرفض البدع والخرافات، فالأساس عندنا موجود ولا ينقصه إلا البنیان، لإعادة بناء الحضارة من جديد.

الدين القيم

والذين آمنوا أشد حُبًّا لله:

في زيارة لنا لمعلم من المعالم المميزة في هونغ كونغ، وجدنا الناس تتهاافت على الصلاة لتمثال بوذا وتقريب القربات له، ودائمًا ما كان يدور في خاطري كيف أن غواتاما استخدم كلمة "بوذا" بسياق كلمة "نبي"، وعنى بذلك الشخص الذي يتم تنويره بالوحي الإلهي. وكان قد قال لأتباعه: "أنا لم أكن أول بوذا ولن أكون آخر بوذا"، وعندما يشعر البوذي بخوف شديد فإنه يلجأ إلى القوة التي في السماء لطلب الإغاثة^{١٢٣}. ووسط الازدحام الشديد والأفكار التي تدور في خلدي عن اعتقادات هذه الشعوب، سمعت زوجي يقول بصوت واضح وعالي نسيبًا: لا إله إلا الله. ابتسمت وقلت له: أخفض صوتك فحن محاطون بالناس، قال لي: صدقيني لا أستطيع اخفاض صوتي، لا أستطيع أن أتمالك نفسي. فقلت في نفسي سبحان من جَبَلَ القلوب السليمة على ذكره، وتذكرت الآية الكريمة: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ"^{١٢٤}، وسُعدتُ كثيرًا.

^{١٢٣} (انجيل بوذا، صفحة ٢١٧- ٢١٨) "قال أناذا للمبارك: من يعلمنا عندما تذهب؟ فرد المبارك: لست أول بوذا جاء إلى الأرض ولن أكون الأخير. في الوقت المناسب سوف يظهر بوذا آخر في العالم".
^{١٢٤} (البقرة: ١٦٥).

أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم:

إن بالنظر إلى الثقافات والحضارات المختلفة للأمم، واختلاف اللغات والمعتقدات للشعوب، نجد أنه يوجد قواسم مشتركة فيما يتعلق بالقيم والأخلاق والمعاني الإنسانية، كما تتشابه كثيراً مشاكلنا وتحدياتنا وطموحاتنا. فالشعوب لا تتشارك فقط في القيم والأخلاق والمعاني الإنسانية، بل وأيضاً في الخلفية التاريخية وأصول الدين والعقيدة، فنحن جميعاً نلتقي في آدم ولا بد أن آدم كان له دين ومعتقد واحد. وإن اختلاف الديانات والمعتقدات جاءت من البشر.

وبإمعان النظر في معتقدات الشعوب، نكتشف أن غالبية الأمم التي لديها موروث ديني ولديها رموز دينية مختلفة لا تزال تؤمن بوجود خالق للكون وتلجأ إليه عند الشدائد، مما يؤكد أن هذه الديانات والمعتقدات لها أصول تاريخية نابعة من ديانة أصلية واحدة صحيحة. وأن ما لدى الشعوب الحالية من تراث ديني يحوي بداخله على مبدأ التوحيد والإيمان بإله واحد والتفرد بعبادته، وأن هناك دلائل وشواهد في هذه الديانات والكتب تشير إلى أن جذورها وأصولها ترجع إلى عقيدة التوحيد.

أتذكر عندما كان ابني يقضي وقت الاجازة السنوية في العمل التطوعي في مجال الدعوة إلى الله، وقد كان طالباً في كلية الهندسة آنذاك. كان قد أخبرني يوماً، أنه في أثناء حوار مع شخص من الديانة الهندوسية قد لفت نظره أن الهندوسي يؤمن بإله واحد أحد، لكنه يلجأ بالتوسل لغير الله، حيث قال له الهندوسي: نحن نشترى آهتنا حسب إمكانيتنا، فمن لديه المال يشتري إلهاً من ذهب، والفقير يشتري إلهاً من خشب، فتعجب ابني من قوله وسأله: وعند حدوث خلل في الطائرة وتدركون أنكم هالكون لا محالة ماذا تفعلون؟ قال: نلجأ إلى

الإله الواحد الذي في السماء. فقال له ابني: إذا لماذا لا تلجؤوا له كل يوم وفي كل وقت لتتوحد قلوبكم لما فيه خيركم.

تذكرت حين انتهى ابني من سرد القصة قصة عمران بن حصين، عندما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه: "يا حصين كم تعبد اليوم إلها؟ قال الأب: سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء. قال النبي الكريم: فأيم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء. فقال له النبي: فاترك الذين في الأرض واعبد الذين في السماء، فأسلم الحصين" ١٢٥. ففرحت وقلت لابني: سبحان الذي هداك لهذا الجواب.

"فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ" ١٢٦
 "...إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" ١٢٧.

ولن أنسى إجابة زائرة هندوسية عندما سألتها عن خوفها الشديد مني عندما كنت أكلمها عن المفهوم الحقيقي للإله، قالت: أنا أخاف أن أناقشك لأنك قد تكوني أنت الله، حيث لديك كثير من العلم، فالإله قد يأتي بصورة إنسان أو ربما حيوان ليعلمنا درساً معيناً، وقد يكون قد أتى في صورتك.

حينها شعرت بمشاعر مختلطة بين الرغبة في الضحك من إجابتها، والحزن على حالها، والتعجب من الحال التي وصل إليها هؤلاء الناس.

قلت لها: عجيب أمرك، أنا لا أستطيع أن أتخيل أبي أو زوجي في صورة حيوان أو أي مخلوق آخر، كيف تقبلين هذا التصور للإله الخالق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٢٥ (أخرجه الترمذي).

١٢٦ (العنكبوت: ٦٥).

١٢٧ (يوسف: ٤٠).

وأتذكر هنا قصة زائر هندوسي كان قد جاء برفقة ابنته وزوجها المسلمَيْن،
ودموع ابنته شوقاً لسماع خبر قبول والدها لاعتناق الإسلام لا زالت في
ذاكرتي.

كان فعلاً قد قبل عرضاً مني لاعتناق الإسلام عندما أحبته عن سؤال يدور في
ذهنه، قال: أنا مقتنع بالإسلام، ولكن أشعر أنني حين أصبح مسلماً سوف
يكون تصرفي هذا فيه كثير من قلة الاحترام لوالديّ وعدم الوفاء لهما بعد
موثما.

قلت له: وهل نسيت حق خالقك الذي خلَقك وصَوَّرَكَ وَكَرَّمَكَ وأعطاك المال
والولد؟ إن كان أبوك قد ألقيا بنفسيهما في البحر ليغرقا، هل كنت ستزني
بنفسك؟ مستقبلك مع خالقك وليس مع أبويك. ولو كان لأبويك الفرصة
للعودة للحياة لنصحاك بالإسلام.

وكنت قد أكدت قبل نطقه بالشهادة على ضرورة الإيمان باليوم الآخر وترك
عقيدة تناسخ الأرواح، وهذه من النقاط الأساسية التي يجب التركيز عليها.
وكان قد سألي عن السبب.

قلت له: هل تقبل إدارة أي مدرسة أو جامعة لأي من تلاميذها أن يُكمل
أحدًا عنه الاختبار عند انتهاء الوقت المحدد؟ الحياة هي ورقة اختبار.

إننا لو تأملنا الانسجام الموجود بين أجساد البشر وأرواحهم لتبيّن لنا أنه من
غير الممكن جعل هذه الأرواح تسكن في أجساد الحيوانات ولا يمكن لها التجول
بين النباتات والحشرات (تناسخ الأرواح) ولا حتى في أشخاص. لقد ميّز الله
الإنسان بالعقل والمعرفة وجعله خليفة في الأرض، وفضّله وكرّمه ورفع من شأنه

على كثير من الخلائق. ومن عدل الخالق وجود يوم القيامة والحساب والجنة والنار، لأن كل الأعمال الصالحة والسيئة سوف تقاس وتوزن في هذا اليوم. "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" ١٢٨.

ومن القصص الجميلة التي رواها لنا أحد شيوخنا الأفاضل في مجال الدعوة، كانت عن شخص من الديانة الهندوسية والذي كان قد سافر لأول مرة في حياته، وكان قد وضع إلهه الصغير في حقيبة السفر مع باقي أمتعته الشخصية، وعندما وصلت الطائرة إلى وجهتها ضاعت الحقيبة، وذهب إلى استعلامات المطار ليبلغ عن فقدانها، وعندما سألوه عن محتويات الحقيبة خجل أن يخبرهم أن إلهه داخل الحقيبة، وقد كان هذا الموقف المحرج نقطة انطلاق له للبحث عن الحقيقة وإدراك فداحة ما ارتكبه طول حياته من عبادة ما لا ينفع ولا يضر من دون الله. وانتهى به المآل إلى الإسلام. وعندها أيقن أن فقدانته للحقيقة في ذلك اليوم كان من أحسن حظله وليس كما ظن في البداية.

والهكم إله واحد:

منذ ظهور الإنسان على الأرض - منذ عهد آدم - أرسل رب العالمين الرسل، وكان يختار أكثر الرجال ورعًا وتقوى في قومه ليكون نبيًا وحكمًا بينهم، ولتذكيرهم بإخلاص العبودية لله وحده. وكلما قام الناس بتحريف رسالة الأنبياء السابقين وحادوا عن الطريق السليم وعبدوا غيره، كان الله يُرسل نبيًا جديدًا ليقود الناس ويعيدهم إلى الطريق الصحيح وتوجيههم مرة أخرى لعبادته وحده. أرسل الخالق رسالة واحدة إلى جميع الأمم وطريق واحد للخلاص، عبارة عن رسالة واضحة بسيطة وهي: الإيمان بإله واحد، وعبادته وحده. كان وجود النبي

في قومه بمثابة المشكاة التي تنير الطريق لأتباعه وتوضح لهم وسيلة الحصول على الخلاص، وذلك باتباع تعاليم هذا النبي وأفعاله بعبادة الخالق وحده، وليس كما يفهم البعض خطأً أن يجعلوا نبيهم وسيطاً أو إله للتقرب لرب العالمين من خلاله.

كما أن العديد من الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله للأمم المختلفة ذكرت أسمائهم في القرآن الكريم (مثل المسيح عيسى، موسى، إبراهيم، نوح، داود، سليمان، إسماعيل، إسحق ويوسف، إلخ....)، هناك آخرون لم يُذكرُوا. فإن احتمالية كون بعض الرموز الدينية في الهندوسية والبوذية (مثل رام، كريشنا، وغواتاما بوذا) أن يكونوا أنبياء أرسلهم الله هي فكرة غير مستبعدة، غير أن هذه الشعوب استخدمت هذه الرموز للشرك بالله. وبينما تتذرع بعض الشعوب بأن الله لم يبعث فيهم رسولاً ولا نبياً كما أرسل النبي محمد للعرب، فيأتي القرآن الكريم ليؤكد عكس ذلك في قوله تعالى:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَضَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ - بِالْحَقِّ وَخَسِرَ - هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ" ١٢٩.

وقوله تعالى:

"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" ١٣٠.

١٢٩ (غافر: ٧٨).

١٣٠ (فاطر: ٢٤).

وهنا تتجلى عظمة الإسلام في شموليته وبساطته، فمصطلح الإسلام غير مرتبط بأي شخص أو مكان أو جماعة خاصة، ولكنه يعكس العلاقة مع رب العالمين.

أذكر هنا قصة لمدرس اللغة الفرنسية الكاثوليكي في أفريقيا، أنه قال لي يومًا أمام الطلاب في الفصل - وقد كنت المسلمة الوحيدة بينهم - حيث قال: أنا أحب الإسلام.
قلت له: لماذا؟

قال: المسلمون يعبدون إلهًا واحدًا، ولديهم كتابًا مقدسًا واحدًا، ويصلون باتجاه واحد، فأنا معجب جدًا بهذا الدين.

شعرت حينها بفرحة كبيرة وفخر بهذا الدين العظيم، وكانت هذه اللحظة نقطة انطلاق لي لتكريس وقتي وجهدي لدراسة الطريقة السليمة لعرض الإسلام، وتغيير أسلوب الحوار الدارج بين الدعاة، والذي يُنفّر من الإسلام أكثر مما يُقرب إليه. فالإسلام دين الفطرة، بسيط ومفهوم، ولكن يُعرض بطريقة معقدة وتكاد تكون خاطئة. وقد أعجبتني قول سمعته مرة: أن الإسلام سلعة جيدة ولكن المسوق لها فاشل.

في زيارة لزاير أرجنتيني لمركزنا فاجأني بقوله: أنا معي خمس دقائق فقط هنا، وأريد أن أعرف بثلاث دقائق فقط ما هو الفرق بين النصراني والمسلم قبل أن أخرج لأتمكن بباقي الوقت من التقاط بعض الصور للمسجد.

قلت في نفسي: ماذا عليّ أن أقول بهذه الدقائق الثلاث، واحترت لوهلة، لكنني شعرت بقوة مفاجئة للرد عليه بسرعة وقلت له: هل لديكم في الأرجنتين من النصراني (المسيحيين) من نشأ في أسرة نصرانية وتعمّد، وعندما كبر قال: أنا

غير مقتنع بأن الله له ولد، وهو بالنسبة لي واحد أحد والمسيح هو نبي فقط، وأنا أُلجأ إلى الله في الدعاء مباشرةً ولا أُلجأ إلى المسيح؟

قال لي: نعم، هناك الكثير وأنا واحد منهم.

قلت له: إذاً أنت مسلم دون أن تدري.

فذهل وقال: عجيب! إذاً فأنا مسلم؟

قلت له: نعم، لكن عليك أن تقبل بمحمد عليه الصلاة والسلام على أنه خاتم رسل الله، لأنك قد سمعت عنه مني هنا.

قال: نعم أقبل، وعقَّب قائلاً: عند دخولي المركز كان أقصى أُملي أن أعرف الفرق بين المسلم والنصراني، ولم أكن أتوقع أن أخرج من هذا المكان مسلمًا.

شكرًا لك أن أنرت دري.

قلت له: الحمد والشكر لله وحده أن هدانا جميعًا للدين الحق.

المنطقي من الله والمعقد من البشر:

سألني يومًا زائر ألماني، وقد كان واحدًا من ضمن مجموعة كبيرة من الألمان الذين يستمعون إلى تعريف بالإسلام كنت ألقيه بنفسي عليهم باللغة الألمانية، قال: إذا كان الإسلام بهذه البساطة والمنطقية كما تقولين، فلماذا يتسبب المسلمون بكل هذه المشاكل السياسية؟

وقد كان هذا السؤال أمام المجموعة وكان عليّ أن أتدارك الموضوع حتى لا يُفسد هجومه هدوء الحوار.

قلت له فوراً: أنا فقط للعلم سوف أموت وحدي، وسوف أبعث وحدي، وسوف ألقى الله وحدي، بدون أهلي ومالي. إنني سوف ألقى الله بثلاثة أجوبة لثلاثة أسئلة وهي: من ربك، ما دينك ومن رسولك؟ والله ينتظر مني الإجابة،

وهي: أن الله الخالق ربي، وديني هو الإيمان به وعبادته وحده بدون وسيط، ونبيي محمد خاتم الرسل، وباعتراضي بمحمد خاتم الرسل أكون قد آمنت بجميع الرسل الذين سبقوه، وهذا فرض وواجب على كل مسلم.

"قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْذَرُوا لَهُمْ مَسَلِكُونَ" ١٣١.

"آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَقْرِئُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" ١٣٢.

قلت له: وأنتم أيضاً، وكل إنسان على وجه الأرض، سوف يقابل الله وحده، والحياة قصيرة، والموت يدهمنا فجأة، متى سوف نتعلم كيف نفرق بين المشاكل السياسية والدين؟ أما أن الأوان لتتعلّم كيف نحدد أولوياتنا؟

فهذا الرجل وصفقت المجموعة فرحاً بالإجابة.

قلت لهم جميعاً بعد ذلك: أريد أن أسألكم سؤالاً، إنه لمن المعروف أن كل أمة وشعب من الشعوب لديهم عادات، تقاليد، أهواء وبدع.

قلت لهم مسترسلة: شخص بسيط مثلي هنا أو آخر في الصين، أو لديكم في ألمانيا أو في أمريكا الجنوبية أو أفريقيا مثلاً، كيف يستطيع أن يُفَرِّقَ مبدئياً بين دين الله البسيط وتقاليد وبدع شعب المكان الذي هو فيه قبل قراءة أي كتاب ديني؟

أخذوا يحاولون التخمين، وبعد أن فشلوا بإعطائي الجواب الصحيح، قلت لهم: كلكم تعرفون مصطلح يُدعى الفطرة السليمة أو المنطق السليم، فكل ما هو

١٣١ (البقرة: ١٣٦).

١٣٢ (البقرة: ٢٨٥).

منطقي من الله، وكل ما هو معقد من البشر، وضحكوا جميعاً بشدة، ومنهم من صفق ثانيةً.

قلت لهم: على سبيل المثال، إذا أخبركم رجل دين مسلم أو نصراني أو هندوسي أو من أي ديانة أخرى، أن للكون خالق واحد أحد، ليس له شريك ولا ولد، لا يأتي إلى الأرض بصورة إنسان أو حيوان ولا حجر ولا صنم، وأنه علينا أن نعبد وحده ونلجأ إليه وحده بالشدائد، فهذا فعلاً دين الله، أما إن أخبركم عالم دين مسلم أو نصراني أو هندوسي الخ، أن الله يتجسد بأي صورة معروفة لدى البشر، ويجب أن نعبد ونلجأ إليه عن طريق أي شخص أو نبي أو قسيس أو قديس، فهذا من البشر، اتركوه.

قلت لهم: إنه يكفي لأن تذهبوا لزيارة للهند مثلاً، وتقولوا بين الجماهير: الخالق الإله واحد، لأجاب الجميع وبصوت واحد: نعم، نعم الخالق واحد. فقلت للمجموعة: وهذا فعلاً ما هو مكتوب في كتبهم^{١٣٣}.

١٣٣ في الهندوسية:

(تشاندوجيا أوبانيشاد: ٦: ٢-١).

"إنه إله واحد فقط ليس له ثاني".

(فيداس، سفيتا سفاتارا أباتيشاد: ٤: ١٩، ٤: ٢٠، ٦: ٩).

"الإله لا يوجد آباء ولا سيد".

"لا يمكن رؤيته، لا أحد يراه بالعين".

"لا يوجد شبيه له".

(ياجورفيدا: ٩).

"يدخلون الظلمة، أولئك الذين يعبدون العناصر الطبيعية (الهواء والماء والنار، إلخ). يفرقون في الظلام، أولئك الذين يعبدون السامبوتي (أشياء مصنوعة باليد مثل الوثن، الحجر، إلخ)..."

في المسيحية (النصرانية):

(إنجيل ماثيو ٤: ١٠).

"حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد."

لكنهم يختلفون ويتعاركون وقد يذبح بعضهم البعض على نقطة أساسية وهي: الصورة والهيئة التي يأتي بها الله إلى الأرض. فالهندي النصراني يقول مثلاً: الله واحد، لكنه يتجسد في ثلاثة أقانيم (الآب، الابن والروح القدس)، والهندي الهندوسي منهم من يقول: يأتي الله بصورة حيوان أو إنسان أو صنم. قلت لهم: لو تفكرون بتعمق لوجدتم أن جميع المشاكل والفروقات بين طوائف الديانات والديانات نفسها هي بسبب الوسطاء التي يتخذها البشر بينهم وبين خالقهم، فمثلاً طوائف الكاثوليكية وطوائف البروتستانت وغيرها، وطوائف الهندوسية، تختلف على كيفية التواصل مع الخالق، وليس على مفهوم وجود الخالق نفسه، فلو عبدوا الله جميعهم مباشرة لتوحدوا.

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" قُلْ أَنْ تَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" ١٣٤.

قلت لهم مسترسلة: إضافةً إلى ذلك، يجب أن تعرفوا أن دين الله واضح ومنطقي ولا ألغاز فيه. فأنا هنا إن أردت أن أقنعكم بأن محمداً إله عليكم أن تعبدوه، فعليّ أن أبذل مجهوداً كبيراً لكي أقنعكم بهذا، ولن تقتنعوا أبداً، لأنكم قد تسألوني: كيف يكون محمداً إله وقد كان يأكل ويشرب مثلنا؟ وقد ينتهي بي المطاف لأقول لكم: أنتم لم تقتنعوا لأنه لغز ومفهوم غامض، سوف تفهموه عند لقاء الله كما يفعل الكثير اليوم في تبريرهم لعبادة المسيح وغيره. وهذا المثال

(سفر الخروج ٢٠: ٣ - ٥).

"لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهم ولا تعبدن، لأنّي أنا الرب إلهك إله غيور، أفنقذ ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبعضي".

١٣٤ (آل عمران: ٦٤).

يبرهن على أن دين الله الصحيح لا بد أن يكون خالي من الألغاز، والألغاز لا تأتي إلا من البشر.

قلت لهم مسترسلة: دين الله أيضًا مجاني، فالجميع لديه الحرية في الصلاة والتعبد في بيوت الله دون الحاجة لدفع اشتراكات للحصول على عضوية للتعبد فيها، أما إن كان فرض عليّ أن أسجل وأدفع النقود في أيّ من دور العبادة للتعبد فهذا من البشر.

أما إن أخبرني رجل الدين أن عليّ أن أخرج صدقةً لمساعدة الناس مباشرة فهذا من دين الله.

والناس سواسية كأسنان المشط الواحد في دين الله، فإنه لا فرق بين عربيّ ولا أعجميّ ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى. فلو أخبروكم أن هذا المسجد أو الكنيسة أو المعبد للأبيض فقط والأسود له مكان منفصل، فهذا من البشر. قلت لهم: تكرّم المرأة والرفع من شأنها هو أمر من الله، لكن قمع المرأة من البشر.

فسأل أحدهم: فلماذا المرأة المسلمة في أفغانستان مقمعة إذًا؟

قلت له: وهل تظن أن المرأة البوذية أو النصرانية في أفغانستان تعيش في الجنة؟ إذا كانت المرأة المسلمة مقمعة في أفغانستان، فالهندوسية أيضًا مقمعة والبوذية والنصرانية هناك، هذه ثقافة شعوب، وليس لها علاقة بدين الله الصحيح في شيء.

قلت لهم معقبة: دين الله الصحيح دائمًا في توافق وتناغم مع الفطرة، فمثلاً، أي مدخن للسيجار أو شارب للخمر يطلب من أولاده دائمًا الابتعاد عن شرب الخمر والتدخين لقناعته العميقة بخطرهما على الصحة والمجتمع.

فعندما يُحَرِّم الدين الخمر مثلاً، فهذا بالفعل أمرٌ من أوامر الله، لكن إذا جاء الدين ليحرِّم الحليب على سبيل المثال، فهذا ليس فيه منطق، فالجميع يعلم أن الحليب مفيدٌ للصحة. إن من رحمة الله ولطفه في خلقه أن سمح لنا بأكل الطيبات ونهانا عن أكل الخبائث.

وغطاء الرأس للمرأة والاحتشام للرجال والنساء مثلاً أمرٌ من الله، لكن تفاصيل الألوان والتصاميم من البشر، فالمرأة الصينية الريفية الملحدة والريفية النصرانية السويسرية تلتزم بغطاء الرأس، على أساس أن الاحتشام شيء فطري.

فهكذا نستطيع أن نفرق بين الحق والباطل قبل أن نقرأ أي كتاب ديني. والإرهاب مثلاً، منتشر بأشكال كثيرة في العالم بين طوائف جميع الديانات، وقد عشت في أفريقيا لفترة طويلة وأعلم أن هناك طوائف نصرانية في أفريقيا وفي جميع أنحاء العالم تقتل وتمارس أبشع أنواع القمع والعنف باسم الدين وباسم الله، وهم يشكلون ٤٪ من تعداد نصارى العالم. بينما من يمارس الإرهاب باسم الإسلام يشكلون ٠.١ ٪، من تعداد المسلمين، وليس هذا فحسب، بل الإرهاب منتشر أيضاً بين طوائف البوذية والهندوسية وغيرها من الديانات الأخرى.

لكن تسليط الضوء بوسائل الإعلام على الأمثلة السيئة من المسلمين والجيدة من غير المسلمين، وإلقاء لقب إرهابي على المسلم الذي يقتل غيره، ولقب مريضاً نفسياً على غير المسلم الذي يقتل الغير، هذا ما لا نقبله أبداً.

وهذا ما قلته لصحفي فرنسي أثناء حوارٍ معه بهذا الخصوص، قلت له: أنتم في الإعلام تلعبون دوراً خطيراً في تشويه صورة الإسلام من خلال حرصكم المتواصل على نقل أخبار هذه الأمثلة السيئة من المسلمين.

فقال: عذراً، نحن لا ننقل إلا الحقيقة ولا ننقل الأخبار الزائفة.
قلت له: أنا لا أدعي أن أخباركم زائفة، أنا أقول: إنكم حين تخصصون زاويةً في مجلاتكم الإخبارية للحديث عن الأمثلة السيئة من المسلمين، عليكم أيضاً أن تخصصوا زاوية أخرى للحديث عن غيرهم، وعندما تُلقبوا القاتل المسلم بالإرهابي، فعليكم أن تُلقبوا القاتل غير المسلم بالإرهابي أيضاً.
قال: كلامك فيه كثير من الصحة.

فأقيم وجهك للدين القيم:

"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" ١٣٥.

"وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ الْيَمِينُ وَالْمِيزَانُ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" ١٣٦.

إن الدين هو: مجموعة العلاقات والأخلاقيات والقيم التي تربط الإنسان بخالقه وبالجمتمع من حوله.

أولاً: جزء يختص بالعلاقة مع رب العالمين.

ثانياً: جزء يختص بتنظيم العلاقات الإنسانية.

تُشدّد الوصايا في الآيات الكريمة أعلاه على المحافظة على الحقوق، وعلى رأسها حق رب العالمين في إخلاص العبودية له، وهي النقطة التي تغطي العلاقة بين الإنسان وخالقه.

١٣٥ (الأنعام: ١٥١).

١٣٦ (الأنعام: ١٥٢).

ومن ثم حق الوالدين بالإحسان لهما، ومن ثم حق الأولاد في الحصول على حياة كريمة، والنهي عن اقتراف الفواحش أو حتى الاقتراب منها، وعدم قتل النفس البشرية بغير حق والمحافظة على مال اليتيم والقسط في الوزن والمكيال، والعدل عند القول والفعل، والوفاء بالعهد وعلى رأسها العهد مع رب العالمين. ورغم وجود هذه الوصايا في الديانات الأخرى المنتشرة في العالم، إلا أنه من العجيب أنني قد وجدت من خلال حواراتي مع غير المسلمين أنهم يتذكرون كل الوصايا إلا الوصية الأولى، فعندما أطلب منهم سردها لي فإنهم غالبًا ما يبدؤون من الثالثة، ويعللون ذلك بأنهم دائماً ما ينسون الوصية الأولى والوصية الثانية، واللاقي تنصان على أهمية الإيمان بالله وعبادته وحده وعدم الشرك به. وهذا دليل على تجاهل هاتين الوصيتين بصورة متعمدة من قبل رجال الدين والمؤسسات الدينية لكسب فوائد دنيوية وسياسية.

أما فيما يتعلق بطبيعة باقي الوصايا والقوانين الأخلاقية العالمية للدين، فيمكن إيجازها على النحو التالي:

إن مجموعة المبادئ التوجيهية الأخلاقية والتي تقيد السلوك البشري يمكن الإشارة إليها بالضمير الداخلي للإنسان أو الحاكم أو الرقيب الإنساني، ويتم تعزيز هذا الضمير أو الرقيب من خلال التربية والتعليم، ويتم تغذيته بالمعلومات والثقافة من البيئة المحيطة بالإنسان.

وهذه المبادئ فطرية معنوية لا تُشرح ولا تُفسّر للناس، ولا ينبغي فرضها بالقوة، لأنها جزء من التصرف الفطري للإنسان، وبالتالي فإن الناس مدركون لهذه القيم الأخلاقية بشكل طبيعي وغريزي. فمثلاً الصدق والأمانة هي صفات وفضائل طبيعية، بينما الاحتيال والخداع صفات منبوذة بطبيعتها، ويمكن للمرء بسهولة

انتهاك أو تجاوز هذه القواعد والأوامر الأخلاقية لأنها ليست مادية ملموسة، لذلك كان على المجتمع المتحضر أن يضع قواعد اجتماعية يتم المحاسبة عليها من خلال نظام المكافأة والعقوبة، وأي شخص يحاول تفويض هذه القيم يجب أن يُحاسب ويُحاکم.

هذه المبادئ الأخلاقية عبارة عن التزامات اجتماعية لا يمكن الاختلاف عليها، أو أن تصبح موضوع استفتاء عام. إنها حقائق اجتماعية لا غنى للمجتمع عنها في محتواها ومعناها، فدائمًا مثلاً ما يُنظر إلى عدم احترام الوالدين أو الكذب على أنه سلوك بغیض، ولا يمكن تبريره على أنه صدق أو احترام.

إن تثبيت وإرساء هذه القيم الأخلاقية كمعايير اجتماعية لا يعني عدم وجود الفجور والشر في هذا العالم. إن الدين واقعي وعملي ولا يوجد فيه أوهام ولا يفترض المثالية، إنه يُقر بوجود الخير والشر كما ويُقر بوجود الحياة والموت.

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُغُونَ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" ١٣٧.

جميع هذه المبادئ التوجيهية والأخلاقية مترابطة بشكل قوي وتشكل شبكة كلية من الروابط والصلات لا تسمح بالتفكك أو الانقسام، لأنها تمثل مساراً مستقيماً واحداً لا يمكن تجزئته.

"وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" ١٣٨.

إن الالتزام بهذه المبادئ الأخلاقية لا يتطلب قوة أو مهارة من الفرد. إن الإيمان بالخالق واتباع الوصايا الأخلاقية لا يتطلب ذكاءً حاداً، ولا قدرات خاصة، ولا يحتاج المرء أن يكون موهوباً أو مبدعاً بشكل استثنائي حتى يعرف أن قتل

١٣٧ (الأنبياء: ٣٥).

١٣٨ (الأنعام: ١٥٣).

الآخرين هو تصرف خاطئ، والنفور من هذه الخصلة متأصل في الطبيعة البشرية. إن أركان الإسلام ووصاياه لا تحتل التأويل أو أنصاف الحلول.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ" ١٣٩.

يمكن اعتبار الأخلاق على أنها قانون روحي اجتماعي يُرسي أساس العلاقة بين أعضاء الجنس البشري، ولا شك أنه يُميّز البشر عن الحيوانات، وهو ساري المفعول بغض النظر عن الهيكل الاقتصادي في المجتمع.

تتميز أخلاق الدين بصلاحياتها على المستوى العالمي، هذه الأخلاق تختلف عن العادات والتقاليد (العُرف). فالأحكام والأخلاقيات والقيم عبارة عن قواعد دقيقة وقوانين ثابتة ومحددة، وهي موجودة منذ عهد نوح وحتى آخر الرسل محمد عليهم الصلاة والسلام على شكل وصايا وهي صالحة لكل زمان ومكان، وتتقاسمها العديد من الثقافات المختلفة في العالم، ويتم التقيد بها بغض النظر عن طبيعة النظام الاقتصادي أو البيئة الاجتماعية.

وُعتبر القاسم الإنساني المشترك الذي يوحد الثقافات والأنظمة السياسية، ويوحد العرق والطبقة والجنس. إنها تؤثر بشكل مباشر على السلوك الاجتماعي للفرد عند إضفاء الطابع التشريعي والقانوني عليها كمواد دستورية أو قوانين محلية. كما يجدر الإشارة هنا أن الديانات دعت أيضاً للأخذ بالعُرف (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وهو احترام التقاليد والعادات للمجتمع التي لا تتنافى مع القيم والأخلاق العامة. وهو ما اعتاد عليه أغلب الناس أو طائفة منهم وساروا عليه من قول أو فعل، مما لا يخالف شريعة الدين القيم.

"... وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ" ^{١٤٠}.

سألني ملحدٌ يومًا عن أهمية الالتزام بالأخلاق العالمية تحت مظلة الدين، والذي كان برأيه الاكتفاء بمعاملة الناس بعضهم بعضًا بخُلُقٍ حسن دون الإيمان بالله ما دام الغرض من الحياة هو تعمير الأرض، وأنه يوجد كثير من الملحدين ملتزمون تمامًا بالأخلاق الحميدة، ويسعون جاهدين لعمارة الأرض.

قلت له: إن تعمير الأرض والخُلُق الحسن ليسا الغاية للدين، لكنهما في الحقيقة وسيلة! فغاية الدين أن يُعرّف الإنسان برّبّه ثم بمصدر وجود هذا الإنسان وطريقه ومصيره، ولا يتحقق حسن النهاية والمصير إلا بالحصول على رضا رب العالمين، والسبيل إلى ذلك يكون بتعمير الأرض والخُلُق الحسن بشرط أن تكون أفعال العبد ابتغاءً لمرضاته تعالى.

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" ^{١٤١}.

نستنتج مما سبق أن الدين القيم هو: الإيمان بأن للكون خالق واحد، وهو الله الواحد الأحد، ودين الله يجب أن يكون واحد، سهل، مفهوم وبسيط، موافق للفترة البشرية، وصالح لكل زمان ومكان. وهو: الوحدانية: الإيمان بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد، وأنه هو الخالق والرازق للكون كله وما يحتويه.

العبودية: عبادة الله وحده وعدم الاشراف في عبادته أحدًا أو شيئًا آخر.

^{١٤٠} (النحل: ٨٩).

^{١٤١} (الكهف: ١١٠).

الإيمان بالرسول: اتباع الرسل والإيمان بما جاءوا به (في تلك الفترة). (البشارة
 بقدوم النبي محمد، والحث على إتباعه والإيمان به لمن سمع عنه).^{١٤٢}
 الأخلاق: فعل الخيرات واجتناب السيئات.
 "قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَدِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ"^{١٤٣}.

^{١٤٢} www.fatensabri.com كتاب المفهوم الحقيقي للإله، فaten صبري.

^{١٤٣} (الأنعام: ١٦١).

وكذلك جعلناكم أمة وسطا

ولا تنس نصيبك من الدنيا:

في زيارة لنا لدولة الصين، قمنا بزيارة لحديقة "نافذة على العالم"، وهي عبارة عن حديقة عامة تمتد على مساحات شاسعة، وتضم مجسمات متراصة في توزيع متنن لأبرز مزارات العالم، حيث نجد في ركن من الحديقة مثلاً مجسماً لبرج "إيفل"، وعلى مقربة منه نجد نموذجاً لساعة "بيغ بن" أيقونة لندن، وفي جانب آخر من الحديقة مجسماً آخرًا لأهرامات مصر، وفي جزء آخر نجد مسقطاً مائياً هائلاً تنهمر مياهه محاكيةً "شلالات نياجرا" الأمريكية. وتعطي هذه الزيارة الفرصة لتذوق أكل الطعام اللاتيني مثلاً ولبس أزياء شرق آسيا ومعايشة التقاليد الأفريقية. موقع يأخذ بالألباب ويعطي الفرصة لاكتشاف العالم بأسره.

ووسط ذهولي وفرحة أبنائي، وقيام زوجي بالتقاط الصور التذكارية، تذكرت سؤالاً كنت أردده كثيراً في صغري، وهو عن إمكانية تحقيق التوازن بين التعرف على ثقافات وحضارات العالم وتحقيق متع الدنيا والحرص على الفوز في الآخرة في الوقت نفسه. وحينها تذكرت الآية الكريمة، "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" ^{١٤٤}، وسعدت كثيراً.

أمة وسطاً:

الفيلسوف النمساوي ليو بولد فايس - الذي ترك اليهودية واعتنق الإسلام وغير اسمه لمحمد أسد - قال في كتابه "الإسلام على مفترق الطرق":

^{١٤٤} (القصص: ٧٧).

"إن سفرنا في هذا العالم أمر ضروري وجزء إيجابي من سنة الله، من أجل ذلك كان لحياة الإنسان قيمة عظيمة، ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط، وليس هنالك مجال في الإسلام لتعظيم الجانب المادي كما هو في الغرب الحديث الذي يقول: مملكتي في هذا العالم فقط، ولا احتقار الحياة الذي يجري على لسان النصرانية: إن مملكتي ليست في هذا العالم. إن الإسلام يتخير في ذلك طريقًا وسطًا، ولذلك يعلمنا القرآن أن ندعو فنقول **"رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً"**^{١٤٥}، وهكذا نرى أن قدر هذا العالم وما فيه من متاع لا يقف حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية. إن النجاح المادي مرغوب فيه، ولكنه ليس غاية في نفسه، فعلى كل مسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه مسؤول شخصيًا عن نشر السعادة حوله، وأن يسعى إلى إقرار الحق وإزهاق الباطل في كل زمان ومكان، ومصداق ذلك الآية: **"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"**^{١٤٦}.

وقال الفيلسوف النمساوي بما معناه أيضًا:

"إن الحرص على انتشار الإسلام لم يحث عليه حب السيطرة، وليس فيه شيء من الأنانية الاقتصادية أو القومية، ولا الطمع في زيادة أسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر. ولم يُقصد منه في يوم من الأيام إكراه غير المؤمنين على الدخول في الإسلام، لقد قُصد به دائمًا ما يُقصد به اليوم من بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن من التطور الروحي للإنسان، إن المعرفة بالفضائل - حسب تعاليم الإسلام - تفرض على الإنسان من تلقاء نفسه العمل

^{١٤٥} (البقرة: ٢٠١).

^{١٤٦} (آل عمران: ١١٠).

بالفضائل، وأما الفصل الأفلاطوني بين الخير والشر من غير الحث على زيادة الخير ومحو الشر فإنه فسق عظيم".

إن من أحد الأسباب التي تدعو الناس للنفور من الدين واللجوء إلى الأخذ بالعلم التجريبي وحده هو وجود تناقضات في بعض المفاهيم الدينية عند بعض الشعوب، لذلك فإنه من أهم السمات والأسباب الرئيسة التي تدعو الناس إلى الإقبال على الدين الصحيح هو وسطيته وتوازنه. وهذا ما نجده بوضوح في الدين الإسلامي.

إن مشكلة الديانات الأخرى والتي نشأت من تحريف الدين الصحيح الواحد إما أن تكون:

- روحية صرفه، وتشجع أتباعها على الرهبانية والانعزال.
- مادية بحتة.

وهذا ما تسبب في صرف كثير من الناس عن الدين عمومًا في كثير من الشعوب وأصحاب الملل السابقة.

لا تغلوا في دينكم:

إن التطرف، التشدد والتعصب، ما هي إلا صفات قد نهي عنها الدين الصحيح أساسًا. وقد دعا القرآن الكريم في آيات كثيرة للأخذ باللطف والرحمة في التعامل والأخذ بمبدأ العفو والتسامح.

" قِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ قَطًّا عَلَیْكَ الْقَلْبُ لَا تَهْزُؤْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " ١٤٧ .

١٤٧ (آل عمران: ١٥٩).

"اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" ١٤٨.

الأصل في الدين هو الحلال باستثناء بعض المحرمات المعدودات التي ذكرت بوضوح في القرآن الكريم والتي لا يختلف عليها أحد.

"يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (٣١)
 قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَهْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَعَثَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بَغْيَ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ١٤٩.

إن ما يدعو إلى التطرف والتشدد أو التحريم بغير دليل شرعي نسبة الدين إلى أفعال شيطانية، والدين منها برئ.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالشُّعْوَ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ١٥٠.

"وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مُنِيرَتُهُمْ وَلَا مَنِيَّتُهُمْ فَلْيَتَّكِفُوا آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَنِيَّتُهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَخْذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاءً مُبِينًا" ١٥١.

يريد الله بكم اليسر:

إن الدين في الأصل يأتي ليخفف عن الناس كثيراً من القيود التي يفرضونها على أنفسهم. ففي الجاهلية وقبل الإسلام على سبيل المثال، كانت قد انتشرت ممارسات بغیضة كوأد البنات وتحليل أنواع من الطعام للذكور وتحريمها على

١٤٨ (النحل: ١٢٥).

١٤٩ (الأعراف: ٣١-٣٣).

١٥٠ (البقرة: ١٦٨-١٦٩).

١٥١ (النساء: ١١٩).

الإناث، وحرمان الإناث من الميراث، إضافة إلى أكل الميتة والزنا وشرب الخمر وأكل مال اليتيم والرِّبا وغيرها من الفواحش.

كما نجد عند بعض الشعوب الأخرى كثيرًا من التشريعات والأحكام والممارسات الخاطئة، والتي تُنسب إلى الدين كذريعة لإجبار الناس عليها والتي انحرفت بهم عن طريق الصواب وعن مفهوم الدين الفطري، وبالتالي فقد كثير من الناس القدرة على التمييز بين المفهوم الحقيقي للدين والذي يُلبّي الحاجات الفطرية للإنسان والتي لا يختلف عليها أحد، وبين القوانين الوضعية والتقاليد والعادات والممارسات الموروثة من قبل الشعوب، مما أدى لاحقًا إلى المطالبة باستبدال الدين بالعلم التجريبي.

إن الدين الصحيح هو الذي يأتي للتخفيف عن الناس ورفع المعاناة عنهم، وليصنع الأحكام والتشريعات التي تهدف بالدرجة الأولى التيسير على الناس.

"...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ..."^{١٥٢}.

"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا"^{١٥٣}.

"...وَلَا تَثْقُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"^{١٥٤}.

"...وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"^{١٥٥}.

"...وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..."^{١٥٦}.

^{١٥٢} (البقرة: ١٨٥).

^{١٥٣} (النساء: ٢٨).

^{١٥٤} (النساء: ٢٩).

^{١٥٥} (البقرة: ١٩٥).

^{١٥٦} (الأعراف: ١٥٧).

وقوله عليه الصلاة والسلام:

"يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا" ١٥٧.

وأذكر هنا قصة الثلاثة رجال الذين كانوا يتحدثون فيما بينهم، حيث قال أحدهم: أما أنا فلإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال:

"أَتُمِ الدِّينَ قَائِمٌ كَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَأُ لِلَّهِ وَأَتَقَاتُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" ١٥٨.

وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لعبد الله بن عمرو وقد بلغه أنه يقوم الليل كله، ويصوم الدهر كله، ويحتم القرآن في كل ليلة فقال:

"فَلَا تَفْعَلْ، ثُمَّ وَتُمْ، وَضُمُّ وَأَفْطِرُ، فَإِنَّ لِحَسْبِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرُؤُوكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرُؤُوجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا" ١٥٩.

يقول الفيلسوف محمد أسد النمساوي أيضاً:

"نحن نعدُّ الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية؛ لأنه يشمل الحياة بأسرها، إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة، حيث لا شقاق ولا عدا بين الرأي وبين العمل، إنه ليس سبيلاً بين السبل، ولكنه السبيل. وإن الرجل الذي جاء بمذاهب التعاليم ليس هادياً من الهداة، ولكنه الهادي، فاتباعه في كل ما فعل وما أمر هو اتباع للإسلام بعينه، وأما طرح سنته فهو طرح لحقيقة

١٥٧ (صحيح البخاري).

١٥٨ (صحيح البخاري).

١٥٩ (صحيح البخاري).

الإسلام. ويقول أيضاً: ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيق اتجاهه الروحي دقيقة واحدة، وهذا يختلف كثيراً عن وجهة النظر النصرانية".

التوازن في إعطاء الحقوق:

وأذكر هنا حوار طريف لي مع زائرة لاتينية كانت قد سألتني قائلة: هل بمقدور المرأة المسلمة أن ترتدي أقراط في أذنيها كبقية النساء. وقد أضحكتني بشدة هذا السؤال وقلت لها: المرأة المسلمة من البشر ولا تختلف عن نساءكم، لكنها فطنة، وتستطيع أن تميز بين الحقوق والواجبات وإعطاء الأوليات، وعمل التوازن في تطبيق هذه المصطلحات بصورة مذهلة، والتي قد عجزت المرأة اللاتينية والغربية عن القيام به.

قالت: ماذا تقصدين؟

قلت لها: المرأة المسلمة فهمت مصطلح "الخصوصية" جيداً، فعندما أحبت أبيها وأخيها وابنها وزوجها، فهمت أن حب كلاً منهم له خصوصية، فحبها لزوجها وحبها لأبيها أو أخيها يتطلب منها إعطاء كل ذي حق حقه. فحق والدها عليها من الاحترام والبر ليس كحق ابنها من الرعاية والتربية وهكذا. فهي تفهم جيداً متى وكيف ولمن تُبدي زينتها، فهي لا ترتدي في لقاءها مع الغرب كما ترتدي مع القريب، ولا تظهر بنفس الهيئة للجميع.

قلت أيضاً: المرأة المسلمة هي امرأة حرة، رفضت أن تكون أسيرة لأهواء غيرها وللموضة، ترتدي ما تراه مناسب لها ويُسعدُها هي، ويُرضي خالقها، انظري كيف أصبحت المرأة في الغرب أسيرة للموضة ودور الأزياء، إن قالوا مثلاً: إن

الموضة هذا العام هي لبس البنطال القصير الضيق، أسرع المرأة لارتدائه، بغض النظر عن ملاءمته لها أو حتى شعورها بالراحة عند ارتدائه من عدمه. قلت لها مسترسلة: إنه لا يخفك وضعها عندما تحولت إلى سلعة، ويكاد لا يخلو إعلان أو منشور من صورة امرأة عارية، مما يعطي رسالة غير مباشرة للمرأة الغربية بقيمتها في هذا العصر.

إن بإخفاء المرأة المسلمة لزيبتها تكون هي التي قد أرسلت رسالة للعالم، وهي: أنها إنسانة ذي قيمة، مُكرّمة من الله، ويجب على من يتعامل معها أن يحكم على علمها، ثقافتها، قناعاتها وأفكارها، ليس على مفاتن جسمها. قالت: عجيب! هذا يُدعى لدينا بالإتيكيت.

قلت لها: نعم، والمرأة المسلمة فهمت أيضًا الطبيعة البشرية التي خلق الله الناس عليها، فهي لا تُظهر زيتها للغرباء لحماية المجتمع وحماية نفسها من الأذى، ولا أظنك تنكرين حقيقة أن كل فتاة جميلة مفتخرة بإظهار مفاتنها للعلن عندما تصل لسن الشيخوخة تتمنى لو أن كل نساء العالم ارتدين الحجاب.

قالت: هذا صحيح ١٠٠٪.

قلت لها متسائلة: هل قرأتِ عن إحصائيات معدلات الوفاة والتشويه الناجمة عن عمليات التجميل؟ ما الذي دفع المرأة لأن تُقاسي كل هذا العذاب؟ لأنهم أجبروها على خوض مسابقة الجمال الجسدي عوضًا عن الجمال الفكري، مما أخسرها قيمتها الحقيقية بل وحياتها أيضًا.

قالت: جميل جدًا، هذه فلسفة عجيبة لم أسمع عنها من قبل.

وقالت: حسنًا، وهل حقق الإسلام للمرأة المساواة مع الرجل؟

قلت لها: المرأة المسلمة تبحث عن العدالة ولا تبحث عن المساواة، فمساواتها بالرجل تُفقدتها كثيراً من حقوقها وتميزها.

قالت: عجيب! وكيف ذلك؟

قلت لها: لنفترض أن لديك ابنان، أحدهما يبلغ من العمر خمسة أعوام والآخر ثمانية عشر عاماً. وأردت شراء قميص لكلٍ منها، فالمساواة هنا تتحقق في أن تشتري لهما القميصين بنفس المقاس، مما يتسبب في معاناة أحدهما، لكن العدالة أن تشتري لكل واحد منهما مقاسه المناسب، وبالتالي تتحقق السعادة للجميع.

قلت لها مستطردة: تحاول المرأة في هذا الزمن إثبات أنه بإمكانها أن تفعل كل ما يفعله الرجل. غير أنه في الواقع، المرأة تفقد تفرداها وامتيازها في هذه الحالة. فإن الله خلقها لتقوم بما لا يمكن أن يقوم به الرجل. لقد ثبت أن آلام الوضع والإنجاب من أكثر الآلام شدة، وجاء الدين ليعطي المرأة التكريم المطلوب مقابل هذا التعب، ويعطيها الحق بعدم تحملها لمسؤولية النفقة والعمل، أو حتى أن يتقاسم زوجها معها مآلها الخاص كما هو الحال لديكم. وفي حين لم يُعطِ الله الرجل القوة على تحمل آلام الولادة، لكن أعطاه القدرة على صعود الجبال مثلاً.

قالت: لكنني أحب أن أصعد الجبال، وأستطيع فعل ذلك كالرجل تماماً.

قلت لها: حسناً، بإمكانك أن تصعدي الجبال كالرجل وتعملي وتكدي، لكن في النهاية أنت من سيضع الأطفال أيضاً، ويقوم برعايتهم وإرضاعهم، فالرجل في كل الأحوال لا يستطيع القيام بهذا، وهذا مجهود مضاعف عليكِ كان بإمكانك تفاديته.

ما لا يعرفه الكثيرون، هو أنه إذا أرادت امرأة مسلمة المطالبة بحقوقها من خلال الأمم المتحدة، والتنازل عن حقوقها في الإسلام، فستكون خسارة لها، لأنها تتمتع بحقوق أكثر في الإسلام. فالإسلام يحقق التكامل الذي تُخلق من أجله الرجل والمرأة مما يوفر السعادة للجميع.

إحسان الحضارة الإسلامية:

أخبرتني يوماً زائرة من دولة كولومبيا وزميلتها في العمل عن رغبتهما الشديدة بعبادة الله وحده، لكنهما لا تستطيعان التخلص من رغبتيهما في ذكر السيدة مريم أم المسيح في الدعاء، حيث أنهما لا تريدان بحس حق السيدة مريم عليهما. قلت لهما: المسلم يستطيع تحقيق التوازن في عبادته دون أن يبخس النبي أو أم النبي حقهما.

قالتا: كيف؟

قلت لهما: المسلم أحب خالقه وأعطاه حقه في عبادته وحده، ومحبة المسلم للرسول تكون باتباع المنهج الذي جاء به الرسول من عند الله، وهو عبادة الخالق كما فعل الرسول وليس عبادة الرسول نفسه.

قلت لهما متسائلة: ما هي العبارات التي تستخدمانها في الدعاء إلى الله والتي تشتمل على اسم السيدة مريم ولا تستطيعان التخلص من الرغبة في استخدامها؟

قالت الزائرة الأولى: الله يبارك في مريم.

قلت لها: هذا صحيح وسليم، فإننا نقول صلى الله على النبي محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام، والسيدة مريم أم المسيح كذلك. قالت الأخرى: نقول أيضاً، يا مريم باركيني وساعديني.

قلت لها: هذا غير صحيح.

قالتا: وما الفرق؟

قلت لهما: في الدعاء الأول طلب للسيدة مريم وفي الثاني طلب منها، ولا يحق الطلب إلا من الله. فباستطاعتكما التمسك في الصيغة الأولى للدعاء، ولكن عليكم التوقف عن استخدام الصيغة الثانية.

ابتهجتا الزائرتين كثيرًا، لأنهما وجدتا أن عبادتهما لله مباشرة لن تجعلهما تتركان ذكر السيدة مريم. وطلبتا اعتناق الإسلام مباشرةً.

إننا نجد أن كثيرًا من الأمم والحضارات فشلت في تحقيق هذا التوازن، فبينما رفعت أمة المسيح عليه السلام قدره وأمه الصديقة مريم إلى درجة الألوهية، كان قد رفض قوم موسى عليه السلام الاعتراف بالمسيح كرَسُول، فجاء المسلم وحقق التوازن المطلوب، وآمن بموسى والمسيح واحترمهم وقَدَّرهم، وذلك بتصديق رسالتهم الصحيحة وعبادة الله كما عبد جميع الأنبياء الله.

إن الحضارة الإسلامية قد أحسنت التعامل مع خالقها، ووضعت العلاقة بين الخالق ومخلوقاته في المكان الصحيح، في الوقت الذي أساءت فيه الحضارات البشرية الأخرى التعامل مع الله، فقد كفرت به وأشركت معه مخلوقاته في الإيمان والعبادة، وأنزلته منازل لا تتلاءم مع جلاله وقدره.

والمسلم الحق لا يخلط بين الحضارة والمدنية، فينهج منهج الوسطية في تحديد كيفية التعامل مع الأفكار والعلوم، والتمييز بين:

- العنصر الحضاري: المتمثل بالشواهد العقائدية، العقلية، الفكرية، والقيم السلوكية والأخلاقية.

● العنصر المدني: المتمثل في الإنجازات العلمية، والاكتشافات المادية، والمخترعات الصناعية.

فإنه يأخذ من هذه العلوم والاختراعات في إطار مفاهيمه الإيمانية والسلوكية. فالحضارة اليونانية آمنت بوجود الله، ولكنها أنكرت صفة الوحدانية له، ووصفته بأنه لا ينفع ولا يضر.

والحضارة الرومانية تنكرت للخالق بدايةً وأشركت به عند اعتناقها النصرانية، حيث دخلت عقائدها مظاهر الوثنية، من عبادة الأوثان ومظاهر القوة. والحضارة الفارسية قبل الإسلام كفرت بالله وعبدت الشمس من دونه وسجدت للنار وقُدَّستها.

والحضارة الهندوسية تركت عبادة الخالق وتعبد الإله المخلوق والمتمثل بالثالوث المقدس، والمتكون من ثلاث صور إلهية: الإله " براهما " في صورة الخالق، والإله " فشنو " في صورة الحافظ، والإله " سيفا " في صورة الهادم.

والحضارة البوذية تنكرت للإله الخالق وجعلت من بوذا المخلوق إلهًا لها. وحضارة الصابئين كانوا من أهل الكتاب وتنكروا لرهبهم، وعبدوا الكواكب والنجوم. باستثناء بعض الطوائف الموحدة المسلمة التي ذكرها القرآن الكريم. ومع بلوغ الحضارة الفرعونية درجة كبيرة من التوحيد والتنزيه للإله في عهد أخناتون، إلا أنها لم تتخل عن صور التجسيم والتشبيه للإله ببعض مخلوقاته كالشمس وغيرها، فكانت رمزًا للإله لديهم. وقد بلغ الكفر بالله ذروته عندما ادعى فرعون في زمن موسى الألوهية من دون الله، وجعل من نفسه المشرع الأول.

وحضارة العرب تركت عبادة الخالق وعبدت الأصنام.

والحضارة النصرانية كما ذكرنا أنكرت وحدانية الله المطلقة، وأشركت به المسيح وأمه مريم، وتبنت عقيدة التثليث، وهي الإيمان بإله واحد متجسد في ثلاثة أقانيم (الآب، الابن، الروح القدس).

والحضارة اليهودية تنكرت لخالقها، واختارت إلهًا خاصًا بها، وعبدت العجل، ووصفوا الإله في كتبهم بصفات بشرية غير لائقة به.

وكانت قد اضمحلت الحضارات السابقة، وتحولت الحضارة اليهودية والنصرانية إلى حضارتين لا دينيتين، وهما الرأسمالية والشيوعية. ووفقًا لأساليب تعامل هاتين الحضارتين مع الله والحياة عقائديًا وفكريًا فإنهما متخلفتين وغير متقدمتين، ويتسمان بالوحشية وغير الأخلاقية، مع وصولهما الذروة في التقدم المدني، العلمي والصناعي، وليس بهذا يقاس تقدم الحضارات.

إن معيار التقدم الحضاري السليم يستند إلى شواهد العقلية، والفكرة الصحيحة عن الله، الإنسان، الكون والحياة. والتحضر الصحيح الراقي هو الذي يُوصل إلى المفاهيم الصحيحة عن الله وعلاقته بمخلوقاته ومعرفة مصدر وجوده ومآله، ويضع هذه العلاقة في مكانها الصحيح، وبالتالي نصل إلى أن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة المتقدمة بين هذه الحضارات، لأنها ببساطة حققت التوازن المطلوب^{١٦٠}.

الإسلام دين ودولة:

لقد رسمت الرأسمالية منهجًا حرًا للإنسان ودعته للسير على هديه، حيث ادعت الرأسمالية أن هذا المنهج المنفتح هو الذي سيوصل الإنسان للسعادة

^{١٦٠} كتاب إساءة الرأسمالية والشيوعية إلى الله. الأستاذ الدكتور غازي عناية.

الخالصة، لكن الإنسان وجد نفسه في نهاية المطاف يقبع في مجتمع طبقي، فإما غناً فاحشاً يقوم على الظلم للغير، أو فقراً مُدَقَّعاً للملتزم أخلاقياً. وجاءت الشيوعية فألغت كل الطبقات، وحاولت أن ترسم مبادئ أكثر صلابة، لكنها خلقت مجتمعات أكثر فقراً وألماً، وأكثر ثورية من غيرها.

وأما الإسلام فقد حقق الوسطية بين ذلك كله، وكانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط، فقدمت للإنسانية نظاماً عظيمًا بشهادة أعداء الإسلام. لكن هناك من المسلمين من قصَّروا في الالتزام بقيم الإسلام العظيمة.

وكان قد سألتني يوماً دبلوماسيٌّ فرنسي عما اعتبره تناقضاً. حيث قال:

أنا لا أفهم كيف يكون الدين الإسلامي حسب وصفك لي بهذه المنطقية، في حين يخوض كثير من المسلمين في هذه العشوائية وقد ابتعدوا عن النظام والأخلاق، أليس هذا تناقض؟

قلت له: وأين التناقض هنا؟ وهل ارتكاب سائق سيارتك الفخمة حادث مُرَوِّع لجهله بأصول القيادة السليمة يناقض حقيقة فخامة السيارة؟

فعلَّق فوراً مرافقه الخاص وقد كان فرنسيًّا من أصول عربية قائلاً: فعلاً المسلم الفاشل لا يمثل إلا نفسه. وقد تحدث الكثيرون عندما وجدوا أخلاق الإسلام تُمارَس من قبل غير المسلمين، حيث قالوا: وجدنا الإسلام ولم نجد المسلمين.

المستشرق والباحث الألماني في الدراسات العربية والإسلامية "شاخت

جوزيف"، وعلى الرغم من تطرفه في بعض آرائه، إلا أنه لم يستطع إلا القول بالحق في تقييمه للدين الإسلامي، فكان مما قال:

"تميز الإسلام بأنه دين ودولة، وتميزت الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بتأثيره بقوة في الثقافات القانونية التي جاوزته، وكانت سلطتها فوق سلطة

الدولة. إن النزاع بين الدين والدولة اتخذ أشكالاً مختلفة، ففي المسيحية (النصرانية) كان هناك صراع من أجل السلطة السياسية من جانب هيئة كنسية منظمة تنظيمًا متدرجًا و متماسكًا ينتهي إلى رئاسة عليا، كان يعتبر القانون الكنسي أحد أسلحتها السياسية. أما في الإسلام، فلم يكن هناك قط ما يشبه "الكنسية". فالشريعة الإسلامية لم تستند مطلقًا إلى تأييد قوة منظمة، وعلى ذلك فلم ينشأ قط في الإسلام اختبار حقيقي للقوى بين الدين والدولة، وظل المبدأ القائل بأن الإسلام هو دين ينبغي أن ينظم الناحية القانونية في حياة المسلمين، قائمًا لا يتحده أحد".

ومن بعض الآراء للمستشرق "شاخت":

"إن من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الديني الذي يسمى "الشريعة"، والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون. إن الشريعة الإسلامية هي أبرز ما يُميّز أسلوب الحياة الإسلامية، وتفردة يعود لنظرتها لجميع أفعال البشر وعلاقاتهم ببعضهم البعض، بما في ذلك ما نعتبره قانوناً على أساس المفاهيم التالية: الواجب والمندوب والمتروك والمكروه والمحظور". ويقول "شاخت":

"لقد أثر التشريع الإسلامي تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون عند أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى، والذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية. فاليهودي موسى بن ميمون (٦٠١هـ — ١٢٠٤م) قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته (مشنة تورا)، وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من اليهود، ولم يتردد اليعاقبة

والمونوفيزية في النصرانية^{١٦١} - أصحاب الطبيعة الواحدة - والنسطوريون^{١٦٢} في الاقتباس من قواعد التشريع الإسلامي^{١٦٣}.

وقال المؤرخ الهولندي رينهاردت دوزي في كتابه "نظرات في تاريخ الإسلام":
 "لقد كان غالبية النصارى في الشرق ينتمون إلى مذاهب متعددة، كانت قد لقيت من اضطهاد حكومة القسطنطينية وإعناقتها ما أرق أصحابها إرهاباً، فلما جاء الإسلام - ومن طبيعته التسامح والإخاء - ترك لهم الحرية التامة في البقاء على دينهم، وظلّ لهم بحمايتهم، وسأوى بينهم في الحقوق على اختلاف مذاهبهم، وبما أنهم كانوا مضطرين إلى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الروماني، فقد أعفاهم الإسلام منها، ولم يفرض عليهم إلا جزية معتدلة لا تُرهق أحداً".
 الدولة في الإسلام ليست دولة "دينية" بالمعنى المفهوم في الفكر الغربي سابقاً، بل إن في المفهوم الإسلامي نزع لكل عصمة أو قداسة لفعل البشر، وهي دولة واجبتها الرئيس خدمة مصالح الناس. إن الانطلاق من المرجعية الإسلامية للدولة لا ينافي إطلاقاً مفهوم الدولة المدنية أو مفاهيم الحداثة، بل يجب أن يكون سبيلاً للاعتزاز بهويتنا ومكانتنا الحضارية والتاريخية.

في حوار مع أحد العلمانيين الفرنسيين يوماً كان قد سألتني قائلاً: لماذا لا يُفصل الدين عن الدولة، وتكون المرجعيات في المجتمع لرأي الإنسان ووجهة نظره فقط كما هو الحال في الدول الغربية؟ والأخذ بالفصل التام للدين عن الدولة وحياة الناس وسلوكهم، كما في التجربة الفرنسية مثلاً.

^{١٦١} نسبته للمطران السرياني يعقوب البرادعي عن النصرانيين الذين يتفقون للكنائس الميافيزية المصرية (الكنيسة القبطية الأرثوذكسية).

^{١٦٢} المعتقد الديني النصراني الراض لجميع أفسس المعقود سنة ٤٣١ م. يُعرف داعمو كيرلس الأول النسطورية بأنها العقيدة الثنائية بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنها بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع.

^{١٦٣} <https://www.islamweb.net/ar/article/193333> المستشرقون يؤكدون الإسلام دين ودولة.

قلت له مبتسمة: تقصد مرجعيات تعود لأهواء الإنسان ورغباته وتقلبات مزاجه! نحن في الواقع بحاجة إلى شريعة ربانية ثابتة، تناسب الإنسان في كل أحواله، ولا تتغير بحسب الأهواء، كما فعلوا في تحليل الرِّبَا والمثلية، ولا تُكتب من قبل الأقوياء لتكون ثِقلاً على المستضعفين كما في النظام الرأسمالي، ولا شيوعية تعارض الفطرة في الرغبة في التملك.

قلت له مستطردة: التجربة الفرنسية جاءت كردة فعل على تسلط وتحالف الكنيسة والدولة على مقدرات الشعب وعقولهم في العصور الوسطى. العالم الإسلامي لم يواجه هذه المشكلة قط، نظراً لعملية ومنطقية النظام الإسلامي. قال: إذاً فإنكم لا تعترفون في الديمقراطية.

قلت له: لدينا ما هو أفضل من الديمقراطية، لدينا الشورى.

قال: وما الفرق؟

قلت له: الديمقراطية هي عندما تأخذ رأي جميع أفراد أسرتك بعين الاعتبار في قرار مصيري يخص الأسرة مثلاً، بغض النظر عن خبرة هذا الفرد أو عمره أو حكمته، من طفل في رياض الأطفال إلى الجد الحكيم، وتساوي بين آرائهم في اتخاذ القرار. أما الشورى فهي توجهك لاستشارة كبار السن والمقام وأصحاب الخبرة لما يصلح أو لا يصلح.

قلت له معقبة: الفرق واضح جداً، وأكبر دليل على الخلل بالأخذ بالديمقراطية هو إعطاء الشرعية في بعض الدول لتصرفات هي في حد ذاتها مخالفة للفطرة والدين والأعراف والتقاليد، مثل المثلية الجنسية والزَّنا وغيرها من الممارسات المقيتة، لمجرد الحصول على الأغلبية في التصويت، وبكثرة الأصوات التي تنادي

بالانحلال الأخلاقي، كانت الديمقراطية قد ساهمت في خلق مجتمعات لا أخلاقية.

قلت له أيضاً: إن الفرق بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية هو خاص بمصدر السيادة في التشريع، فالديمقراطية تجعل السيادة في التشريع ابتداءً للشعب والأمة، أما الشورى الإسلامية فإن السيادة في التشريع تكون ابتداءً لأحكام الخالق سبحانه وتعالى والتي تجسدت في الشريعة، وهي ليست إنتاجاً بشرياً، وما للإنسان في التشريع إلا سلطة البناء على هذه الشريعة الإلهية، وكذلك له سلطة الاجتهاد بما لم ينزل فيه شرع سماوي، شريطة أن تظل السلطة البشرية محكومة بإطار الحلال والحرام الشرعي.

قال: التشريع الإسلامي فريد من نوعه، فبالرغم من أنه قانون ديني إلا أنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه، وهو ذو منهج منظم يؤلف مذهباً متماسكاً، ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض، لكنني ضد الحدود التي وردت في القرآن.

قلت له: الحدود وُضعت للردع، ولعقاب من يقصد الإفساد في الأرض، بدليل أنها تُعطّل في حالات القتل الخطأ أو السرقة بسبب الجوع والحاجة الشديدة، وهي في الأساس لحماية المجتمع، ومنها ما هو موجود أصلاً في القانون الفرنسي كحد الإعدام.

قال: وهل حقاً موجود حكم الإعدام في القانون الفرنسي؟

قلت له: نعم، وموجود في كثير من القوانين الوضعية في دول أخرى.

قلت له: تخيل نفسك تعود لمنزلك وتجد أفراد أسرته قد قُتلوا على يد أحدهم بهدف السرقة أو الانتقام مثلاً، وجاءت السلطات لتقبض عليه وتحكم عليه

بالسجن لمدة معينة، طويلة كانت أو قصيرة، يأكل فيها ويتنفع بالخدمات الموجودة في السجن، والتي تساهم بتوفيرها أنت بنفسك عن طريق دفع الضرائب.

قلت له مستطردة: ماذا سوف تكون ردة فعلك في هذه اللحظة؟ سوف ينتهي بك الأمر للجنون، أو الإدمان على المخدرات لتنسى آلامك. إن الموقف نفسه لو حدث في دولة تُطبق الشريعة الإسلامية سوف يكون تصرف السلطات مختلفاً، سوف يأتون بالجرم إلى أهل المجني عليهم لإعطاء القرار في شأن هذا الجاني، إما أن يأخذوا بالقصاص وهو العدل بعينه، أو دفع الدية وهي المال الواجب على الجاني بسبب قتل آدمي حُرَّ عوضاً عن دمه، أو العفو، والعفو أفضل كما جاء في القرآن الكريم.

"...وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْصَحُواْ وَيَتُوبُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" ١٦٤.

قلت له مسترسلة: عدد آيات القرآن الكريم ٦٣٤٨ آية، وآيات الحدود لا تتجاوز العشر الآيات، والتي وُضعت بحكمة بالغة من لدن حكيم خبير. هل تخسر فرصة الاستمتاع بقراءة وتطبيق هذا المنهج الذي تعتبره أنت فريد من نوعه، فقط لأنك تجهل الحكمة من وراء عشر آيات؟

التوازن في الاقتصاد:

وأذكر أن سألني أحد اللاتينيين المهتمين بالاقتصاد عن الفرق بين النظام الاقتصادي في الإسلام والرأسمالية والاشتراكية.

١٦٤ (التغابن: ١٤).

قلت له: بخصوص حرية التملك في الرأسمالية فالملكية الخاصة هي المبدأ العام، أما في الاشتراكية فالملكية العامة هي المبدأ العام. أما الإسلام فقد سمح بملكيات ذات أشكال متنوعة:

الملكية العامة: وهي عامة لمجموع المسلمين مثل الأراضي العامرة.
ملكية الدولة: الثروات الطبيعية من غابات ومعادن.
ملكية خاصة: تكتسب فقط عن طريق العمل الاستثماري بما لا يهدد التوازن العام.

قال: وماذا بخصوص الحرية الاقتصادية؟
قلت له: في الرأسمالية تُترك الحرية الاقتصادية بلا حدود. أما في الاشتراكية فمصادرة الحرية الاقتصادية تمامًا. أما في الإسلام يُعترف بالحرية الاقتصادية في نطاق محدود يتمثل في:

التحديد الذاتي النابع من أعماق النفس بناءً على التربية الإسلامية، وانتشار المفاهيم الإسلامية في المجتمع والتحديد الموضوعي الذي يتمثل بالتشريعات المحددة التي تمنع أعمالاً محددة مثل: الغش، والميسر، والربا، وغيرها.
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ مَصَافَةً ۚ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُم مِّنْهُ جَزَاءٌ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبَا يَرَىٰ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَىٰ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ" ١٦٦.

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَنْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِّن نَّفْعِهِمَا" ١٦٧
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ" ١٦٧.

١٦٥ (آل عمران: ١٣٠).

١٦٦ (الروم: ٣٩).

١٦٧ (البقرة: ٢١٩).

قال: الدين كالأفيون، يتعاطاه الفقراء والمضطهدين لقبول الظلم والمعاناة، ويتركهم يخلمون بالجنة والآخرة، يُعطي الفرصة للأغنياء للاستحواذ على الثروات مما تسبب بتخلف وفقير المسلمين، وغيرهم من المتدينين.

قلت له: المجتمعات البشرية لم تشهد الفقر والظلم الاجتماعي بسبب إيمانها أو حتى قلة الموارد لديها، ولكن بسبب بعدها عن دينها وسوء توزيع مواردها، فالفقر المدقع لا يظهر إلا بسبب الغنى الفاحش.

إنه في حين ساد الاعتقاد في الرأسمالية بعدم قدرة الموارد الطبيعية على تلبية احتياجات الإنسان المتجددة، وتحدثت الاشتراكية بوجود التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع، كان قد بيّن الإسلام أن الله تعالى خلق للبشرية من الثروات الطبيعية ما يُلبّي احتياجاتها جميعاً دون قصور ونفاد. وأن المشكلة تكمن في الإنسان ذاته بعدم استخدامه للثروات الطبيعية بشكل سليم، وعدم التزامه بعدالة التوزيع.

قلت له مستطردة: الواقع هو أن الدين التزام ومسؤولية، إنه يجعل الضمير متيقظاً، ويحث المؤمن على محاسبة نفسه في كل صغيرة وكبيرة، المؤمن مسؤول عن نفسه وأسرته وجاره وحتى عن عابر السبيل، وهو يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، ولا أظن أن هذه من صفات مدمني الأفيون.

قلت له: أفيون الشعوب الحقيقي هو الإلحاد وليس الإيمان.

ضحك وقال: لماذا؟

قلت له: لأن الإلحاد يدعو أتباعه للمادية وتهميش علاقاتهم مع خالقهم برفضهم للدين والتخلي عن المسؤوليات والواجبات، وحثهم على الاستمتاع

باللحظة التي يعيشونها، بغض النظر عن العواقب، فيفعلوا ما يحلو لهم، معتقدين بعدم وجود رقيب أو حسيب، ولا بعث أو حساب. وسألته مباشرة: أليس هذا وصف للمدمنين حقاً؟ قال: نعم صحيح.

قال: وكيف حقق الإسلام التوازن الاجتماعي؟ قلت له: إن من القواعد العامة في الإسلام أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، وألا تكون الأموال دُولَة بين الأغنياء، ويمنع الإسلام كنز المال بدون إنفاق نسبة بسيطة منه للفقراء والمساكين عن طريق الزكاة، وهي عبادة تساعد الإنسان على تغليب صفات البذل والعطاء على نوازع الشح والبخل.

"مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "١٦٨.

"آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ قَالِذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ" ١٦٩.

"...الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" ١٧٠.

كما ويحث الإسلام على العمل لكل قادر.

"هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" ١٧١.

١٦٨ (الحشر: ٧).

١٦٩ (الحديد: ٧).

١٧٠ (التوبة: ٣٤).

١٧١ (الملك: ١٥).

وحَرَّمَ الإسلام الإسراف وارتفع بمستوى الأفراد لضبط مستوى المعيشة، على أن مفهوم الإسلام للغنى ليس تلبية للحاجات الضرورية فقط بل أن يملك الإنسان ما يأكل ويلبس ويسكن ويتزوج ويحج ويتصدق أيضاً.

"وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا" ١٧٢.

فالفقر في نظر الإسلام هو من لم يظفر بمستوى من المعيشة ما يمكنه من إشباع حاجاته الضرورية وحسب مستوى المعيشة في بلده، وبقدر ما يتسع مستوى المعيشة يتسع المدلول الواقعي للفقر، فإذا كان المتعارف عليه في مجتمع ما حيازة كل عائلة على منزل مستقل بها مثلاً، أصبح عدم حصول أسرة معينة على منزل مستقل بها يُعتبر لوناً من ألوان الفقر، وعلى هذا فالتوازن يعني إغناء كل فرد (مسلمًا كان أم ذميًا) بالقدر الذي يتناسب وإمكانيات المجتمع في ذلك الوقت.

ويضمن الإسلام تلبية حاجات جميع أفراد المجتمع، ويتحقق ذلك من خلال التكافل العام، فالمسلم أخو المسلم وكفالاته واجبة عليه.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ١٧٣.

أذكر هنا قصة جميلة أيضاً لزائرة كولومبية قد جاءت مع أبنائها المراهقين وصديقتها لزيارة المركز، وللأسف جاؤوا في وقت متأخر جداً، حيث كانت نهاية الدوام ولم أتمكن من الإجابة على جميع أسئلتهم، وقد شرحت ما بوسعي

١٧٢ (الفرقان: ٦٧).

١٧٣ (صحيح البخاري).

خلال خمس عشرة دقيقة، لكنني شعرت أن السيدة الكولومبية تُخفي أمرًا. في صباح اليوم التالي عادت السيدة وأولادها فقط بدون الصديقة، وقالت لي: إنني مصرة على أن أكمل حوار معك، حيث لديّ أسئلة تمنعني من الإسلام منذ سنوات، وأريد أن أجد إجابة على هذه الأسئلة.

قلت لها: لا تترددي في طرح أي سؤال، أنا جاهزة للرد على أسئلتك، معك اليوم كاملاً.

فقلت: أنا تعرفت على صديقه مسلمة في بلدٍ ما خلال سفري وتنقلي مع زوجي، وأخبرتني أنه في الإسلام ليس علينا أن نذهب إلى طبيب عندما نمرض، يكفي أن ندعو الله فيجيب دعائنا، وأنا لم أقتنع بهذه النقطة أبدًا، وكانت هذه النقطة من النقاط التي منعتني من قبول هذا الدين، فأنا باعتقادي أننا يجب أن نأخذ بالأسباب.

قلت لها: فعلاً للأسف أنت تعرفين عن الإسلام أكثر مما تعرفه هذه الأخت المسلمة، وأنها بحاجة لمن يشرح لها دينها، الأخت المسلمة لم تعطيك المعلومة الصحيحة، فالإسلام دين عمل في الواقع، والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالتوكل وليس بالتوكل، فالتوكل يقتضي العزم وبذل الطاقة والأخذ بالأسباب، ثم التسليم بعد ذلك لقضاء الله وحُكمه.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال لمن أراد أن يترك ناقته سائبة توكلاً على الله: **"اعقلها وتوكل"** ^{١٧٤}.

وبهذا يكون المسلم قد حقق التوازن المطلوب.

^{١٧٤} (صحيح الترمذي).

فرحت الزائرة كثيرًا بإجابتي، وأذكر أنني أمضيت معها يومًا كاملاً في الإجابة على أسئلتها، فقالت في نهاية الحوار: إنها فوجئت قبل ستة سنوات بإسلام زوجها الذي لم يكن يعتقد أي دين من قبل ولم يكن له اهتمامات دينية، والذي أخبرها أنه وجد أجوبة على جميع الأسئلة التي طالما دارت في خلدته، وقد دعاها للإسلام، لكنها ترددت، لأنها لا زالت لديها شكوك واستفسارات عن نقاط كثيرة، وأخبرتني أنها والله الحمد وجدت جميع الإجابات على أسئلتها خلال حوارٍ معها.

إن الإسلام ينظر للحياة كما ينبغي أن تكون، إن ما يتطلع إليه الناس هو دين متوازن يُلبِّي الحاجات الروحية التي لا غنى عنها، ولا يُهمِّش الحاجات المادية للإنسان. الدين يدعو إلى الوسطية، وهو المبدأ الذي شدّد عليه الدين السماوي الخاتم الذي جاء به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ليُصحح الخطأ الذي وقعت فيه الأمم السابقة، والذي أدى لتشويه مفهوم الدين وربطه بالروحانيات فقط، وبالتالي أدّى إلى انتشار الخرافات مما أدّى إلى صرف الناس عن الدين بالكلية. إضافةً إلى أن الدين أصبح مستغلاً لتحقيق أهداف ومآرب خاصة، ومستخدماً كوسيلة للضغط على الشعوب، وهذا ما دفع كثير من الدول لاتباع نهج ما يُدعى "العلمانية"، وهو فصل الدين عن الدولة.

وقد نجح الإسلام كمنهج، بينما فشلت الرأسمالية والشيوعية، ولكن ابتعاد المسلمين عن دينهم الصحيح وعجزهم عن نشر مبادئ الإسلام بصورة صحيحة ساهم في العقود الأخيرة بازدياد نسبة الملحدين والمشككين والحائرين في العالم، وبدأت البشرية تكفر بكل العقائد لجهلها بالدين الصحيح وفساد ما يُعرض عليها من معتقدات.

إن ربي رحيم ودود

إنما نطعمكم لوجه الله:

أذكر أننا أقمنا أول عامين لنا في مدينة لاغوس في نيجيريا في شقق فندقية، حتى يتسنى لنا البحث عن منزل مناسب وقريب من مدارس الأولاد، وكنت حريصة على أن أحضر هدايا بسيطة لجميع عمال التنظيف وطاقم الاستقبال وسائق السيارة بعد عودتي من أي رحلة سفر، ومشاركتي لهم في الطعام والشراب، لكنني وبكل أمانة لم تكن الدعوة في بالي في ذلك الوقت، ولكن أردت بهذه الأعمال التقرب إلى الله، وعند قرارنا بمغادرة المكان للانتقال للمنزل الجديد، فوجئنا ببكاء الجميع، وقد أخبرنا السائق أنهم يقولون: إنهم لم يقابلوا عائلة مسلمة بهذه الأخلاق تنشر روح المحبة والإخاء، وهم يريدون أن يكافئونا. فلم أعد أعرف هل أفرح بسبب السعادة التي أدخلناها على قلوبهم، أم أحزن لحال المسلمين اليوم، والذي أعطى أهل هذا البلد هذا التصور عن المسلمين، وقلت للسائق: مكافأتنا هي سعادتهم، وتذكرت الآية الكريمة: **"إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِهِ** **اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"** ١٧٥، فارتاحت نفسي.

ورحمتي وسعت كل شيء:

أذكر قصة مدرّسة اللغة الفرنسية، وهي أفريقية من دولة "بنين" المجاورة لمدينة لاغوس حيث نقيم، والتي كنت قد أبلغتها بعد المحاضرة بحاجتي لخادمة للمنزل

تتكلم اللغة الفرنسية، لكي أتمكن وأولادي من ممارسة اللغة الفرنسية معها،
فتفاجأت بقولها: أنا مستعدة لأن أعمل خادمة لديك.

قلت لها: أنتِ مُدرستي ولك احترامك عليّ.

قالت: أنت لطيفة للغاية، ولكنني فعلاً بحاجة لهذا الأمر، فأنت تعرفين أنني آتي كل يوم من دولة "بنين" المجاورة لهذه المدينة، وأنا بحاجة إلى سكن، وسوف أنظف لك البيت صباحاً وأعمل في المركز مساءً، وأنا لاحظت أنكم ودودون جداً، مع أن كتابكم (القرآن) لم يتحدث عن الحب أبداً، ولا حتى عن حب الخالق لعبيده، وكيف يحبهم وهو يُضيق عليهم في العيش.

قلت لها: بالنسبة للسكن، فتفضلني للسكن بدون عمل ولا مقابل، فلدينا ملحق خاص للعاملين ويمكن أن تشاركهم في المبيت.

أما بخصوص القرآن، فهل قرأت القرآن أصلاً؟

قالت: لا، ولكنني سمعت بذلك.

قلت لها: لو قرأت القرآن لأدركت ما فيه من ذكر لرحمة الله وحبه لعباده، ولكن حب الله جل جلاله للعبد ليس كحب العباد بعضهم بعضاً، لأن الحب في مقاييس البشر هو حاجة يفتقدها الحب فيجدها عند المحبوب، ولكن الله جل جلاله غني عنا، فحبه لنا حب تفضل ورحمة، حب قويّ لضعيف، وحب غنيّ لفقير، وحب قادرٍ لعاجز، حب عظيمٍ لصغير، وحب حكمة.

قالت: كيف هذا؟

قلت لها: ألا تأخذي بيد طفلك الصغير بكل حب إلى غرفة العمليات ليشقوا بطنه، وأنتِ واثقة تماماً من حكمة الطبيب وحبه للصغير وحرصه على نجاته.

قالت: كيف يحبهم وهو يُقيد حريتهم ولا يسمح لهم بأن يفعلوا ما يحلو لهم؟ ألم تسمعي بالفردانية؟ ألم تسمعي بهذا المفهوم المتطور، وهو أن قرارات الفرد يجب أن تكون مستندة على منفعته ومتعته الشخصية وهو مركز الاهتمام الرئيسي، أي أن مصالحه الشخصية تتحقق فوق اعتبارات البلد وتأثيرات المجتمع والدين، وتسمح له بتغيير جنسه، ويفعل ما يحلو له، ويرتدي ويتصرف في الطريق كما يريد، فالطريق للجميع.

قلت لها: وهل تسمحين لأطفالك بفعل ما يحلو لهم بذريعة حبك لهم؟ هل تسمحين لابنك الصغير أن يُلقي بنفسه من نافذة المنزل أو يلعب بسلك الكهرياء المكشوف؟

قلت لها: عبارة الطريق للجميع صحيحة لكن فهمك لها خاطئ، لو كنت تسكنين مع مجموعة من الأشخاص في منزل واحد مشترك، هل كان سيعجبك تفسيرك لهذه العبارة؟ هل كنت ستقبلين بأن يقوم أحد شركائك في المنزل بعمل مشين كقضاء الحاجة في صالة المنزل بحجة أن المنزل للجميع؟ هل ستقبلين الحياة بهذا المنزل بدون قوانين ولا ضوابط تحكمها؟ فالإنسان بالحرية المطلقة يصبح كائنًا قبيحًا، وكما ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه عاجز عن تحمل هذه الحرية.

الفردانية لا يمكن لها أن تكون هوية بديلة عن الهوية الجامعة مهما كانت قوة الفرد أو نفوذه. أفراد المجتمع طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض. فمنهم الجنود، الأطباء، الممرضون والقضاة، فكيف يتسنى لأي منهم أن يُغلب منفعته ومصلحته الشخصية على الآخرين ليحقق سعادته ويكون هو مركز الاهتمام الرئيسي؟

قالت: وكيف تتحقق السعادة إذًا؟

قلت لها ما قرأته يوماً وأعجبني كثيراً^{١٧٦}: إن السعادة في الفردانية هي الانتصار، الهيمنة وامتلاك التكنولوجيا. لكن السعادة في الإسلام هي القلب مطمئن، الزواج الناجح، المسكن الواسع، الجار الصالح، المركب المريح، المشاركة والتعاون. والحضارة الإسلامية والتي تشكلت من مزيج من مختلف الشعوب والقبائل قد جعلت الفردانية كالرسم البياني، فجعلت حساب وجزاء، واجبات وحقوق، وكما يقع على الفرد العقاب أيضاً يُكافأ، ولقد حرر الإسلام أيضاً الفرد من العvisية القبلية وأعادته إلى الفطرة السليمة، كمدني اجتماعي يعيش في جماعة تحترمه وتقدر إمكاناته التفكيرية وقدرته على التعايش مع الآخرين، فالأمة المتطلعة للتقدم والتي تتبنى هدفاً سامياً تنطلق من مفهوم الكيان الواحد، فلكل فرد اجتهاده وأفكاره وقدراته، لكن التطبيق يحتاج إلى الجماعة، وبالتالي يتساوى الجميع هنا حسب ما قدمه كل فرد. وبذلك يكون الإسلام قد حدد علاقة الفرد بالمجتمع، وأوضح بأن الفرد ليس سوى جزء صغير لا يتجزأ من الهوية الجماعية التي بدورها تكفل ضبط إيقاع الحياة. مما أنتج مجتمعاً مستقرًا وآمنًا، لأنه كلما احتل التوازن بين الطبقات ستظهر الصراعات ويُفتقد الرضا في المجتمع. فلم يعد المال هو المعيار الأعلى الذي يُميّز مالكة عن الآخرين، ولا بالمال تتحقق القوة وقيادة العالم. القائد في النظام الإسلامي لا يُقيّم بما يملك من مال، لكن بما لديه من علم وأخلاق وعدل، وبهذه الصفات وحدها استطاعوا سابقاً التقدم وتحقيق الانتصارات.

^{١٧٦} <https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2020/05/26/523195.html>. من مقال مفهوم الفردانية المطلقة

والفرد في الأمة بقلم: مروان صباح، جريدة الوطن.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالشَّهْرِ وَالْحُمَى" ١٧٧.

قالت: الفردانية ترتبط بالشذوذ الجنسي بشكل مباشر، فلماذا لا تحبون الشاذ جنسيًا، فما لديه من ميول هو مسألة جينية طبيعية، وميول طبيعي، ويجب أن نحترمه.

قلت لها: وهل تحترمي ميول السارق إلى السرقة؟ فهذا أيضًا ميول، ولكنه في الحالتين ميول غير طبيعي، إنه خروج على الفطرة البشرية، واعتداء على الطبيعة، ويجب أن يُقَوِّمَ.

لقد خلق الله الإنسان وهدهد إلى الطريق السليم، ولديه حرية الاختيار بين طريق الخير وطريق الشر.

"وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" ١٧٨.

ولذلك نجد أن المجتمعات التي تُحَرِّمُ المثلية نادرًا ما يظهر فيها هذا الشذوذ، والبيئة التي تبيح وتشجع على هذا السلوك تزداد فيها نسبة المثليين، مما يدل على أن الذي يحدد احتمال الشذوذ لدى الإنسان هو البيئة والتعاليم المحيطة به.

ولذلك قال تعالى عن قوم لوط:

"وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ لَهُمْ أَنْفُسٌ أَنْفُسُكُمْ يَنْتَهَكُونَ" ١٧٩.

١٧٧ (صحيح مسلم).

١٧٨ (البلد: ١٠).

١٧٩ (الأعراف: ٨٠ - ٨٢).

هذه الآية تؤكد أن الشذوذ ليس وراثيًا، وليس من أصل تركيب الشفرة الوراثية للإنسان، لأن قوم لوط هم أول من ابتدع هذا النوع من الفاحشة. وهذا يتطابق مع أوسع دراسة علمية، والتي تؤكد أن الشذوذ الجنسي لا علاقة له بالجينات الوراثية^{١٨٠}.

إن هوية الإنسان تتغير في كل لحظة حسب مشاهدته للفضائيات، أو استخدامه للتكنولوجيا أو تعصبه لفريق كرة قدم مثلاً، فالعولمة صنعت منه إنساناً معقداً. فالخائن أصبح صاحب وجهة نظر، والشاذ أصبح صاحب سلوك طبيعي، وأصبح لديه الصلاحية القانونية للمشاركة في نقاشات علنية، بل وعلينا دعمه والتصالح معه. وأصبحت الغلبة لمن لديه التكنولوجيا، فإذا كان الشاذ هو الطرف الذي يمتلك أسباب القوة، فسيفرض على الطرف الآخر قناعاته، مما يؤدي إلى إفساد علاقة الإنسان بنفسه ومجتمعه وبخالقه. وبارتباط الفردانية بالشذوذ الجنسي بشكل مباشر، تلاشت هنا الفطرة الآدمية التي ينتمي لها الجنس البشري، وسقطت مفاهيم العائلة الواحدة، فبدأ الغرب بوضع حلول للتخلص من الفردانية، لأن الاستمرار بهذا المفهوم سيضيع المكاسب الذي حققها الإنسان المعاصر، كما أضعاف مفهوم العائلة، وبالتالي ما زال الغرب حتى اليوم يعاني من مشكلة تقلص أعداد الأفراد في المجتمع، والذي أدى إلى فتح الأبواب لاستقطاب المهاجرين.

فلإيمان بالله واحترام قوانين الكون التي خلقها لنا، والالتزام بأوامره ونواهيه، هو طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

^{١٨٠} <https://kaheel7.net/?p=15851> موسوعة الكحيل للإعجاز في القرآن والسنة.

وما كان عطاء ربك محظورا:

كانت المدرّسة قد أكملت حوارها معي قائلة: وكيف تتطور دول ملحدة وتتخلف دول مؤمنة بالله، على الرغم من حبه لهم.

قلت لها: وهل يعطي مدير المدرسة لابنه الفاشل شهادة النجاح لمجرد أنه ابنه فقط؟ هناك قوانين وأنظمة يجب أن تُتبع في هذه المدرسة، ويُحدّد بناءً عليها الناجح والراسب. لكن هذا لا يُغيّر واقع أن مدير المدرسة يحب ابنه أكثر من الجميع وهو حامل اسمه ووريثه الوحيد.

قلت لها: فالكون كالمدرسة له قوانينه وسُننه، ولقد حقق غير المؤمنين التقدم المادي والتطور التكنولوجي بسبب أخذهم بالقوانين الكونية والسنن الإلهية، ومن ثم استطاعوا بناء أنظمة سياسية جيدة، وأنظمة تعليمية وتربوية قوية وذات معايير منهجية. وكان هذا التقدم المادي فقط لمن أخذ منهم بزمam السنن الإلهية والقوانين الكونية، وهذا دليل على أن النجاح الديني لا يُجابي أبيض ولا أسود، والعدل من أسمائه عز وجل، والظلم من أقبح ما حذرنا الله منه. ولكن مع هذا فالله لن يُعط غير المؤمن الآخرة التي هي لعباد الله المؤمنين وأحبائه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُعْطَى عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَيُنَافِئُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُعْطَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا"^{١٨١}.

فالله تعالى يعطيهم في الدنيا ما يستحقونه باعتبار ما عندهم من خير وما يبذلونه من حق.

^{١٨١} (صحيح مسلم).

كما أن الله تعالى قد ينصر أمة كافرة على أمة مسلمة عقوبةً لها على معاصيها، كما حدث في معركة أحد.

"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخْسَوْهُمْ بِآذِنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ" ١٨٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لأن الله قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ" ١٨٣.

فقلت: هل يعطيني الله مالاً ومنزلاً إن آمنت به الآن؟

قلت لها: وإن لم يعطيكِ والدك مالاً ومنزلاً هل كنتي ستنكرين وجوده؟

الله ينتظرنا:

في قصة جميلة لمجموعة من الملحدين الصينيين الذين كانوا يتساءلون عن رحمة الله، فقال أحدهم: كيف يعطينا الخالق غرائب ثم يطالبنا بأن لا نستعملها؟ ويعطينا المال ويطالبنا بأن نخسره بالصدقات، ويعطينا الوقت ويطالبنا بأن نضيعه في العبادات؟ أليس هذا دليل على القسوة؟

قلت له: إذاً فأنت تؤمن به واعتراضك فقط على رحمته من عدمها؟

قال: لا، أنا لا أؤمن به لأنه قاسي.

ابتسمت وقلت له: افتراضك أنه قاسي دليل على إيمانك بوجوده، أنت للأسف تناقض نفسك. تعالى الله عما يُنسب إليه من القسوة والظلم. فهو الرحمن الرحيم، لكن رحمته هي الرحمة المطلقة. وعلى أية حال فإن القسوة التي تفترضها ليست حجة ضد وجود الله، بل ضد رحمته.

١٨٢ (آل عمران: ١٥٢).

١٨٣ (حديث صحيح الإسناد).

قلت له: أنت برغبتك بإطلاق غرائزك تريد أن تكون عبدًا لها، والله يريدك أن تكون سيدًا عليها، يريدك الله إنسانا عاقلاً حكيماً يتحكم في غرائزه، فليس المطلوب منك تعطيل الغرائز بل توجيهها للارتقاء بالروح وسمو النفس.

قلت له: أليديك أطفال؟

قال: نعم.

قلت له: عندما تُلزم أولادك بتخصيص بعض الوقت في المذاكرة ليحصلوا على مكانة علمية في المستقبل مع رغبتهم في اللعب فقط، هل تُعتبر أنت في هذه اللحظة أب قاسي؟

حينها تفاجأت بالجموعة تنتفض من الفرحه لإجابتي، وسألني أحدهم: ماذا نفعل الآن وقد ابتعدنا عن الله كثيراً، هل يقبلنا إذا عدنا وقد أسأنا إليه كثيراً؟ قلت له: أنتم أسأتم لأنفسكم فقط، فالله تعالى ليس بحاجة لنا، بل نحن بحاجة إليه، ولكن على أية حال، ماذا كنت سوف تفعل أنت عندما يبتعد عنك ابنك العاصي؟ هل كنت ستفضحه وتُشهر به، هل كنت ستطلب منه أن يقتل نفسه؟

قال: سأبقى منتظراً عودته، وأسامحه إن عاد.

قلت له: إذا فالله ينتظركم الآن.

فشهق فرحاً وردد بصوت عالي: الله ينتظرنا، وظل يكررها، وصار الجميع يلتفت لبعضه البعض ويقول: الله ينتظرنا.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول:

"لَكُلِّ أَشَدُّ فَرْحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ قَلَاةٍ، فَانْقَلَبَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا

هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطأهما، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح" ١٨٤.

وأذكر قصة لي مع ممثل هندي شهير كان قد اعتنق الهندوسية مؤخرًا، وفي أثناء حوارني معه وفريق عمله عن رحمة الله وحبهِ لعباده، قال أحدهم لي: كيف يصف الله نفسه بالغفور الرحيم تارة، وشديد العقاب تارة أخرى؟

قلت له: الله غفور رحيم مع أصحاب الذنوب التي تُرتكب دون إصرار وبحكم بشرية الإنسان وضعفه، ولا يقصد بها تحدي الخالق، لكنه تعالى يقصم من يتحداه وينكر وجوده، أو يصوره في صنم أو حيوان، فقاطعني الممثل بصورة غير لائقة وقال: هذه صغائر والله لا يهتم بها.

قلت له: إنك لو شتمت حيوان فلن يلومك أحد، أما أن تشتم والديك فسوف تُلام وبشدة. لا تنظر إلى صغر المعصية، لكن انظر من عصيت.

فاتبعوني يُحببكم الله:

من التجارب العنيفة التي خضتها في مجال الدعوة، كانت مع امرأة من جنوب أفريقيا وأخيها النصرانيين، وزوجة أخيها التايلاندية البوذية. المرأة وأخيها من سكان أفريقيا الجنوبية البيض يتميزون بضخامة عجيبة في الأجساد، بينما زوجة الأخ كانت صغيرة الحجم جدًا، وكنت قد ارتبكت في البداية للتناقض في أشكال وأحجام وعقائد الزوار وشراسة المرأة في عرضها للدين النصراني عليّ، حيث كان من المفترض أن أبدأ حوارني معهم بعرض مختصر عن الإسلام، وقد فاجأني بسبيل من العبارات الغريبة وبدون توقف، ولم تعطيني حتى الفرصة لأن أتكلم كلمة واحدة، وهي تقول: "الله محبة"، الله يحبك، الله مات من أجلك.

تمالكت نفسي وقلت لها: حسنًا، أنا مستعدة لاعتماد النصرانية، إن أجبتَ عن أسئلي.

فرحت الزائرة كثيرًا، وذهبت لشخص زوجة أخيها لتسمع الحوار، حيث كانت زوجة الأخ في زاوية أخرى من المسجد تلتقط بعض الصور التذكارية، وفهمت أن المرأة الجنوب أفريقية تحاول مع زوجة أخيها من فترة لتترك البوذية وتعتنق النصرانية، فاعتقدت الزائرة أن قبولي للنصرانية سوف يكون حافزًا لزوجة أخيها. قالت الزائرة في حضور زوجة أخيها: أخبريني ما هي أسئلتك.

قلت لها: أنت تقولين إن الله يحبني ومات من أجلي للتكفير عن ذنوبي. قالت نعم.

قلت لها: وهل حي لا بني يجعلني أقتل نفسي لأسامحه على أخطائه؟ وهل حب الله لي يجعله عاجزًا أن يغفر لي إن رجعت وعدت إليه؟ وهل حبه لي يجعله يحاسبني على خطيئة ارتكبتها غيري وهي خطيئة آدم، ويعطيني الخلاص لمجرد إيماني بموت شخص آخر على الصليب، وليس بصالح عملي؟

وهل حب الله للمسيح يجعله عاجزًا عن حمايته من القتل والصلب؟ وكيف يموت الله متجسدًا في المسيح وهو حي لا يموت في عقيدتكم؟ أليس هذا تناقضًا؟

وعندما مات الله لثلاثة أيام حسب اعتقادكم، من كان يدير الكون في غيابه المزعوم؟

ومن كان يعطي ويرزق، من كان يحيي ويميت، من أحياه هو نفسه عندما مات؟

ومع أن الله قادر على كل شيء كما تبررون عقيدتكم، لكن هل يفعل الله ما لا يليق بجلاله، كأن يُعلّق على خشبة ويُصق عليه ويُعذّب ويموت مصلوباً، والمصلوب يعتبر ملعون في كتابكم؟
وأين قال المسيح في كتابكم أنه هو الله؟
ولما بكى المسيح وصلى لطلب الإغاثة من الله عندما أرادوا صلبه، كان قد صلى لنفسه؟

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

"وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨".

الإله الخالق حي قيوم غني قادر، ليس بحاجة لأن يموت لأجل البشر، فهو الذي يمنح الحياة أو يسلبها، لذلك هو لم يمت متجسداً في المسيح على الصليب كما أنه لم يُبعث. هو الذي حمى وأنقذ رسوله عيسى المسيح من القتل والصلب، كما حمى رسوله إبراهيم من النار، وموسى من فرعون وجنوده، وكما يفعل دوماً مع عباده الصالحين في حمايتهم وحفظهم.

"لَمَّا نَجَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ١٨٦".

وكنت قد لاحظت ارتباكها واختلاسلها نظرات لزوجته أخيها، وشعرت أنها بدأت تخشى من تأثير كلامي على زوجة أخيها، وقالت بعجلة بدون أن تجيب على أي سؤال: لقد أعجبني ثوبك كثيراً، وحضنتني بشدة حتى شعرت بالخوف على نفسي، وتركتني وأمسكت بيد زوجة أخيها وغادرت المسجد فوراً.

^{١٨٥}(النساء ١٥٧-١٥٨).

^{١٨٦}(يونس: ١٠٣).

وأذكر أنني قد واجهت موقف شبيه بهذا الموقف مع فرنسي نصراني متدين، حيث قال لي: الله يحبك، الله مات من أجلك.

قلت له: من أخبركم بهذا؟ الله نفسه أم المسيح؟

قال: القديس بولس، وهو شخص ذكي ومتعلم جداً، ودرجة تعليمه في مستوى درجة تعليم شخص في وقتنا الحاضر ممن يحملون ثلاث شهادات دكتوراه.

قلت له: وما علاقة درجة تعليم بولس بالوحي الإلهي؟

قال: لقد رأى مناماً أخبره أن الله مات من أجلنا.

قلت له: الوحي الإلهي يأتي من الله، ومنه الوحي بالرسالات السماوية، ونقيضه الوحي الشيطاني الذي يأتي عن طريق المنامات للبشر، وكانت قد أضحكته إجابتي.

واستطردت قائلة: ثم إن العلم البشري هو إنتاج بشري يُصيب ويخطئ، ومنه الابداع العلمي والاهام الأدبي. وهو تجارب وخبرات إبداعية. ولا علاقة لها بالوحي الإلهي على الإطلاق.

وقلت له أخيراً: أنا ليس لدي الكثير من المعلومات عن هذه النقطة، لكنني أتعجب ممن يترك رسالة المسيح الحقيقية التي هي وحي إلهي ويتبع رؤيا منام ليس فيها شيء من المنطق ومخالفة للفطرة والعقل بكل المقاييس، لشخص لم يقابل المسيح في حياته كالقديس بولس، لمجرد أنه متعلم؟ وقد كان من ألد أعداء المسيح، وحاول جاهداً هدم دينه والقضاء عليه، وكان ممن عذَّب أتباعه. وقلت مستطردة: أنا الآن إنسانة محبة للمسيح وعليَّ أن أصدق رسالته.

وقد قال المسيح: الله واحدٌ أحد^{١٨٧}، ويقول القديس بولس الله ثلاثة في واحد^{١٨٨}.

وقال المسيح في كتابكم: سوف أصعد إلى أبي وأبيكم، ربي وربكم^{١٨٩}، وقال بولس: المسيح الابن المولود الوحيد لله^{١٩٠}.

وقال المسيح في كتابكم: أنا لا أستطيع أن أعمل شيئاً بنفسي^{١٩١}، ويقول بولس: المسيح كلي القدرة^{١٩٢}.

وقال المسيح في كتابكم: الإله أعظم مني^{١٩٣}، وقال بولس: أن المسيح مساوي للإله في العظمة^{١٩٤}.

فأخبرني أرجوك ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أصدق المسيح، أم أصدق بولس؟ قال: تعرفين كل هذا وتقولين ليس لديك معلومات؟ هل تسمحين لي بالتقاط بعض الصور لأنني عندي موعد هام وعليّ المغادرة. قلت له: تفضل.

ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم وآمنتم:

قصة أخرى لأمركي وياباني من أروع القصص التي عشتها في حياتي، حيث كنت في ذلك اليوم متعبة جداً وكان هذا اليوم حافلاً بالعمل، وكانوا قد

^{١٨٧} (العهد الجديد، إنجيل مارك ١٢: ٢٩).

^{١٨٨} (العهد الجديد، كورنثوس ١٢: ٦-٣).

^{١٨٩} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠).

^{١٩٠} (العهد الجديد، غلاطية ٤: ٥-٤).

^{١٩١} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ٥: ٣٠).

^{١٩٢} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ١٥: ٥).

^{١٩٣} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ١٤: ٢٨).

^{١٩٤} (العهد الجديد، العبرانيين ١: ٣).

أخبروني أن في انتظاري زائرين أمريكي وياباني، وظننت أنهما أصدقاء لكنني فوجئت أنهما لا يعرفان بعضهما البعض، ولكن تقابلًا في غرفة الانتظار في المركز، فأخذتهما في زيارة إلى الداخل مع تعبي الشديد لكنني وافقت.

فوجئت بالأمريكي ينهال عليّ بالأسئلة بشكل متواصل، وسؤال يتبعه سؤال. الياباني كان يتكلم الانجليزية بطلاقه ولكنه كان يستمع، لم يقاطعنا وكان يستمع بإنصات، لكن الأمريكي كان لا يتوقف عن الأسئلة بشكل غير طبيعي لدرجة أنني شككت أنه يريد مهاجمة الإسلام وأنه لا يسأل للاستفادة، حيث أنه سألني أسئلة كثيرة استمرت إلى ثلاث ساعات.

وقد طلب مني أن يتعلم ويحفظ سورة الفاتحة، وحفظها، وطلب أن يتعلم سورة الاخلاص وأن يتعلم الصلاة، وتعلمها أثناء الزيارة خلال الثلاث ساعات، وقد ألهمني الله الصبر مع تعبي الشديد، وشعرت لاحقًا من طبيعة أسئلته أنه ملحد ولا يعتقد أي ديانة، لأن النصراني عادة لا يهاجم الخالق.

فقال من ضمن ما سأل: لماذا لا يقبل الله الادعاء بأن المسيح ابنه، هل يغار الله من المسيح؟

قلت له: عندما تُرسل لي طردًا مع ساعي البريد، وأذيع أنا بين الناس أن ساعي البريد هو ابنك، هل تقبل أنت بهذا؟

قال: لا.

قلت له: هل لأنك تغار منه؟

قال: لا، لأنه ببساطة ليس ابني.

قلت له: إذًا، فأنت تقبل على خالقك ما لا تقبله لنفسك.

قال: ولماذا يُعَذِّب الله بالنار؟

قلت له: وماذا تتوقع أن يكون مصير من يُعَذِّب الأطفال بالأسلحة الكيماوية

مثلاً، ألا يحاسب على أفعاله؟

قلت له أيضاً: ومن تبرأ من أمه وأبيه وأهائهم وطردهم من المنزل وجعلهم في

الشارع مثلاً، ماذا تشعر تجاه هذا الشخص؟

قال: أشعر بغیظ شديد.

قلت له: إن قلت لك أنني سوف أدخله منزلي وسوف أكرمه وسوف أطعمه

وسوف أشكره على هذا العمل هل تُقدر أنت عملي، هل تتقبل ذلك مني؟

قال: لا.

قلت له: والله المثل الأعلى، ماذا تنتظر أن يكون مصير من رفض خالقه وكفر

به؟ من عوقب بالنار فكأنما وُضع في مكانه الصحيح، هذا الشخص احتقر

السلام والخير على الأرض، فلم يستحق نعيم الجنة.

وذنبهم ليس ذنباً محدوداً في الزمان بل هو خصلة ثابتة.

"...وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" ١٩٥.

وهم يواجهون الله أيضاً بالخلف الكذب وهم بين يديه يوم القيامة.

"يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ لَهٗ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْكَاذِبُونَ" ١٩٦.

١٩٥ (الأنعام: ٢٠).

١٩٦ (المجادلة: ١٨).

كما أن الشر يمكن أن يأتي من أناس في قلوبهم حسد وغيرة ويتسببوا في بث المشاكل والنزاعات بين البشر. فكان من العدالة أن يكون جزائهم النار وهو ما يتناسب مع طبيعتهم.

"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" ١٩٧.

وصفة الله العادل تقتضي أن يكون منتقمًا إلى جانب رحمته، فالله في النصرانية "حبة" فقط وفي اليهودية "غضب" فقط، وفي الإسلام هو إله عادل ورحيم وله الأسماء الحسنى جميعًا، وهي صفات الجمال والجلال.

قلت له مستطردة: ثم إنه في الواقع العملي في الحياة فإننا نستخدم النار لعزل الشوائب عن المادة النقية، كالذهب والفضة، ولذلك فإن الله تعالى - ولله المثل الأعلى - يستخدم النار لتنقية عباده في الحياة الآخرة من الذنوب والآثام، ويخرج من النار في النهاية من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان برحمته. قال: أريد دليلاً ملموساً على وجود الله.

قلت له: أنت تطلب أضعف البراهين. فنحن نُبصر قوس قزح والسراب وليس لهما وجود ملموس! ونصدق وجود الجاذبية دون أن نراها لمجرد أن أثبتنا العلم المادي.

"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" ١٩٨.

إن الإدراك ينقسم إلى أربعة أنواع:

الإدراك الحسي: كأن ترى شيئاً بحاسة البصر مثلاً.

الإدراك الخيالي: كأن تقارن صورة حسية بذاكرتك وبخبراتك السابقة.

١٩٧ (الأعراف: ٣٦).

١٩٨ (الأعام: ١٠٣).

الإدراك الوهمي: وهو الشعور بمشاعر الآخرين، كأن تشعر أن ابنك حزين مثلاً. وبهذه الطرق الثلاثة يشترك الإنسان والحيوان.

الإدراك العقلي: وهو الإدراك الذي يتميز به الإنسان فقط.

وأنتم كملحدون تريدون إلغاء هذا النوع من الإدراك لتساووا الإنسان بالحيوان، والإدراك العقلي هو أقوى نوع من أنواع الإدراك لأن العقل هو الذي يصحح الحس، عندما يرى الإنسان ببصره السراب مثلاً كما ذكرنا في المثال السابق، فيأتي دور العقل ليخبر صاحبه أن هذا مجرد سراب وليس ماء، وظهوره كان بسبب انعكاس الضوء على الرمال فقط ولا أصل لوجوده، فيكون هنا قد خدعك الحس وأرشدك العقل، وأنتم دائماً ما ترفضون الدليل العقلي وتطالبون بالدليل المادي وتحملون هذا المصطلح بمصطلح "دليل علمي"، أخبرني أرجوك: هل الدليل العقلي والمنطقي ليس علمياً أيضاً؟ هو في الواقع دليلاً علمياً ولكن ليس مادياً، وتستطيع أن تتخيل مجرد طرح فكرة وجود ميكروبات صغيرة لا ترى في العين المجردة لشخص عاش على كوكب الأرض منذ خمسمئة عام، ما كانت سوف تكون ردة فعله^{١٩٩}.

ومع أن العقل يستطيع أن يدرك وجود الخالق ويدرك بعض صفاته، لكن له حدود، ويمكن أن يدرك الحكمة من بعض الأمور ولا يدرك أخرى، فلا أحد مثلاً يستطيع أن يدرك الحكمة في عقل عالم فيزيائي قدير كآينشتاين مثلاً. "ولله المثل الأعلى فإن مجرد الظن بالقدرة على الإحاطة بالإدراك الكامل لله هو عين الجهل به، فقد تقودك السيارة إلى شاطئ البحر، ولكن لا تُمكنك من الخوض فيه. فلو سألتك مثلاً عن مياه البحر تساوي كم لتر، وأجبت بأي رقم

^{١٩٩} <https://www.youtube.com/watch?v=P3InWgcv18A> _ فاضل سليمان.

فأنت جاهل، ولو أجبت بلا أعلم فأنت عالم، إن الطريق الوحيد لمعرفة الله هي آياته في الكون وآياته القرآنية"^{٢٠٠}.

وأجل ما في العلم أنه ليس له حدود، وكلما تبحرنا في علوم سنجد علوم أخرى، ولن نستطيع أن نلم بكل العلم، إن أذكى إنسان هو من يحاول أن يفهم كل شيء، وأغبي إنسان هو من يظن نفسه سيفهم كل شيء.

"قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَمُودَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا"^{٢٠١}.

قال: ولماذا لا يكون هناك آلهة أخرى ترزق وتشفي؟
فلت له: وهل ادعى أحد غير الله أنه الرازق الشافي، لندرس صدق دعواه من عدمها؟

كذلك يُلاحظ أن الإنسان في الشدة يتوجه إلى حقيقة واحدة ويرجو إلهًا واحدًا لا أكثر. وقد أثبت العلم وحدة المادة، ووحداية النظام في الكون من خلال التعرف على مظاهر الكون وظواهره، ومن خلال التشابه والتماثل في الوجود. ثم تخيل على مستوى الأسرة الواحدة عندما يختلف الأب والأم على اتخاذ قرار مصيري يخص الأسرة، ويكون ضحية اختلافهم ضياع الأطفال وتدمير مستقبلهم، فما بالك في إلهين أو أكثر يحكمان الكون.

"لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ"^{٢٠٢}.

قال: هل يستطيع الخالق أن يُحيي ميتًا أمامي؟

^{٢٠٠} من أقوال الشيخ محمد راتب النابلسي.

^{٢٠١} (الكهف: ١٠٩).

^{٢٠٢} (الأنبياء: ٢٢).

قلت له: العجيب أنكم أنتم الملحدون تكررون نفس الأسئلة وكأنكم متفقون عليها، مع أنني على قناعة أنكم على يقين من عدم واقعيتها ومنطقيتها. قلت له مستطردة: وإن أحى الله أمامك الموتى فلن يُقنعك ذلك، كما حدث في قصة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين قدموا لأقوامهم المعجزات، لكن أقوامهم اتهموهم بالسحرة.

"كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ" ٢٠٣.

"وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ الْبَنَاتِ كَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ الْبَنِينَ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ خَلَقَهُمْ خَيْرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" ٢٠٤.

استطرد الأمريكي قائلاً: كيف يُعاقب الخالق عباده بعذاب لا ينتهي، على معاص قليلة، كان قد ارتكبها في حياته القصيرة.

قلت له: إن كثيراً من الجرائم تصل بأصحابها إلى حُكم المؤبد. فهل هناك من يقول أن حُكم المؤبد ظلم، لأن المجرم ارتكب جريمته بدقائق معدودة؟ هل حُكم العشر سنوات حُكم ظالم، لأن المجرم لم يختلس من الأموال إلا سنة واحدة فقط. إن العقوبات لا تتعلق بمدة ارتكاب الجرائم بل بحجم الجرائم وفضاعتها.

واستطرد الأمريكي حواراً معي قائلاً: ولماذا كرر الإله التحذير من النار، ألا يدل ذلك على عدم رحمته وعدم محبته لنا؟

قلت له: أنا أرهق أولادي بكثرة تنبيهي لهم كلما سافروا أو ذهبوا إلى العمل بأن يأخذوا حذرهم في ذهابهم وإيابهم، فهل تعتبرني أُمًّا قاسية؟ هذا قلب للموازنين،

٢٠٣ (الزاريات: ٥٢-٥٣).

٢٠٤ (الأعام: ١١١).

فإنكم تجعلون من الرحمة قسوة، فالله يُنبه عباده ويحذرهم لرحمته بهم، ويرشدهم إلى طريق الخلاص، ووعدهم بتبديل سيئاتهم حسنات عندما يتوبوا إليه.

"إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" ٢٠٥.

قلت له معقبة: ولماذا لم يلفت نظرك عِظَم الثواب والنعيم في جنات الخلود

مقابل قليل من الطاعات؟

"وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" ٢٠٦.

إِنَّهُ كَانَ بَكُمْ رَحِيمًا:

أكمل الأمريكي حوارَه قائلاً: ولماذا طلب الله من نبيه إبراهيم ذبح ابنه، أليست هذه قسوة؟

قلت له: وهل طلب الله منك ذلك؟ إذا ادعى شخص أنه أذكى رجل في العالم، فمن الطبيعي جداً أن يخضع لأصعب الاختبارات، لإثبات ادعاءه. وإبراهيم عليه السلام نبي ورسول يوحى إليه، وقد صرَّح أن الله أحب إليه من كل شيء، فاختبره الله ليثبت هذا الحب.

علماً أنه ورد عن انتشار عادة تقديم الأبناء قرباناً للآلهة في زمن نبي الله إبراهيم، وأراد الله أن يُبطل هذه العادة في تقديم الاضحية بدلاً عن الأبناء.

قال: ولماذا يكرر القرآن أن الله يحب المؤمنين الصالحين ولا يحب الكافرين،

أليسوا جميعاً عباده؟

٢٠٥ (الفرقان: ٧٠).

٢٠٦ (التغابن: ٩).

قلت له: الله تعالى أرشد جميع عبادته لطريق الخلاص، ولا يرضى لهم الكفر، لكنه لا يحب السلوك الخاطيء نفسه الذي يسلكه الإنسان بالكفر والفساد في الأرض.

"إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" ٢٠٧.

قلت له أيضاً: ما قولك في أب يكرر أمام أبنائه قائلاً: أنا فخور بكم جميعاً، إن سرقتم وزنيتم وقتلتم وأفسدتم في الأرض فأنتم بالنسبة لي كالعابد الصالح؟ ببساطة أقرب وصف لهذا الأب هو أنه كالشيطان، يحث أبنائه على الفساد في الأرض.

قال: ولماذا يُذكرنا الله دائماً في القرآن بنعمه علينا، فما أعطانا إياه بالنسبة لما يمتلكه لا شيء، فأين العظمة في ذلك؟

قلت له: الله يُذكرنا بنعمه علينا، ليحمينا من أنفسنا من التوجه لغيره بالشكر والعرفان، فإننا إن لم نعبده فسوف نتوجه بالعبادة لغيره. فكلما حصلت أنا على المال مثلاً، أو شعرت بنشوة النجاح، وافتخرت بإنجازاتي فكأنني أشكر نفسي دون أن أشعر، وأرجع نجاحي إلى قدراتي التي هي أصلاً من الله، فأفتح حينها صفحة من القرآن لأقرأ الآية الكريمة وما توفيقي إلا بالله، فأعود وأقول الحمد لله.

قلت له أيضاً: إن أهداك أحد هدية، هل تفرح بالهدية لذاتها أم بدلالاتها على محبة من أهداها إليك؟

قلت له مستطردة: فعظمة العطاء بقيمة مصدره، فلو أعطيتك مئة دينار، وأعطاك الملك دينار، لكنت فرحت أكثر بدينار الملك، ولأشعلت وسائل التواصل الاجتماعي بهذا الخبر.

وقد كان الياباني يستمع ولم يتدخل أبداً خلال الثلاث ساعات.
عاد الأمريكي وسأل: أليست قسوة أن يحاسبنا الله على أعمال هو كتبها علينا أصلاً؟

قلت له: إنك عندما تريد مثلاً أن تشتري شيئاً من المتجر، وتقرر أن ترسل الابن الأول لشراء هذا الشيء، لأنك على علم مسبق أن هذا الولد حكيم، وسوف يذهب مباشرة لشراء ما تريده تماماً، وتعلم أن الولد الآخر سوف ينشغل باللعب مع أفرانه، ويضيع المال، وهذا في الواقع افتراض قد بنيت حُكمك عليه.

قلت له: الاطلاع على الأقدار لا يتناقض مع إرادة اختيارنا، لأن الله يعلم أفعالنا بناءً على علمه التام بنوايانا واختياراتنا. وله المثل الأعلى - يعلم طبيعة البشر، فهو الذي خلقنا ويعلم ما في قلوبنا من الرغبة بالخير أو الشر ويعلم نوايانا ومطلع على أفعالنا، وتسجيل هذا العلم عنده لا يناقض إرادة اختيارنا. علماً بأن الله علمه مطلق، وتوقعات البشر تصيب وتخطأ.

قلت له أيضاً: من الممكن أن يتصرف الإنسان بطريقه لا ترضي الله، لكن تصرفه لن يأتِ ضد إرادته تعالى، فقد أعطي الله خلقه إرادة الاختيار، لكن تصرفاتهم تلك وإن كانت فيها معصية له، فهي لا تزال ضمن إرادة الله ولا يمكن أن تعاكسها لأنه تعالى لم يُعْطِ أحداً مجالاً لتجاوز مشيئته.

قال: فلماذا يسمح بالمعصية؟

قلت له: أحياناً عندما يصر ابني الصغير مثلاً على مساس النار وأقول له لا تفعل هذا الشيء، لكن في لحظة ما عندما أجده عنيداً أسمح له أن يمسه لكي يتعلم من تجربته، لأنني علمت بعلمي بشخصية ابني أن هذا الولد لن يتعلم إلا اذا جرب، والله المثل الأعلى، فالله يعلم طبيعة هذا الشخص ويعلم أنه لن يتعلم إلا اذا جرب، ولهذا نجد أن هناك كثيراً من الناس يتعرضون لاختبارات بسيطة من الله، وهناك بشر يتعرضون لاختبارات صعبة، هذا كله يعلمه سبحانه فرما يكون ذلك لأنه يعلم أن هذا الشخص لن يتعلم ولن يرجع إلى الله إلا باختبار صعب.

قال: ولماذا يجبرنا على الإيمان؟

قلت له: وهل أجبرك الله على الإيمان به؟ أنت تقف أمامي وتدّعي أنك غير مؤمن به.

إنك لا تستطيع أن تُجبر قلبك وتُكرهه على قبول شيء لا يريده، فإنه من الممكن أن تُجبر شخص على البقاء معك تحت التهديد والترهيب، لكن لا تستطيع إجبار هذا الشخص على أن يحبك، لقد حفظ الله قلوبنا من أي شكل من أشكال الاكراه، لهذا السبب هو يحاسبنا ويكافئنا بناءً على نوايانا وما تحمله قلوبنا.

وفي نهاية الزيارة كانت المفاجأة، طلب الأمريكي أن يلتقط صور داخل المسجد، وأثناء غياب الأمريكي جاءني الياباني وقال لي: أنا أعجبت جداً بهذا الدين، ما هذا الدين العظيم؟ أنا أريد أن أعتنق هذا الدين، وقد كانت مفاجئة مذهلة لي، حيث أنني لم أجد منه أي ردة فعل خلال الزيارة. وشهد الياباني أمام الأمريكي

فور عودته بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وما كان على الأمريكي إلا أن يبارك له، وطلب مني الياباني تفاصيل أكثر عن ممارسة هذا الدين، وقد أعطيته رقم تليفون المركز الاسلامي في طوكيو، وقد وعدني بأن يستمر على هذا الطريق.

يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه:

"الَّذِينَ يَخِشُونَ الْعَرْشَ وَهُمْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبُّهُمْ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ" ٢٠٨.

وتتجلى محبة الله ورحمته لعباده في خلقهم وتكرمهم وإرشادهم وبيان الطريق الحق لهم.

"وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ" ٢٠٩.

ومن الإشارات اللطيفة في القرآن الكريم أن الله قدم ذكر حبه لعباده على ذكر حب العباد له، وذلك من لطفه العظيم، ورحمته الواسعة بهم.

"...فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... " ٢١٠.

ومن الإشارات اللطيفة في القرآن الكريم أيضاً أن رحمة الله ولطفه تتجلى حتى فيما يصيب الإنسان من مصائب وضرر.

"أَلَا تَحْذَرُ الْآلِهَةَ إِن يَرُدِّنَا الرُّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ" ٢١١.

٢٠٨ (غافر: ٧).

٢٠٩ (الأعراف: ١٠ - ١١).

٢١٠ (المائدة: ٥٤).

٢١١ (يس: ٢٣).

فإذا شاء "الرحمن" أن يصيب الإنسان بالضرر، فإن هذا موجب لرحمته ولطفه، ويصير الأمر الذي ظاهره الضرر في حقيقته رحمة، وخيراً للمؤمن؛ لأن الرحمن لا يصدر عنه إلا الرحمة واللفظ والبر.

"وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" ٢١٢.

ومن رحمة الله بخلقه أن وزع الأرزاق بينهم، وجعل بينهم حاجات يقضيها أحدهم للآخر، ليتحقق التعاون فيما بينهم، بما يعود بالنفع على الجميع، ولو استغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزير والدليل، والعاجز والقادر، وأبقى باب العطاء والفضل الرباني مفتوحاً للتنافس فيه ولدوام التعلق به.

"أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ رَسُولًا نَحْنُ قَسَمْنَا لَبُثَّكُمْ مَعِيشَتَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلُوفًا" وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٢١٣.

وتتجلى رحمة الله في شريعته وأحكامه والتي هي خير ورحمة للخلق سواء ما يتعلق بهدايتهم وحفظ دينهم، أو ما يتعلق بحفظ أنفسهم وأبدانهم، عقولهم وأفكارهم، حفظ أعراضهم وأنسابهم وأولادهم، وحفظ أموالهم وممتلكاتهم.

فكل ما يتعلق بهذه الضروريات الخمس من أحكام إنما جاءت رحمة بالناس بالمحافظة عليها وحمايتها من الفساد والعدوان، ورفع الحرج والعنت عن الناس، وحفظ لكل ذي حق حقه، حتى يتسنى لهم العيش في بيئة صالحة وآمنة وسعيدة، حيث أن الحق في البيئة السليمة هو من ركائز حق الحياة.

٢١٢ (البقرة: ٢١٦).

٢١٣ (الزخرف: ٣٢).

"وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ أَلْحَزْتُ وَالسُّنُلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ" ^{٢١٤}.
يقول ابن القيم - ويذكر من باب الاعتبار والموعظة -: "أوحى الله إلى داود
عليه السلام فقال: يا داود لو يعلم المدبرون عني انتظاري لهم، ورفقي بهم،
وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم لمحبتني، يا داود
هذه إرادتي بالمدبرين عني فكيف بالمقبلين عليّ" ^{٢١٥}.

^{٢١٤} (البقرة: ٢٠٥).

^{٢١٥} روضة المحبين (ص ٤٣٨).

وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ:

كنت دائماً ما أتأمل ثناء الله سبحانه وتعالى على أخلاق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وكنت أتوق لأن أصل بإدراكي لروعة هذه الأخلاق، أريد أن أفهم نقطة التميز في شخصية هذا النبي العظيم. حتى لحظة وفاة أمي، وشعرت حينها بحزن شديد كاد أن يدمر حياتي لولا رحمة الله بي، ومع أنني كنت متزوجة في ذلك الوقت ولا أحتاج لرعايتها، لكن شوقي لها أفقدني الرغبة في التحدث مع الناس، وشعرت أن العالم يضيق من حولي، وأحسست بصعوبة فقدان حنان الأم، وتذكرت الرسول عليه الصلاة والسلام، وكيف عاش يتيمًا، وتنقل من بيت إلى بيت، وعاش يفتقد حنان الأم والأب. حينها قلت لنفسي: هذه الظروف التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم تُخرج إنسانًا معقد الشخصية لا محالة، فأدركت حينها أنه مختلف، وأنه عندما يخرج إنسان من هذه الظروف بهذه الشخصية العظيمة، فهو فعلاً بأخلاق فريدة من نوعها. وتذكرت الآية الكريمة: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"^{٢١٦}، وحينها سكنت نفسي.

^{٢١٦} (القلم: ٤).

لا نفرّق بين أحدٍ من رُسُلِهِ:

المستشرق البريطاني وعالم الآثار "ستانلي لي بول" قال: "كان محمدًا رؤوفاً شفيقاً، يعود المريض، ويزور الفقير، ويُجيب دعوات العبيد الأرقاء، وقد كان يصلح ثيابه بيده، فهو إذاً - لا شك - نبي مقدس، نشأ يتيماً مُعوزاً، حتى صار فاتحاً عظيماً" ^{٢١٧}.

أذكر أثناء حوارٍ مع مجموعة من جنسيات وثقافات وديانات مختلفة، وقد كنت أتكلّم عن التوحيد وصفات الجمال والجلال الإلهي، وأهمية عبادة الخالق بدون وسيط، كان قد قاطعني شخص من المجموعة بسؤال، حيث قال: من أعظم المسيح أم محمد؟

قلت له: أنت تسأل لتقارن بين إله وإله آخر؟ أم لتقارن بين رسول ورسول آخر؟ إن كنت تقارن بين إلهين، فلا إله إلا الله، فالمسيح رسول ومحمد رسول. وإن كنت تقارن بين رسول ورسول، فنحن لا نفرق بين أحد من رسل الله.

"أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ" وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ^{٢١٨}.

قال: إن كنتم تحبون المسيح فلماذا لا تحتفلون بميلاده؟

قلت له: أتقصد الاحتفال بميلاد المسيح ابن الله، أم ميلاد المسيح رسول الله؟ إن كان ميلاد ابن الله، فهذا مردود، لأن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. أما إن كان رسول الله؟ فنحن لا نعارض تذكره والثناء عليه في يوم ميلاده

^{٢١٧} كتاب - الأحاديث مع الجدول - كلام النبي محمد 1893. ستيفلي لين بول.

^{٢١٨} (البقرة: ٢٨٥).

بل وفي جميع الأوقات أيضاً، مع أنه ثبت أنه لم يولد في الشتاء أصلاً، ولكن الاختلاف على تحديد يوم ميلاده لا يؤثر على العقيدة في شيء.

قال: ولماذا لا تزوجون بناتكم لليهود والنصارى؟

قلت له: الزوج المسلم يحترم أصل دين زوجته النصرانية أو اليهودية وكتابها ورسولها، بل لا يتحقق إيمانه إلا بذلك، ويعطيها الحرية لممارسة شعائرها، والعكس ليس صحيحاً، فمتى آمن النصراني أو اليهودي بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله زوجناه بناتنا.

قلت له أيضاً: الإسلام إضافة واكتمال للعقيدة، فأنا إن أردت اعتناق النصرانية مثلاً، فعليّ أن أخسر إيماني بالنبي محمد والقرآن، وأخسر علاقتي المباشرة مع رب العالمين بالإيمان بالثالوث، وباللجوء إلى القساوسة والقسيسين وغيرهم، وإن أردت اعتناق اليهودية، فعليّ أن أخسر إيماني بالمسيح والإنجيل الصحيح.

وأذكر في لقائي لمجموعة كبيرة من دولة مالطا، وبعد عرض قصير لي عن

الإسلام، قالوا جميعهم وبصوت عالي وواحد: إذًا محمداً ليس إلهكم؟

قلت لهم: لا، محمد رسول الله، ولكن للأسف يُروّج لهذه الفكرة المغلوطة من

غير المسلمين، لتبرير عبادة المسيح وبوذا وغيرهم.

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِوِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" ٢١٩.

الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التّوراة والإنجيل:

قال المستشرق الأمريكي سنكس في كتابه "ديانة العرب": "ظهر محمد بعد

المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر بإشاراتها

الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبارجاعها إلى الاعتقاد بآله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة".

من المواقف الرائعة التي تعرضت لها في حياتي، وكان يومًا صعبًا لكثرة الزوار، وأعدادهم الهائلة التي تصل إلى الآلاف، ظهر رجل لاتيني في ذلك اليوم من بين مجموعات كثيرة ومتراصة من الزوار، وقد سألتني بالإسبانية: من هو البارقليط؟ قال معقبًا: أنا أسافر مع زوجتي وابنتي وأجول العالم باحثًا عن الحقيقة، وأريد أن أعرف من هي هذه الشخصية الذي تكلم عنها المسيح في الإنجيل^{٢٢٠}.

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ 'أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ' ٢٢١.

قلت له: البارقليط هو محمد عليه الصلاة والسلام.

قال: كيف هذا؟

قلت له: لا يؤمن المسلمون بأن العهد القديم والعهد الجديد الموجودان حاليًا بين أيديكم هما كلام الله لوجود التحريف فيهما، لكنهم يؤمنون بأن كلاهما له مصدر صحيح، والذي هو التوراة والإنجيل (وهو ما أوحاه الله إلى أنبيائه: موسى والمسيح عيسى). لذلك فإنه قد يوجد في العهد القديم والعهد الجديد ما هو من عند الله. ويعتقد المسلمون أن هذه النبوءة إن صحت، فهي تتكلم عن

^{٢٢٠} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ١٥-٢٦ - ١٦-١٤).

^{٢٢١} (آل عمران: ١٥٧).

النبي محمد، لأنها تتكلم عن نبي يأتي بعد أن يذهب المسيح، ويبقى بتعاليمه إلى الأبد.

قال: لكن هذه الشخصية لا ينبغي أن تكون بشراً بل روحاً، فهي تشير في النصرانية إلى الذات الثالثة في الثالوث، والتي تُعتبر إلهًا. قلت له: ارجع إلى كتابك وانظر كيف أُشير إلى الأنبياء بكلمة روح مراتٍ كثيرة. فمن الممكن أن تُطلق كلمة "روح" على إنسان في العهد الجديد. ووفقًا لما ذُكر في التاريخ، فقد فهم كثير من النصارى القدامى أن "البارقليط" رجل وليس روح، وقد ادعى رجال كثيرون قبل النبي محمد أنهم "البارقليط" المنتظر. وكان النجاشي ملك الحبشة نصرانيًا ينتظر قدوم "البارقليط".

قلت له مستطردة: وتقول النبوة أنه يتكلم بما يسمع، والحقيقة هذا وصف لنبي وليس لرب. فالنبي يتكلم بما يسمعه من الله. وهذا دليل على أن هذه النبوة لا تشير إلى الذات الثالثة في الثالوث (كما يعتقد النصارى) بل تشير إلى نبي يرسله الله.

قال: لكن النبوة تقول: البارقليط يُخبركم بأمر آتية.

قلت له: نعم، وهذا ما فعل النبي محمد عليه الصلاة والسلام. ومثال على ذلك انتصار الرومان بعد هزيمتهم على أيدي الفرس.

قلت له مستطردة: ثم أنه من المستحيل أن تشير هذه النبوة إلى الروح القدس، لأنها تقول: إن البارقليط سوف يظهر بعد ذهاب المسيح، والروح القدس موجود أصلاً، وقد ظهر للسيدة مريم قبل حملها بالمسيح حسب اعتقادكم.

وقد أثارت كلمة "Paraclete" جدلاً كبيراً، يدور حول أن كلمة "Paraklytos" في الإنجيل اليوناني كانت أصلاً "Periklytos"، وتغيرت

خلال ترجمتها من السريانية إلى اليونانية. كما أن كلمة "Paraclete" تحمل معنيين في اليونانية:

– مُعزِّي ومُؤَيِّد ومُساعد: (παράκλητος) Paraklytos كما يعتقد النصارى. وهذا يعتمد على نطق الكلمة الذي يحتوي على صوت حرف العلة "a".

– محمد أو أحمد (الإنسان الممدوح): (Περικλητος) Periklytos كما يعتقد المسلمون. أما نطق الكلمة هنا يكون بدون صوت حرف العلة "a". إضافةً إلى أن المعنى الثاني تؤيده الأدلة، فقد ثبت أن اللغة السريانية لم تحوِ حروف العلة حتى القرن الخامس، فقد احتوت على حروف الصراح فقط، أما حروف العلة فقد أُدخلت بعد القرن الخامس، ومع ذلك فإنه في كل الأحوال فإن كلا المعنيين ينطبق على النبي محمد^{٢٢٢}.

قال: النبوءة تقول: أن البارقليط سوف يُدين العالم، فكيف أَدان محمد العالم؟ قلت له: لقد أَدان النبي محمد اليهود على عدم إيمانهم بالمسيح عيسى كني مرسل من الله، كما أَدان النصارى على اعتقادهم بالثالوث وبادعائهم بألوهية المسيح: وهذا يُعد ذنبًا، حيث لم يدَّع المسيح أنه الله أو ابن الله قط. وعندما أشار المسيح إلى نفسه في الإنجيل بأنه ابن الله، أوضح أنه ليس الابن المولود، ولكن جميع البشر هم أبناء الله مجازًا، بمعنى عباد الله.

قال: ويرشد البارقليط الناس للحق، ومُجدد المسيح. قلت له: قد ذكّر النبي محمد العالم بالعقيدة الخالصة وهي (الإيمان بآله واحد وتوحيده في العبادة).

^{٢٢٢} www.fatensabri.com كتاب عين على الحقيقة. فatin صبري.

قلت له أيضًا: لم يُمَجِّد المسيح أحدًا على الأرض، كما مَجَّدَ محمد عليه الصلاة والسلام. حيث قال:

- "أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ قَالُوا: كَيْفَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عِلَاقٍ، وَأُمَمَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ (بَيْنَ الْمَسِيحِ عِيسَى وَبَيْنِي)" ٢٢٣.

- ذُكِرَ اسم المسيح عيسى في القرآن أكثر من اسم النبي محمد (٢٥ مرة مقابل ٤ مرات).

- فَضِّلَتَ مريم المسيح عيسى على نساء العالم وفقًا لما جاء في القرآن.
- السيدة مريم هي الوحيدة التي ذكرت باسمها في القرآن.
- هناك سورة كاملة في القرآن باسم السيدة مريم ٢٢٤.

أبدى لي الزائر وزوجته وابنته سعادة لا توصف، وقالوا: لو لم نخرج برحلتنا الطويلة هذه إلا بمجده المعلومات لكفتنا. لقد وجدنا الحقيقة، ونشكر الله أن هدانا إليها بعد طول عناء، لقد كان لدينا إيمانًا عميقًا بأن لا إله إلا الله والمسيح رسول الله، والآن نخرج من هنا بشهادة أن محمدًا رسول الله.

"وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" ٢٢٥.

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

في حوار لي مع مجموعة من اليهود الكنديين، وبعد أن تكلمت عن التوحيد، قال لي أحدهم: ما مشكلتكم أنتم المسلمون معنا؟

٢٢٣ (صحيح مسلم).

٢٢٤ www.fatensabri.com كتاب عين على الحقيقة. فتن صبري.

٢٢٥ (الصف: ٦).

قلت له: المسلم ليس لديه مشكلة مع أحد، لقد آمن بعتسى وموسى وغيرهم من الأنبياء، وعبد الله وحده.

قال: وأنا لا أرى مشكلة من أن يكون محمدًا رسولاً.

قلت له: أو تجعل الإيمان به، ركن من أركان إيمانك؟
قال: لا.

قلت له: الإيمان بموسى ركن من أركان إيمان المسلم.
قال: لم يُذكر محمدًا في كتبنا.

قلت له: ومن هو المقصود في هذه الفقرة من العهد القديم؟
"ويُدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف القراءة"^{٢٢٦}.

هل تنطبق هذه النبوءة على أحد غير محمد النبي الأمي؟ فإنه حتى مولد المسيح عيسى عليه السلام كان بني إسرائيل (يعقوب) ينتظرون قدوم نبي والمسيح^{٢٢٧}.
قال: لا أعرف، نحن لا زلنا ننتظر المسيح والنبي المنتظر. واستطرد قائلاً: لقد نسخ محمد من التوراة.

قلت له: وهل ادعى اليهود في زمن نزول الوحي ذلك؟
قال: لا.

قلت له: لو كان القرآن من عند اليهود لكانوا أسرع الناس في نسبته لأنفسهم.
وقلت له أيضاً: ألم تختلف التشريعات والمعاملات من صلاة وحج وزكاة؟ ثم
انظر إلى شهادة غير المسلمين بتميز القرآن عن غيره من الكتب وعدم بشريته

^{٢٢٦} (العهد القديم، سفر أشعيا ٢٩: ١٢).

^{٢٢٧} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ١: ١٩-٢١).

واحتوائه على الإعجاز العلمي. وإنه عندما يعترف صاحب عقيدة ب صحة العقيدة التي تخالفه هو أكبر دليل على صحتها. هي رسالة واحدة من رب العالمين وينبغي أن تكون واحدة، ما جاء به النبي محمد ليس دليلاً على تدليسه، بل على صدقه. ولقد تحدى الله العرب المتميزين بالبلاغة آنذاك وغير العرب بأن يأتوا حتى ولو بآية واحدة بمثله وفشلوا، وما زال التحدي قائماً. قال: ليس هناك إعجاز علمي في القرآن، ولكن محمدًا قد نسخ هذه المعلومات من الحضارات السابقة.

قلت له: وهل كل ما وُجد عند الحضارات القديمة من علوم كان صحيحاً؟ قال: لا. كان منها الصحيح، ومنها الكثير من الأساطير والخرافات. قلت له: وكيف استطاع نبيُّ أميَّ نشأ في صحراء مقفرة أن ينسخ من هذه الحضارات الصحيح فقط ويترك الأساطير؟ قال: وما رأيكم بزوجة آدم الأولى التي تزوجها قبل حواء؟ بصراحة لم أتمالك نفسي من الضحك على هذه المعلومة الغريبة، والتي لم أسمعها قط في حياتي.

قلت له: هذه الشخصية لم يتكلم عنها الإسلام أبداً، ولكن ماذا يُضيف الإيمان بوجود هذه الشخصية إلى عقيدتكم؟ قال: لا شيء.

قلت له إذاً فكر ملياً بما يضيف إلى عقيدتك، وهو الإيمان بالإله الحق المنزه عن التعب والنسيان، والإيمان بكل أنبيائه بما فيهم المسيح ومحمد. قال: ولماذا أهمل محمد قبلة الأنبياء؟

قلت له: ولماذا أهمل اليهود السامراء قبلة بيت المقدس، ويصلون إلى طور هم في فلسطين؟

قلت له أيضًا: إن استقبال اليهود لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، فليس في التوراة أمر باستقبال الصخرة أبدًا، بل هو بناءً على اختيار منهم، أما النصارى فلم يأمرهم الله في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا^{٢٢٨}.

قلت له أيضًا: قد أخبرنا القرآن أن البيت الحرام في مكة كان في الواقع هو أول بيت للعبادة مخصصًا للبشرية، ورفع بنيانه النبي إبراهيم وابنه إسماعيل فيما بعد. ومن المعروف جيدًا أن المعبد في القدس بُني بعد النبي إبراهيم بزمن طويل، بينما كان البيت الحرام في مكة قبل إبراهيم.

"إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ"^{٢٢٩}.

ولقد ذكرت الكعبة على مر التاريخ، يزورها الناس سنويًا حتى من أبعد بقاع الجزيرة العربية، وتحترم قدسيته كل الجزيرة العربية.

ولقد ورد ذكرها في نبوءات العهد القديم، "عابرين في وادي بكة يصيرونه ينبوعا"^{٢٣٠}.

وقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، وعند بعثة النبي محمد جعل الله قبلته في بادئ الأمر بيت المقدس، ثم أمره الله بالتحول عنها إلى البيت الحرام حتى يستخلص من أتباع النبي محمد المخلصين لله من الذين ينقلبون

^{٢٢٨} http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=5664#_ftn6 ذكرور عيسى القدومي.

^{٢٢٩} (آل عمران: ٩٦).

^{٢٣٠} (العهد القديم، المزمير: ٨٤).

عليه. فقد كان الهدف من تحول القبلة هو استخلاص القلوب لله وتحريرها من التعلق بغيره، حتى استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجههم لها الرسول، وقد كان اليهود يعتبرون توجه الرسول بالصلاة لبيت المقدس حُجَّةً لهم. وقد كان تحويل القبلة أيضًا بمثابة نقطة تحول وإشارة إلى انتقال القيادة الدينية إلى العرب بعد أن نُزعت من بني إسرائيل، وذلك بسبب نقضهم للعهد مع رب العالمين.

قال: عليّ أن أذهب الآن، ونحن بعقيدتنا لا نصافح النساء لأنهن بمستوى أدنى من مستوى الرجال، لكن سوف أضافحك أنت فقط، تقديرك لِعِلْمِكَ. قلت له: أما نحن فبعقيدتنا لا نصافح الرجال، لأننا مُكرّمات كالمملكات، وبالتالي فلن أضافحك.

تقول الكاتبة الإيطالية الدكتورة "لورا فيتشا فاليري":

"في بلد قفر بواحد غير ذي زرع، منعزل عن الإنسانية المتمدنة، تفجر ينبوع ماء سلسل عذب منعش بين قوم من الهمج، جبايرة غلاظ القلوب، لا يخضعون لسلطان، ولا يتقيدون بقيد، ذلك الينبوع هو دين الإسلام الذي تدفق بغزارة واتخذ سبيله في الأرض سرّياً، فكان نُهْيراً استحال بعده إلى نهر عظيم سرعان ما تفرعت منه آلاف الجداول والأنهار، التي تغلغت في البلاد طولاً وعرضاً، ولم يلبث الناس أن تذوقوا هذا الشراب العجيب، وشفوا من أمراضهم الاجتماعية. إن رجال الغرب قد بدأوا يقتنعون بأن إخلاص محمد في دعوته كان أمراً لا ريب فيه، ولقد كان محمد كرسول يدعو إلى الله، رجلاً رحيماً لِيَن الجانب حتى لأعدائه الشخصيين، وبذلك اجتمعت فيه فضيلتان كلتاها أكبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري: الرحمة، والعدالة، ولا نر بنا من حاجة إلى إيراد الأمثلة

على ذلك، فمن السهل الوقوف على كثير منها في الكتب المتوفرة عن تاريخ حياته^{٢٣١}.

قَالَ أُولُو جُنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ:

في حوارٍ مع ملحد كان قد استهزأ بمعجزة الإسراء والمعراج، وكيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم الوصول إلى بيت المقدس والعروج إلى السماء والعودة في نفس الليلة؟

قلت له: أنا اليوم حصل معي ما هو أعجب، أثناء إلقاء محاضرة لي كنت متواجدة في أكثر من عشرين دولة في الوقت نفسه.

ضحك، وقال: تقصدين وسائل التواصل الاجتماعي طبعاً.

قلت له: لقد أوصلت التكنولوجيا البشرية صوتي وصوري إلى كل أنحاء العالم في نفس اللحظة، أفلا يستطيع خالق البشرية قبل أكثر من ١٤٠٠ عام أن يعرج بنبيه بالروح والجسد إلى السماوات.

إن رحلة الإسراء والمعراج جرت وفق طلاقة القدرة والمشية الإلهية والتي هي أعلى من مداركنا، وتختلف عن جميع القوانين التي نعرفها، وهي آيات وبراهين على قدرة رب العالمين، كون أنه من سنّ ووضع هذه القوانين. يقول ابن القيم:

"كانت رحلة الإسراء اختباراً جديداً للمسلمين في إيمانهم وبقينهم، وفرصة لمشاهدة النبي - صلى الله عليه وسلم - عجائب القدرة الإلهية، والوقوف على حقيقة المعاني الغيبية، والتشريف بمناجاة الله في موطن لم يصل إليه بشر قط،

^{٢٣١} كتاب محاسن الإسلام. أحمد يوسف السيد.

إضافةً إلى كونها سببًا في تخفيف أحزانه وهمومه، وتحديد عزمه على مُواصلة دَعْوَتِهِ والتَّصَدِّي لِأَذَى قَوْمِهِ".

لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة:

قال غاندي الزعيم الهندي الشهير في حديث لجريدة "ينج انديا" وتكلم فيه عن صفات النبي محمد حيث قال عنه:

"أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر. لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقته في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة".

في حوار لي مع نصراني من الكاميرون وصديقه البريطانية، وأثناء ما كنت أقول لا إله إلا الله، قاطعني بقوله:

ولماذا تحرش محمدٌ بطفلة صغيرة؟

قلت له: أفهم من مقاطعتك لي أنك موافق على أنه لا إله إلا الله، ومشكلتك الآن مع تفاصيل حياة الرسول.

قال: لا، لا لا أوافق، المسيح أيضًا إله.

قلت له: ولماذا لا تناقشني بنفس النقطة التي أتكلم فيها إداً؟

قال: لا تجيبي على سؤالي بسؤال، لماذا تحرش رسولكم بطفلة؟

قلت له: ومن أخبرك بهذا؟

قال: كتاب البخاري الذي تؤمنون به.

قلت له: ألم تقرأ في البخاري أنه زواجًا وليس تحرشًا؟ وهل اشتكت السيدة عائشة في البخاري ذلك قط؟

ألم تقرأ في البخاري ما يتكلم عن حب السيدة عائشة الشديد للرسول عليه الصلاة والسلام؟ وهل تحب البنت المتحرش بها؟
وكم كان عمر السيدة مريم عندما أنجبت المسيح؟ وكم كان عمرها في عقيدتكم عندما كانت مخطوبة لرجل تسعيني قبل حملها بالمسيح؟ أليس عمر مقارب لعمر السيدة عائشة عند زواجها بالرسول؟

قلت له مستطردة: العجيب أنه في ذلك الوقت، أعداء الرسول اتهموه بأبشع التهم، وقالوا عنه شاعر ومجنون، ولم يُعيّره أحد بهذه القصة ولم يذكرها أحد قط إلا أنتم الآن. فهذه القصة إما أن تكون من الأمور الطبيعية التي درج عليها الناس في ذلك الوقت، حيث يروي لنا التاريخ قصص لزواج الملوك في سن صغيرة، كقصة ملكة إنجلترا إيزابيلا في القرن الحادي عشر التي تزوجت في الثامنة من عمرها وغيرها^{٢٣٢}، أو أن قصة زواج الرسول لم تحدث بالطريقة التي تتصورونها أنتم.

قال: ولماذا تزوج محمد بتسع نساء وحرّم ذلك على أصحابه؛ بتحديدده الزواج لهم من أربع نساء فقط؟

قلت له: ولماذا - حسب زعمكم - اتهمتم أنبياء الله بالزنى كما ذكر في كتابكم؟ وحاشاهم فعل ذلك.

^{٢٣٢} <http://muslimvilla.smfforfree.com/index.php...>

<https://liguopedia.wordpress.com/.../19/agnes-de-france/...>

قال: ليعلمونا أن الزنا حرام.

قلت له: عجيب! تُؤمنون أن أنبياء الله اقترفوا الكبائر من زنا وقتل وشرب خمر بحجة تعليم أتباعهم الصحيح من الخطأ وتستنكرون زواج الرسول زواجاً شرعياً بأمر من الله ليعلم المسلمين دروساً وعبر.

الرسول في حياته وقبل نبوته بقي في زواجه ٢٥ عاماً دون أن يتزوج بامرأة أخرى، وكانت زوجته تكبره — ١٥ عاماً. وتزوج الرسول بعد بعثته بأكثر من واحدة بأمر من الله، وعندما نزلت آية تحديد الزواج بأربعة فقط، كان الرسول لديه أكثر من أربع نساء، وباعتبارهن أمهات المؤمنين فإنهن لا يستطعن الزواج بغيره إن طلقهن.

ولماذا قاتل محمد أعداءه؟ فلم يكن المسيح مقاتلاً، بل كان محباً لأعدائه.

قلت له: ولماذا آمنت بموسى إذاً وقد كان مقاتلاً، وآمنت بداوود وقد كان مقاتلاً؟

تولى موسى ومحمد مقاليد الأمور السياسية والدنيوية، وهاجر كل منهما من المجتمع الوثني، فخرج موسى بقومه من مصر، وكانت هجرة محمد إلى يثرب وقبلها هاجر أتباعه إلى الحبشة، وذلك هروباً من النفوذ السياسي والعسكري في البلاد التي فروا منها بدينهم. ووجه الاختلاف لدعوة المسيح عليه السلام هو أنها كانت لغير وثنيين وهم اليهود (خلاقاً لموسى ومحمد لأن بيئتهما وثنيتان: مصر وبلاد العرب)، الأمر الذي كانت معه الظروف أشد وأصعب، فالتغيير المنوط بدعوتي موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام هو تغيير جذري وشامل ونقطة نوعية هائلة من الوثنية إلى التوحيد.

قلت له مستطردة: إن عدد ضحايا الحروب التي دارت في زمن الرسول لا تتجاوز الألف شخص فقط، والتي كانت دفاعاً عن النفس ورداً للعدوان أو تأميراً للدين، انظر لعدد الضحايا التي وقعت بسبب حروب شنت باسم الدين في الديانات الأخرى، قد كانت بالملايين.

قال: إن غزوات رسولكم كانت سلماً ونهياً.

قلت له: ظل النبي يدعو بدعوته في مكة ١٣ عاماً وتحمل اضطهاد قريش ولم يكن له غنائم، وما كان يُؤخذ من غنائم لاحقاً هو إما مال من أهل الحرب يأخذه المسلمون حتى لا يتقوى العدو بها على محاربتهم، وإما استرداداً لأموال المهاجرين التي أخذت منهم عنوة، وهذا يختلف عن النهب الذي يترتب عليه إزهاق لأنفس بريئة كالنساء والأطفال. وقد قام الرسول الكريم بتوزيع الغنائم على من أسلم لتأليف القلوب وعلى غير المسلم لتحبيبه في الإسلام، ودعا إلى الصفح ورد الحقوق إلى أصحابها، وقد تفوق الإسلام على اتفاقية جنيف بشأن حقوق الأسرى في الحروب، فكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام يأمر أتباعه بمعاملة الأسرى معاملة حسنة وأن يقدموهم على أنفسهم في المأكل والملبس.

قال: كان الملائكة الذين نزلوا لمساعدة المسلمين في معركة بدر ضعاف البأس

ولم يقتلوا كل المشركين آنذاك.

قلت له: إذن فأنت تصدق بنزول الملائكة.

قال: لا، ولكن أجاريكم في الرأي.

قلت له مبتسمة: المقصود من نزول الملائكة في معركة بدر هو تثبيت قلوب المؤمنين في المعركة وتعليمهم أن الله يُعين من يلجأ إليه ويتوكل عليه. كما أن الله لم يشأ أن يقتل جميع المشركين لعلمه أن منهم من سيعتق الإسلام لاحقاً.

قال: ولماذا لم تنزل الملائكة في معركة أحد؟

قلت له: الدرس هنا مختلف، وهو عن أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية وأهمية طاعة القائد.

قال: ومذبحة يهود بنو قريظة، وخذ الخرابة، أليست هذه وحشية؟

قلت له: وما عقاب الخائنين وناقضي العهود في قوانين الأمم المتحدة اليوم؟
تحليل فقط مجموعة عقدت العزم على قتلك وقتل أهلك جميعًا وسلب أموالك؟
ما كنت أنت فاعل بهم؟

يهود بني قريظة نقضوا العهد، وتحالفوا مع المشركين للقضاء على المسلمين، فعاد كيدهم في نحرهم. حيث طُبّق عليهم قصاص الخيانة ونقض العهود الوارد في شريعتهم تمامًا، بعدما سمح رسول الله لهم أن يقوموا باختيار من يحكم في أمرهم، وهو أحد صحابة الرسول، وقد حكم عليهم بتطبيق القصاص الوارد في شريعتهم^{٢٣٣}.

قال: انتشر الإسلام بالسيف ولم ينتشر بالسلم.

قلت له: بدايةً، كلمة سيف لم تُذكر في القرآن الكريم ولا مرة واحدة، وقد حكم المسلمون الهند فترة طويلة من الزمن ولم يقتلوا الهندوس والنصارى ولم يجبروا الجميع على الإسلام بالقوة. أما عاش اليهود والنصارى في بلاد الأندلس تحت حكم الإسلام يمارسون عقائدهم وينعمون بحقوقهم؟ إن البلاد التي لم يشهد فيها تاريخ الإسلام حروبًا هي التي يقيم فيها أكثر مسلمي العالم، مثل أندونيسيا والهند والصين وغيرها. والدليل على ذلك وجود النصارى والهندوس وغيرهم إلى يومنا الحالي في البلدان التي فتحها المسلمون، بينما لا يوجد

^{٢٣٣} تاريخ الإسلام " (٢ / ٣١٨ - ٣٠٧).

مسلمين إلا القليل في البلدان التي استعمرها غير المسلمين، والتي كانت حروب إبادة جماعية وإجبار للقاصي والداني على اعتناق عقيدتهم كالحروب الصليبية وغيرها.

وكثيراً ما نجد في الغرب وفي أماكن كثيرة من العالم من يقول: إننا لم نكن نعتقد بوجود دين على وجه الأرض يقول بلا إله إلا الله. فقد اعتقدنا أن المسلمون يعبدون محمدًا، وأن المسيحيون (النصارى) يعبدون المسيح، وأن البوذيون يعبدون بوذا، الخ، وهم في شغف شديد لعبادة الله وحده. فمن هنا يتبين لنا جميعاً أهمية الفتوحات الإسلامية والتي كان ولا زال ينتظرها الكثير، والتي هدفها إيصال رسالة التوحيد فقط مع كفالة حرية الاعتقاد، كما حدث في فتح مصر وفي بلاد الأندلس وغيرها الكثير. ويتضح معنى مصطلح "جهاد الطلب" والذي هدفه مقاتلة من يقف أمام تبليغ رسالة التوحيد ومنع الدعوة لعبادة الله وحده. فجأني بقوله: أنا فقط للعالم نبيُّ مُرسل، وقد كنت أختبرك.

ابتسمت وقلت له: تشرفنا بحضوركم، أنا للأسف لم أكن أعرف ذلك، سوف أقوم باستدعاء زميل لي هنا في المركز ليكمل الحوار معك.

واستدعيت زميل لي، حيث أنني لم أستطع إكمال حوار مع لإرهاقي الشديد، وقد تبين لي أنه متلاعب.

جاء زميلي وقال: أهلاً بك يا سيدي، كيف يمكنني مساعدتك؟

قال: أنا نبيُّ مُرسل وأستطيع ان أتنبأ بمستقبلك الآن.

قال له زميلي: ولماذا المستقبل، نحن في الحاضر، أنا اليوم أعاني من وجع ما،

فأخبرني بما أعاني منه منذ الصباح؟

قال: لا، لا. الأمور لا تسير هكذا.

قال له: وكيف تسير إذًا.

قال: عليّ أن أغادر المكان حالاً، شكرًا لكم على الاستضافة.

تقول الكاتبة الإيطالية الدكتورة "لورا فيتشا فاليري" أيضًا:

"وحسبك أن الحروب التي هي أقصى ضرورات الحياة الإنسانية قد صارت بفضل محمد أقل وحشية وقسوة؛ إذ إنه كان يطلب من جنوده ألا يقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا، ولا يهدموا بيوتًا لم تتخذ كمعاقل حربية ولا يدمروا ما بها من أسباب الحياة، ولا يمسوا الأشجار المثمرة والنخيل"^{٢٣٤}.

إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا:

قال إدوار مونتيه مدير جامعة جنيف في محاضرة له: "إن الإسلام دين سريع الانتشار، ينتشر من تلقاء نفسه دون أي تشجيع تقدمه له مراكز منظمة، وذلك لأن كل مسلم مبشر بطبيعته، المسلم شديد الإيمان، وشدة إيمانه تستولي على قلبه وعقله، وهذه ميزة في الإسلام ليست لدين سواه، ولهذا السبب ترى المسلم الملتهم إيمانًا يبشر بدينه أينما ذهب وأينما حل، وينقل عدوى الإيمان الشديد لكل من يتصل به من الوثنيين، وإضافة إلى الإيمان، فالإسلام تمشي مع الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وله قدرة عجيبة على التكيف بحسب المحيط وعلى تكيف المحيط حسب ما يقتضيه هذا الدين القوي"^{٢٣٥}.

في حوار لي مع قساوسة من الكنيسة الأرثوذكسية في أنيوبيا، دار بيننا هذا الحوار:

^{٢٣٤} كتاب محاسن الإسلام. أحمد يوسف السيد.

^{٢٣٥} الحقيقة مجموعة أدب بارع وحكمة بليغة. سليمان بن صالح الخراشي.

قال أحدهم: لماذا يُقتل المرتد في الإسلام، وقد ضمن الإسلام حرية العقيدة كما تدعون؟

قلت له: الإيمان علاقة بين العبد وربّه، متى أراد قطعها فأمره إلى الله، لكن متى أراد أن يجاهر بها ويأخذها كذريعة لمحاربة الإسلام وتشويه صورته وخيائنه، فمن بديهيات قوانين الحرب الوضعية حتمية قتله، وهذا ما لا يختلف عليه أحد. قال: قال المسيح: أحبوا أعداءكم، وقال المسيح أيضًا: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. أما محمد فقد حارب أعداءه.

قلت له: أما ما يُنسب إلى المسيح عليه السلام من قوله: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر فليس لدينا ما يدل على ثبوته حتى نبني عليه أحكامًا، ولو صح هذا القول، فقد يكون المقصود هنا العفو عن المسيء، ولكن ليس الذل والخنوع. ألم يقل المسيح في كتابكم أيضًا: "لا تظنوا أنني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا وناظرًا وانقسامًا"^{٢٣٦}.

هناك أوامر صدرت من المسيح لأتباعه بأن لا يُقاوموا الأعداء، فلو أمرهم بمقاومة مضطهديهم لكان ذلك فيه القضاء على دعوته منذ بدايتها. ولذلك فإن مقولة من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر إن صحت، فهي ليست قاعدة عامة ومطلقة، وإنما هي تعبير عن منهج عمل في ظروف خاصة، ولا أعتقد أن المسيح يُضيع حقوق الناس، لأن الضرب حالة اعتداء على الآخرين تترتب عليها حالة قصاص.

كما تجلّت رحمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وتمكين الله تعالى له، حينما قال: اليوم يوم المرحمة. وأصدر عفوه العام عن قريش التي لم تدّخر

^{٢٣٦} (العهد الجديد، إنجيل متى ١٠: ٣٤).

وسعاً في إلحاق الأذى بالمسلمين، فقابل الإساءة بالإحسان، والأذية بحسن المعاملة.

"وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ" اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ^{٢٣٧}.

ومن صفات المتقين:

"...وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ" وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^{٢٣٨}.

قال: لماذا عفا المسيح عن الزانية بينما أقام محمد حد الزنا؟

قلت له أولاً: هناك اتفاق تام بين اليهودية والنصرانية والإسلام على تشديد العقوبة على جريمة الزنا^{٢٣٩}.

وفي النصرانية: شدد المسيح في معنى الزنا، فلم يجعله قاصراً على الفعل المادي المحسوس، بل نقله إلى التصور المعنوي^{٢٤٠}. وقد حرمت النصرانية على الزناة أن يرثوا ملكوت الله، وليس لهم بعد ذلك من قرار سوى العذاب الأبدي في جهنم^{٢٤١}. وعقاب الزناة في هذه الحياة هو ما قرره شريعة موسى، أي القتل رجماً^{٢٤٢}.

وكما ويعترف علماء الكتاب المقدس اليوم أن قصة عفو المسيح عن الزانية في الواقع لا وجود لها في أقدم نسخ إنجيل يوحنا، ولكنها أضيفت إليه فيما بعد، وهذا ما تقرره التراجم الحديثة. وأهم من هذا كله أن المسيح كان قد أعلن في بدء دعوته أنه ما جاء لينقض ناموس موسى والنبیین من قبله، وأن زوال السماء

^{٢٣٧} (فصلت: ٣٤).

^{٢٣٨} (آل عمران: ١٣٤).

^{٢٣٩} (العهد القديم، سفر اللاويين ٢٠: ١٠ - ١٨).

^{٢٤٠} (العهد الجديد، إنجيل متى ٥: ٢٧ - ٣٠).

^{٢٤١} (العهد الجديد، ١ كورنثوس ٦: ٩ - ١٠).

^{٢٤٢} (العهد الجديد، إنجيل يوحنا ٨: ٣ - ١١).

والأرض أيسر عليه من أن تسقط نقطة واحدة من شريعة موسى^{٢٤٣}. ومن ثم لا يمكن أن يعطل المسيح شريعة موسى بترك المرأة الزانية بلا عقاب^{٢٤٤}. ويُقام الحد بشهادة أربعة شهود، مع وصف حادثة الزنا بما يؤكد وقوعه، وليس مجرد تواجد رجل مع امرأة في مكان واحد، وإذا تراجع أحد الشهود عن شهادته يوقف الحد. وهذا يفسر قلة وندرة إقامة حدود الزنا في الشريعة الإسلامية على مدى التاريخ، لأنه لا يثبت إلا بهذه الطريقة، وهذا أمر عسير، بل يكاد يكون مستحيلاً إلا باعتراف المرتكب.

ومن المبادئ العامة في الإسلام فيما يتعلق بإقامة الحدود المقررة على الخطأ أنه:

- يجب التحرز تماماً والتأني، وتلمس المعاذير ودرء الشبهات التي تجعل

ضمير القاضي غير مستريح للحكم بإقامة الحد؛ وذلك لحديث

رسول الله: "ادروا الحدود بالشبهات".

- من أخطأ وستره الله ولم يظهر خطيئته للناس فلا حد عليه؛ فليس

من الإسلام تتبع عورات الناس والتجسس عليهم.

- في حالة إقامة حد الزنا بناءً على اعتراف أحد الخاطفين - وليس بناءً

على شهادة الشهود الأربعة - فلا حد على الطرف الثاني الذي لم

يعترف بجرمه.

"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"^{٢٤٥}.

^{٢٤٣} (العهد الجديد، إنجيل لوقا ١٦: ١٧).

^{٢٤٤} <https://www.alukah.net/sharia/0/82804> من مقال تشديد العقوبة على جريمة الزنا في اليهودية والمسيحية

والإسلام. اللواء المهندس أحمد عبد الوهاب علي.

^{٢٤٥} (النساء: ١٧).

"وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا" ٢٤٦.

"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" ٢٤٧.

وقد جاءت امرأة معترفة بطواعيتها -من غير إكراه- إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب منه أن يقيم عليها الحد، وكانت حبلى من الزنا. فدعا نبي الله وليها وقال له: أحسن إليها، وهذا يدل على كمال الشريعة وكمال رحمة الخالق بالخلق.

وقال لها الرسول: ارجعي حتى تلدي.

وعندما عادت قال لها: ارجعي حتى تفتمي ابنك، وبناءً على إصرارها على العودة بعد فطام الصغير إلى الرسول أقام عليها الحد، وقال: لقد تابت توبة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم.

فرحمة الرسول عليه الصلاة والسلام تجلت في هذا الموقف النبيل.

إني رسول الله إليكم جميعًا:

في زيارة نادرة لرهبان معبد بوذي من دولة تايلاند، وكانوا ثلاثة رهبان قد جاءوا برفقة وفد دبلوماسي من السفارة التايلندية، وكان الرهبان يرتدون ما أشبه بملابس إحرام المسلمين ولكن بترقالية اللون. وقد أعطينا تعليمات في بداية الزيارة أن الرهبان لا يصفحون النساء، وأنه يجب عليّ أن أركع مع طاقم عمل السفارة على زُكي عند أخذ الصورة التذكارية معي داخل المسجد كُمشرفة للحولة، بينما يبقى الرهبان واقفين على أرجلهم باعتبارهم أعلى مقامًا من الجميع.

٢٤٦ (النساء: ١١٠).

٢٤٧ (النساء: ٢٨).

فقلت لهم: أما بالنسبة للمصافحة فأنا لا أصافح الرجال، لكن بالنسبة للصورة فلن أتصور إلا واقفة، ولا أركع إلا لله، فإذا لم يُرَق لكم هذا فسوف أخرج من الصورة، فوافقوا والتقطت الصورة لنا وأنا واقفة إلى جانب الرهبان على مسافة بعيدة، وطاقم السفارة جالسون على الأرض.

قال لي أحد الرهبان وكان أكثرهم إجادةً للغة الإنجليزية: ما هي تعاليم دينكم؟ قلت له: تعاليم ديننا شبيهة بتعاليم دينكم ولكن نحن نتبعها كاملة وأنتم اختصرتوها.

قال: وكيف ذلك؟

قلت له: الوصايا التي لديكم بخصوص احترام حقوق الإنسان بما فيها عدم القتل واحترام حق الجار والعطف على المسكين موجودة في تعاليم كل ديانة على وجه الأرض بما فيها الهندوسية واليهودية والنصرانية، وهي في الإسلام أيضاً. لكن الفرق بين الإسلام وباقي الديانات، أن باقي الديانات همشت الوصية الأولى وتغاضت عنها وأبقت على الباقي.

قال: وما هي الأولى؟

قلت له: الإيمان بإله واحد أحد، والذي يُلجأ إليه عند الشدائد.

قال: أتقصدون غواتاما بوذا؟

قلت له: لا. أنا أفصد الحقيقة الوحيدة والقوة التي في السماء، خالق بوذا وكل البشر، والذي يلجأ إليه الجميع حين تنقطع بهم السبل، ويستنفدون كل الوسائل لنجاتهم من الأزمات.

قلت له مستطردة: ألا يلجأ البوذي عند خوفه الشديد من صوت الرعد إلى القوة التي في السماء لطلب الحماية؟

قال: نعم. ولكن ما الدليل أن هذه كانت من ضمن الوصايا التي نتبعها؟
قلت له: الدليل أنكم تمارسونها دون أن تشعروا ودون أن تكتبوها في كتبكم.
وقد علمكم بوذا الإسلام بإقراره أن الموت حق، وإعطائه وصف للحياة الأبدية
التي لا موت فيها ولا ألم، وهي ما تُطلقون عليها اسم "نيرفانا".
يقول أحد العلماء المشهورين "آرثر ليلي": إن الكلام التالي كان منحوت على
حجر: (ما كان يعتقد به تلاميذ بوذا عن الإله، الروح ومستقبل الإنسان).
"نعترف ونؤمن بالله، الذي هو كائن يستحق من أجل هذا (إيمان) ٢٤٨".
قال: لكن بوذا إله.

قلت له: وهل يقول إله عن نفسه: أنا لست أول بوذا ولن أكون آخر بوذا
٢٤٩

لم يطالب "غواتاما بوذا" أيًا من أتباعه لأن يعبدوه هو كإله أو عبادة أي شيء
أو أي شخص آخر، فالطريق الديني الذي انتهجه وسار عليه كان نفس الطريق
الذي سار عليه بوذا آخر وتنبأ به من قبل. كما أن "غواتاما" استخدم كلمة
"بوذا" بسياق كلمة "نبي" وعنى بذلك الشخص الذي يتم تنويره بالوحي الإلهي.
بوذا قال أيضًا: "يجب على الجميع أن يؤمنوا بـ (مايتريا) النبي القادم" ٢٥٠.
تحمل كلمة "مايتريا" أو "ميتا" في اللغة البالية وجميع الكلمات المقابلة المستخدمة
في البورمية والصينية والتبتية واليابانية نفس المعنى؛ وهي "رحمة" باللغة العربية ٢٥١.
(حيث أشار الله سبحانه في القرآن الكريم إلى النبي محمد بأنه رحمة للعالمين).

٢٤٨ اقتباس من كتاب "الهند في المسيحية البدائية"، صفحة ٨٥.

٢٤٩ (Gospel of Buddha by Carus pg.217 and 218 from Ceylon sources).

Arshagyanam page 282 ٢٥٠

Prophecy on The Coming of Prophet Muhammad (SAW) in Other Scriptures – Zakir Naik ٢٥١

"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" ٢٥٢.

قال: عجيب! أو تجزمون أن بوذا كان نبياً مُرسل وتنبأ بقدوم نبيكم؟ قلت له: نحن لا نجزم أبداً، ولم يُذكر اسم بوذا أبداً في القرآن الكريم، لكن نرى أن هناك تشابهات بين الديانات بصورة ملفتة للنظر، مما لا يُستبعد أن يكون مصدرها واحد وهو من الخالق، وقد اختلفت بسبب تحريفات البشر. وقد أكد القرآن في أكثر من مناسبة أن الله أرسل إلى جميع الأمم رسلاً وأنبياءاً للتذكير بعبادة خالق واحد أحد، وذكر أسماء البعض ولم يذكر آخرين. قال: وهل من دليل على نبوة محمد في كتب الهندوسية أيضاً. قلت له: نعم.

"إنه نيراشانزا أو الشخص الممدوح (محمد) إنه كاراما: أمير السلام أو المغترب، وهو آمن، حتى بين مجموعة من ستون ألف وتسعون من الأعداء. إنه يركب الجمال، وتمس مركبته السماء" ٢٥٣.

"نيراشانزا" رجل الحمد" يشير إلى النبي محمد. المعنى الفعلية للكلمة العربية "محمد" هو: "الرجل المحمود"، وليس من المعروف بالضبط عدد أعداء النبي محمد في ذلك الوقت، ولكن ثبت أن هناك الآلاف.

عندما هاجر النبي محمد من مكة - المدينة التي وُلد فيها واضطر إلى مغادرتها بسبب مؤامرة اغتياله - إلى المدينة المنورة، ذهب على الجمل. قلت له مستطردة: ويوجد غيرها الكثير ٢٥٤.

http://www.irfi.org/articles3/articles_4601_4700/prophecy%20on%20the%20coming%20of%20prophet%20muhammadhtml.htm

٢٥٢ (الأنبياء: ١٠٧).

٢٥٣ Book (Kuntap Sukta) book 20 Hymn 127 verses 1-2, Atharva Veda.

٢٥٤ www.fatensabri.com كتاب عين على الحقيقة. فائق صبري.

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" ٢٥٥.

وقد انتهت الزيارة، وطلبوا تزويدهم بنسخ ترجمات معاني القرآن باللغة التايلاندية، وشكرونا كثيرًا.

قال الفيلسوف الإنكليزي توماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨١): "لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمدًا خداع، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير، مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا. وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجالًا كاذبًا يستطيع أن يُوجد دينًا وينشره؟ عجبًا والله، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب، فهو إذا لم يكن علميًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه بيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثير من أخلاط المواد، نعم وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن" ٢٥٦.

٢٥٥ (الأعراف: ١٥٨).

٢٥٦ كتاب "الأبطال". محمد السباعي.

يُجادلونك في الحق بعد ما تبين

الذي أنزل إليك من ربك هو الحق:

لظالما كنت في صغري على اهتمام بمعرفة الدين الصحيح، حيث كانت أُمِّي في ذلك الوقت حريصة على متابعة البرامج الدينية وكنت أسألهَا دومًا عن هذا الموضوع، وقد ولدت في دولة الكويت، وكمجتمع يستقبل الوافدين من دول مختلفة، كان يحتوي على ديانات وثقافات مختلفة، ودائمًا ما كنت أتعجب من إصرار أتباع كل ديانة على التصريح أنهم على الدين الحق، وكنت أقول لنفسي: دين الحق يجب أن يكون دينًا واحدًا فما هو هذا الدين؟ لماذا الإسلام هو دين الحق؟ ومع كثرة طرح هذا السؤال على أُمِّي وأنا في المرحلة الابتدائية في الدراسة، قالت لي: اقرأِّي وابحثي وسترين بنفسك أن دين الحق هو الذي يوفر لك العلاقة المباشرة مع خالقك. وعكفت على القراءة مع صغر عمري، وقبل أن أصل لمرحلة الثانوية كانت الصورة لدي واضحة جلية عن التوحيد، وشعرت بطاقة عظيمة لأحدث العالم عن هذا الكنز العظيم، وأخذت أردد الآية الكريمة: "الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ" ٢٥٧، وسُررت كثيرًا.

وجادلهم بالتي هي أحسن:

في حوار لي مع ثلاثة صحفيين من الجنسية الهندية، قال: أحدهم: المسيح هو الله.

قلت له: ما دليلك؟

قال: لقد قال المسيح في كتبنا: إنه كائن قبل إبراهيم.

قلت له: وهل هكذا يُعرّف الإله عن نفسه، بأن يقول أنا كنت قبل فلان؟

"إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" ٢٠٨.

قلت له مستطردة: كيف عرّف الله عن نفسه لموسى في كتابكم؟ ألم يقل يا موسى إنني أنا الله فاعبدني.

شعرت حينها بارتباك شديد على وجهه، فتدخل زميله وقال: قال المسيح: أنا والإله واحد.

قلت له: وقال أيضًا أنا والحواريين واحد، والله والمسيح والحواريين واحد، وأعيد وأكرر هل هذه طريقة تعريف الإله عن نفسه؟ أنت عندما تأتي لزيارتي للمنزل مثلاً لطلب المعونة في أمرٍ ما وأكون أنا غير موجودة، فيقول لك ابني: أنا وأمي واحد، كيف أستطيع مساعدتك؟

قال: برهان الثالث أن الله في الأزل وقبل خلقه للكون، فلو كان واحدًا فقط لتعطلت صفاته، فكان يجب أن يكون ثلاثة ليرز صفاته ويتفاعل من خلال الثلاثة الذين في داخله.

قلت له وقد أثار تعليقه غضبًا شديدًا في نفسي: أنا مثلاً أحمل صفة "متحدثة جيدة"، وعندما أقرر أن أصمت ولا أتحدث الآن، هل تتعطل هذه الصفة عندي؟ قال أحدهم: أنت لست متحدثة جيدة فقط، بل وطاقاة في بديهيية الإجابة.

قال مستطردًا: من هو محمد؟

قلت له: هو خاتم أنبياء الله ومن نسل إسماعيل عليه السلام.

قال: لكن إسماعيل ابنًا ليس شرعيًا لإبراهيم.

قلت له: ومن قال هذا؟

"فأخذت سارة امرأة إبراهيم هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم في أرض كنعان وأعطتها لإبراهيم زوجة له"^{٢٥٩}.

تشير هذه الفقرة في العهد القديم أن هاجر كانت زوجة شرعية لإبراهيم.

وكلمة إسماعيل تعني "الله يسمع"، حيث استجاب الله لدعاء إبراهيم بأن يرزقه الولد، وقد اختار الله هذا الاسم لإسماعيل، كما لم يرد مطلقًا في العهد القديم أن إسماعيل كان ابنًا غير شرعيًا.

"وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدن ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك"^{٢٦٠}.

وتعهد الله بأن يبارك إسماعيل ويخرج من نسله أمة كبيرة.

"وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا، اثني عشر رئيسًا، يلد وأجعله أمة كبيرة"^{٢٦١}.

^{٢٥٩} (العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ٣).

^{٢٦٠} (العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ١١).

^{٢٦١} (العهد القديم، سفر التكوين ١٧: ٢٠).

قال: أرجوك أعطيني المراجع لأتأكد بنفسي.

قال بعدها: الله في كتابكم يغير رأيه، فتارة يقول: لا إكراه في الدين، وتارة يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أنتكرون وجود الناسخ والمنسوخ لديكم؟

وقد تعجبت كثيراً من فصاحة نطقه لهذين المصطلحين باللغة العربية مع أن الحوار كان باللغة الإنجليزية.

قلت له: لا يوجد نسخ بين هاتين الآيتين، فالآية الأولى موضوعها مختلف تماماً، إذ أنها تقر مبدأً إسلامياً عظيماً، وهو منع الإكراه على الدين؛ في حين أن الآية الثانية موضوعها خاص، يتعلق باللذين يصدون عن سبيل الله والمنعنين لغيرهم من قبول دعوة الإسلام، فلا تعارض حقيقي بين الآيتين.

لكن في كل الأحوال فإن تطور أحكام التشريع ووقف العمل بحكم سابق وإحلال حكم آخر لاحق وتقييد المطلق وإطلاق المقيد، أمر معهود ومألوف في الشرائع السابقة ومنذ عهد آدم. كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في زمن آدم عليه السلام، ثم صار مفسدة في سائر الشرائع؛ وكذلك إباحة العمل يوم السبت، كان مصلحة في شريعة إبراهيم عليه السلام ومن قبله وفي سائر الشرائع، ثم صار مفسدة في شريعة موسى عليه السلام، وقد أمر الله سبحانه بني إسرائيل بقتل أنفسهم بعد عبادتهم العجل، ثم رفع هذا الحكم عنهم بعد ذلك، وغيرها الكثير من الأمثلة، فاستبدال حكم بحكم آخر وارد في نفس الشريعة أو بين شريعة وشريعة أخرى.

قلت له أيضاً: الطبيب الذي يبدأ بعلاج مريضه بدواء معين ومع الوقت يزيد في جرعة الدواء أو يقللها كتدرج في علاج مريضه يُعتبر بالنسبة لك حكيم.

قلت له مستطردة: وإني لأعجب من سؤالك جداً وقد رجّبتم بالنسخ الذي قام به القديس بولس والذي لم يكن في حكم واحدٍ من الأحكام فقط، بل كان تبديلاً لدين بأسره، من التوحيد إلى التثليث، وجعلكم تنقضون عهد الله الأبدي معكم بالالتزام بالختان كما هو مذكورًا في كتبكم.

قال: أنتم تزعمون أن الله حمى المسيح من الصلب والقتل، فلماذا لم يحم محمداً من القتل عندما مات مسموماً بسُم اليهودية.

قلت له: لقد حمى الله الرسول الكريم من سم اليهودية عندما أُخبر أن الشاة مسمومة، ولم يمت بهذا السم، وعاش بعدها قرابة الأربع سنوات مكملًا رسالته وفتوحاته العظيمة، وقد حماه الله حتى لحظة وفاته، وكون هذه الوفاة كانت بتأثير السم لاحقاً أو بغيره، هذا لا يجعل اليهود قد انتصروا عليه بقتله لمنعه من إتمام المهمة التي بُعث من أجلها، بل كان موت النبي صلى الله عليه وسلم بقدرٍ من الله بعدما بلغ الرسالة، وعليه فالقصة لا تقدح في عصمته.

قال أحدهم: إنني أرى وإن كان القرآن على درجة عالية من النظام والدقة، لكن الحروف المقطعة والغير مفهومة فيه دليل على نقص وعيب.

قلت له: إنك كمن يرى مبنى شاهق على درجة عالية من النظام والدقة، ثم يرى في إحدى زواياه تصاميم يُتصوّر أنها زائدة ولا فائدة منها، فيقول: كوني لم أفهمها إذاً فهي عيب في المبنى، وهل مقدار فهمك واستيعابك للأمور مقياس على جودتها من عدمها؟ والأحرى أن تقول: إن من أنشأ هذا المبنى بكل هذه العظمة والدقة والنظم المتقن لا يمكن أن يغفل عن هذه الأشياء، لا بد أنه قد وضعها هنا لحكمة معينة لا ينفي وجودها جهلي أنا بها. والغريب أنه لم يعترض أحد في

زمن نزول القرآن على هذه الأحرف، بل ودائمًا ما كانوا يشنون على إعجازه وتفردته حتى من أعدائه.

قال: ولماذا نزل القرآن باللغة العربية؟

قلت له: وبأي لغة كنت ترغب بأن ينزل، لديكم في الهند آلاف اللغات واللهجات، فبأي لغة من هذه اللغات كنت تفضل؟ ولو كان نزل بواحدة من هذه اللغات لقلت لماذا ليس بالأخرى.

قلت له مستطردة: إن الله يرسل الرسول بلسان قومه، والله تعالى اختار رسوله محمدًا ليكون خاتم الرسل، وكانت لغة القرآن بلسان قومه، وحفظه من التحريف إلى يوم الدين، وكذلك اختار مثلاً الآرامية لكتاب المسيح.

قال: ما قصة جمع القرآن في عهد أبي بكر للقرآن وحرقة في عهد عثمان؟

قلت له: ترك الرسول القرآن موثق ومدون بأيدي الصحابة لتلاوته وتعليمه للآخرين، وحينما تولى أبو بكر -رضى الله عنه - الخلافة أمر بجمع هذه الصحف لتكون في مكان واحد ويمكن الرجوع إليها. وأما في عهد عثمان فقد أمر بحرق النسخ والصحف التي كانت بأيدي الصحابة في الأمصار والموجودة بلهجات مختلفة وأرسل إليهم نسخ جديدة مطابقة للنسخة الأصلية والتي تركها الرسول الكريم والتي جمعها أبو بكر، وذلك ليضمن أن جميع الأمصار ترجع إلى نفس النسخة الأصلية والوحيدة التي تركها الرسول.

وبقي القرآن على ما هو عليه دون أي تغير أو تبديل، وكان دومًا ملازمًا للمسلمين على مر العصور ويتداولونه بينهم ويتلونه في الصلوات.

قال الزائر: يقول القرآن:

"إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ الَّتِي فَكَّكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ آلِهِ الْعَالَمِينَ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" ٢٦٢.

الله خلق السماوات والأرض هنا في ستة أيام، وخلقها في ستة أيام ليُعلم عباده عدم العجلة وأن يتدبروا الأمور، وهذا مفهوم.

ويقول:

" قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ " ٢٦٣.

أما هنا فقد خلق الله الأرض في يومين ثم جعل فيها الرواسي وتقدير الأقوات في أربعة أيام، فيصير المجموع ستة، ثم خلق السماوات في يومين وهذا يكون المجموع ثمانية أيام، أليس هذا تناقض في القرآن؟

قلت له: إن قلت لك أنني سافرت من باريس إلى لندن في عشرة أيام، وإلى شيكاغو في خمسة عشر يومًا، فهذا يعني أنني أتممت رحلتي في خمسة عشر يومًا، وهذا هو المقصود في الآية الكريمة.

قال بعدها: أنتم المسلمون تعيشون فرقة كبيرة، لأنه ليس لديكم قيادة دينية كالفاتيكان تحكمكم.

٢٦٢ (الأعراف: ٥٤).

٢٦٣ (فصل: ١٠-١٢).

قلت له: وكيف نفعت الفاتيكان النصرانية، هل استطاعت الفاتيكان توحيد طوائف النصرانية، إن الفرقة بازدياد.

قال زميله: سوف نغادر الآن ولكن لنا لقاءات قادمة.

من يُجادل في الله بغير علم:

فاجأني يومًا أحد مدرسي اللغات في أفريقيا، حين سألني في الفصل وأنا المسلمة الوحيدة بينهم حيث قال:

تصلون خمس مرات باليوم، وتصلون في الخامسة صباحًا، أليس هذا غريبًا عجيب؟

وقد كان عندي علمٌ مسبق أن هذا الأستاذ يعمل بنظام العمل الجزئي، أي أنه إن أعطى الدرس يأخذ أجرًا، وإن لم يعط الدرس لا يأخذ أجرًا.

فقلت له - بناءً على علمي المسبق بهذه المعلومة -: إن كان هذا الدرس في الخامسة صباحًا، كنت ستعطيه أم تبقى نائمًا؟
قال: طبعًا سأعطيه، فهذا رزقي ورزق أولادي.

قلت له: والصلاة رزقنا وهي بالنسبة لنا أعظم من ملايين الدولارات.

قلت له: كم مرة تخاطبك زوجتك عبر الهاتف في اليوم؟

قال ضاحكًا: تكاد لا تتوقف عن المكالمات.

قلت له: وهل تستنكر علينا أن نخاطب ربنا خمس مرات باليوم؟

قال: ولماذا الصلاة؟

قلت له: أنا أقوم للصلاة في الخامسة صباحًا يوميًا وتقوم صديقاتي الغير مسلمات لممارسة رياضة الصباح في نفس الوقت تمامًا، فصلاحي بالنسبة لي غذاء جسدي وروحي والرياضة بالنسبة لهم غذاء جسدي فقط.

انظر كم نعني بأجسادنا والروح تتضور من الجوع، والنتيجة حالات انتحار لا تعد ولا تحصى لأكثر الناس رفاهية في العالم.

تؤدي العبادات إلى إلغاء الإحساس الموجود في مركز الشعور في الدماغ والخاص بالشعور بالذات وبالشعور بمن حولنا، فيستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامي، وهذا إحساس لن تفهمه إلا إذا جريته.

قلت له أيضًا: تُحرك العبادات مراكز الشعور في المخ فتتحول العقيدة من معلومات نظرية وطقوس إلى تجارب شعورية ذاتية. هل يكتفي الأب عند عودة ابنه من السفر بالترحيب اللفظي؟ إنه لا يهدأ له بال حتى يحتضنه ويقبله. إن للعقل رغبة فطرية في تجسيد معتقداتنا وأفكارنا في صورة حسية، فجاءت العبادات إشباعًا لهذه الرغبة، فالعبودية والطاعة تتجسد في الصلاة والصوم، وهكذا.

د. أندرو نيوبرج^{٢٦٤} يقول: "إن للعبادات دور كبير في تحسين الصحة الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحي، كذلك فإن التوجه إلى الخالق يؤدي إلى المزيد من السكينة والسمو".

قال: معك حق، ونحن للأسف دائمًا في الأسفل نلهث وراء ملذاتنا الدنيوية. وفي حوارني مع أحد المسلمين الذي قلل من أهمية الصلاة والدعاء، حيث قال: إن مفهوم الدعاء يناقض السنن الإلهية والقوانين الطبيعية، ويجب تنزيه الإله عن تبديل كلماته وتعديل قضائه.

قلت له: إن حقيقة القوانين الطبيعية يقرها الدين والعلم، وحقيقة وجود الإله لا تكفي وحدها أو تغني عن الرغبة في الاتصال به، ووجود هذه القوانين لا يعني عدم تواصل البشر مع الإله، ولا تقول إن التواصل معه والانقطاع عنه سواء.

^{٢٦٤} مدير مركز الدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة.

"أوليفر لودج" وهو من أشهر علماء الطبيعة يرد على القائلين بمخالفة الدعاء للسنن الكونية فيقول: "إنهم يحكمون على الصلاة حكمهم على ظاهرة طبيعية خارجة عن حدود الكون، ولكنها في الواقع ظاهرة كونية يحسب حسابها في أعمال الكون كما يحسب حسابها في سائر الحوادث التي تقع في حياتنا بغير صلاة. وإذا كانت الصلاة تربية نفسية فلماذا يحسب المعارضون أن هذه التربية ليست سببًا لتحقيق بعض الحوادث كما تسببها كل تربية يتم بها استعداد الإنسان لغاية من الغايات؟".

قال: لا فرق بين صلاة الإنسان لنفسه أو صلاته لغيره أو لربه. قلت له: فاقد الشيء لا يعطيه، كيف أطلب من غيري العون وهو لا يستطيع إعانة نفسه، والطلب من الله عز ومن غيره مذلة. هل يُعقل أن تساوي بين الملك وعامة شعبه بالطلب، فالعقل والمنطق يدحض هذه الفكرة تمامًا. قال: الطلب إما أن يكون موافقًا للإرادة الإلهية فهو محقق بغير طلب، وإما أن يكون مخالفًا للإرادة الإلهية فلا معنى لطلبه.

قلت له: إن إرادة الله متمثلة في خلقه لطبيعة الإنسان، وإن من طبيعة الإنسان طلب الغوث عند الحاجة إليه، وإن طلبه من غير الله عبث مع الإيمان بوجود الإله القادر على كل شيء.

قال: إن النواميس الكونية مسألة قديمة حصلت وفرغ الأمر منها. قلت له مستطردة: إن جرس القطار يدق قبل وصوله وليس هو سبب الوصول، وأن ضوء القذيفة يرى عند انفجارها قبل سماع صوتها ولا علاقة بين سبب الرؤية أو السماع. إن قوانين الكون لم تُحصَر جميع عواملها، وأن الحصر الذي وصلنا إليه قد يُعين على تقدير الحوادث المترتبة عليها بالإجمال، ولا يصلح التقدير إلا

بالتقريب. ومع فتح المجال للعلماء لدراسة الكون الذي لا تحصره ضوابط القوانين، يبقى الله تعالى فعالاً لما يريد، والخلق عملية مستمرة وليس بالعملية الآلية التي فرغت منها العناية الإلهية وتركتهما هملًا بغير تبديل. وسنة الله لا تبديل لها حقًا ولكننا لا نعلم من سنة الله إلا ما نحتدي إليه بعقولنا وهداية الله، وقد تكون سنة الله في نصيب الإنسان موقوفة على تربية نفسية عن طريق الصلاة، وقد تكون هذه التربية النفسية سببًا مشروطًا للسنة الإلهية لا يجوز للمؤمن تعطيله.

إن الصلاة عند الموحدين من علامات التقدم الإنساني في فهم حقائق الكون وفهم الصفات الإلهية، والتواصل مع مصدر كل خير، ولم تُعرف عند المشركين بهذا الشكل، فقد جعلوا صلاتهم من قبيل المساومة، حينما اعتقدوا أن آلهتهم بحاجة إلى قربانهم. ولا قوام لدين بغير الإيمان بالصلاة على معنى الطلب والدعاء، مع الإيمان برياضتها الروحية وصلتها الوثيقة التي تربط عالم الشهادة بعالم الغيب، وتجعل وجود الإله حقيقة أعلى من حقيقة النواميس أو حقيقة الحوادث الكونية التي تهم الإنسان في مطالب معيشتة، كما تهمه في مطالب ضميره^{٢٦٥}.

ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث:

أذكر أنني قد ذهبت جدًا من قصة إسلام زميلة فلسطينية لي في العمل عندما قالت لي: إن حيوان الخنزير كان سببًا في إسلامها.

قلت لها: وكيف ذلك؟

قالت: أنا كنت أعرف جيدًا أن هذا الحيوان قذر جدًا ويسبب أمراضًا كثيرة للجسم، ولم أطق هذا الحيوان في حياتي أبدًا، وكنت أكره المسلمين بشدة فقط لاعتقادي أن تناول لحم الخنزير مُحَرَّم في كتابهم لتقديسهم له، وأنهم يعبدونه، إلى

^{٢٦٥} كتاب ما يقال عن الإسلام. عباس محمود العقاد.

أن أدركت لاحقاً عندما تركتُ الفلبين وعشت في بلد عربي أن تناول لحم الخنزير مُحَرَّم عند المسلمين لأنه حيوان قذر ولحمه ضار بالصحة، أدركت حينها عظمة هذا الدين، ودأبت من ذلك الوقت على القراءة والبحث عن هذه الجوهرة المكنونة.

وأذكر في حوار لي مع برازيلي مهتم جداً بعقيدة التوحيد، والذي كان موضوع تناول لحوم الحيوان قد منعه من اعتناق الإسلام، حيث أنه نباتي، وظن أن باعتناقه الإسلام سوف يُجبر على تناول اللحوم.

قلت له: فكرة أن تناول اللحوم الحمراء أو البيضاء مسموحة في الإسلام لا تعني أنك مُجبر على تناولها.

قال: ولماذا سُمح بها أصلاً؟

قلت له: اللحوم هي مصدر أساسي للبروتين، والإنسان يملك أسنان مسطحة وأسنان مدببة وهذه الاسنان مناسبة ومهيأة لمضغ وطحن اللحوم. والله خلق للإنسان الأسنان صالحة لأكل النباتات والحيوانات وخلق الجهاز الهضمي صالح لهضم المأكولات النباتية والحيوانية، وهذا دليل على تحليل أكلها.

قال: أليست طريقة الذبح وحشية؟

قلت له: طريقة الذبح الإسلامي والتي هي قطع عنق الحيوان بسكين حاد أرحم من الصعق والخنق التي يتعذب بسببها الحيوان، فبمجرد انقطاع تدفق الدم إلى المخ فإن الحيوان لا يشعر بالألم، وانتفاضة الحيوان عند ذبحه ليست بسبب الألم، بل بسبب تدفق الدم السريع الذي يسهل خروج الدم كله إلى الخارج، عكس الطرق الأخرى التي تجبس الدم داخل جسد الحيوان مما يضر بصحة متناولي هذا اللحم.

قال: أليست هذه الحيوانات روح مثلنا؟

قلت له: هناك فرق، فروح الحيوان هي القوة المحركة للجسم، إذا فارقتها بالموت أصبحت جثة هامدة وهي عبارة عن نوع من الحياة، والنبات والأشجار لها نوع من الحياة أيضًا ولا يسمى روحًا، وإنما يسمى حياة تسري في أجزائه بالماء إذا فارقه ذبل وسقط.

"... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" ٢٦٦.

ولكنها ليست كروح الإنسان التي تُسبب إلى الله لغرض التَّكريم والتَّشريف، ولا يعرف كنهها إلا الله ولا تخص إلا الإنسان، فروح الإنسان عبارة عن أمر إلهي ليس مطلوبًا من الإنسان فهم جوهره، وهي عبارة عن اندماج القوة المحركة للجسم ومضاف إليها القوى المفكرة (العقل)، والإدراك والعلم والإيمان وهذا الذي ميزها عن روح الحيوانات.

فلإنسان طبيعة خارجية ظاهرة وهي الجسد، والتي تتصف بكل صفات المادة وقابلة للوزن والقياس، وطبيعة أخرى مخالفة تمامًا للأولى تتصف بالسكون واللازمان ولا مكان.

قال: إن هذه الطبيعة المفروض أن تكون حسب فهمي تابعة للجسد؟

قلت له: الجسد هو التابع لها، لأننا عندما نصوم في رمضان مثلاً، ما الذي يحثنا على الصبر والامتناع عن الأكل، فهذا بسبب دافع قوي داخل أنفسنا يدفعنا لاتخاذ هذا القرار.

قال: لماذا لا نشعر بها؟

قلت له: عندما نستعمل المصعد مثلاً، لا نشعر به أثناء حركته لأننا أصبحنا جزء منه، ولا يمكننا الشعور به إلا عندما يبدأ بالحركة أو عندما يتوقف.

قال: وما هي النفس؟

قلت له: النفس هي نتاج التقاء الروح بالجسد، يُعرّف الإنسان فيها بروحه ووجدانه وأحاسيسه ومدركاته، فهي ذاته التي تحمل قوى الخير والشر، والتي يرتكب بسببها الإنسان الذنوب أو يحرص على الطاعة.

قال: ما هو الإنسان؟

قلت له: الإنسان هو الشخصية البشرية بكليتها، لحمًا ودماً وشخصية.

قال: وما الفرق بين الملك والجن والشيطان؟

قلت له: أما الملائكة، فهم خلق من خلق الله أيضاً ولكن خلق عظيم، خلّقوا من نور، مجبولون على الخير، مطيعون لأوامر الله سبحانه مسبحون عابدون لا يسأمون ولا يفترون.

"يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" ٢٦٧.

"...لَا يَغْضُوبُ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" ٢٦٨.

والإيمان بهم مشترك بين المسلمين واليهود والنصارى، ومنهم جبريل الذي خصه الله بالوساطة بينه وبين رسله، فكان ينزل بالوحي إليهم. ومنهم أيضاً ميكائيل، ومهمته هي إنزال المطر. واسرافيل، ومهمته هي النفخ في الصور يوم القيامة، وغيرهم.

قلت له أيضاً: أما الجن فهو عالم من عالم الغيب يعيشون معنا في هذه الأرض، وهم مكلفون بطاعة الله وهُتُوا عن معصيته، مثل الإنس، لكننا لا نراهم، وقد

٢٦٧ (الأنبياء: ٢٠).

٢٦٨ (التحریم: ٦).

خُلِقُوا مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ. وذكر الله قصصًا تُبين مدى قوة الجن وقدرتهم، من ذلك قدرتهم على التأثير بالسوسة أو الإيحاء دون تدخل مادي، لكنهم لا يعلمون الغيب ولا يقدرُونَ على إيذاء المؤمن القوي الإيمان.

"... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ... ٢٦٩".

والشيطان، هو كل عاتٍ متمرد سواء من الإنس أو الجن.

قال: أليست ذنوب الإنسان من الشيطان؟

قلت له: هناك نوعان من الذنوب، ذنوب النفس وذنوب تُرتكب بسبب وسوسة الشيطان.

قال: وأيهما أخطر على الإنسان؟ وكيف نستطيع التفريق بينهما؟

قلت له: النفس أخطر بكثير إن لم تُجاهد كما يُفطم الطفل الصغير عن الرضاعة بالتدريج وبالترويض.

إن النفس الأمانة بالسوء هي النفس التي توسوس للإنسان وتدفعه لارتكاب المعاصي وتُلح على معصية بعينها، كأن تخطط وتدبر لقتل إنسان، ولا يهدأ لها بال ولا تتراجع حتى تحقق هدفها المنشود.

وكذلك تزين النفس الفعل القبيح وتظهره حسنًا وتتمادى في طريق الإثم والعصيان حتى تُطمّر فطرقتها السليمة وتفقد حينها القدرة على تمييز الصالح من الطالح، فتبدو لها السيئات كالحسنات، كما حدث مع أخوة نبي الله يوسف عليه السلام حيث ألقوه في قاع الحب وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

"... قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ " ٢٧٠.

٢٦٩ (الأنعام: ١٢١).

٢٧٠ (يوسف: ١٨).

"الَّذِينَ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" ٢٧١.

"أَفَتَرَىٰ لَهُ شُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" ٢٧٢.

أما الشيطان، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه ضعيف فقال: "إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا" ٢٧٣، فكيد الشيطان ينحصر في حدود الأفعال التشريعية والتكليفية للإنسان بالوسوسة وإظهار الباطل في مظهر الحق، ولكنه ليس له سلطان على الإنسان.

"فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ" ٢٧٤.

وَجُل هم الشيطان أن يجعل الإنسان عاصيًا لله وحسب، أيًا ما كانت تلك المعصية؛ ولذا فإن الشيطان يوسوس للإنسان في معاصي شتى، كأن يسرق، أو أن يزني، أو أن يكذب أو أن يشرك أو أن يكفر وغيرها من الذنوب، وعندما يغلق الإنسان باب معصية يأتيه الشيطان من باب آخر، وقد تكون وسوسة الشيطان للإنسان بتقمصه صفة الناصح والمحب.

"وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصٍ" ٢٧٥.

وينتصر الإنسان على الشيطان بالاستعاذة بالله وكثرة الذكر بالقلب واللسان.

"إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" ٢٧٦.

والشيطان يعلم ذلك ويعترف به، فيوم القيامة سيقول للمذنبين:

٢٧١ (الكهف: ١٠٤).

٢٧٢ (فاطر: ٨).

٢٧٣ (النساء: ٧٦).

٢٧٤ (النحل: ٩٨-٩٩).

٢٧٥ (الأعراف: ٢١).

٢٧٦ (الأعراف: ٢٠١).

"وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ..."^{٢٧٧}.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

"النَّفْسُ قاطِعة بين الثُّلُوبِ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الرَّبِّ طَرِيقًا، وَلَا يُوصَلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ إِمَاتَتِهَا، فَالنَّاسُ عَلَى قِسْمَيْنِ، قِسْمٌ ظَفَرَتْ بِهِ نَفْسُهُ فَأَهْلَكَتَهُ، وَقِسْمٌ ظَفَرُوا بِنَفْسِهِمْ، فَصَارَتْ مُنْقَادَةً لِأَوَامِرِهِمْ".
وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة.

النفس المطمئنة: هي التي اطمأنت بذكر الله واشتاقت إلى لقائه، وهي التي يقال لها عند الوفاة: " ارجعي إلى ربك راضية مرضية"^{٢٧٨}.

وتخرج حينها من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرياء إلى الإخلاص.

النفس الأمارة بالسوء: هي التي تأمر صاحبها بما تهواه، وهذا من طبيعتها إلا إن وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله.
وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعيذ من شر النفس قائلاً: نعوذ بالله من شرور أنفسنا.

النفس اللوامة: وهي كثيرة اللوم لنفسها، وهي كثيرة التقلب، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتسخط، وتغبط وتحسد.

^{٢٧٧} (إبراهيم: ٢٢).

^{٢٧٨} (الفجر: ٢٨).

قال الحسن البصري: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ دَائِمًا، اللَّوْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ كُلَّ أَحَدٍ يَلُومُ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ مَسِيئًا عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا عَلَى تَقْصِيرِهِ".

قال: وما الفرق بين الغبطة والحسد؟

قلت له: الغبطة: أن تتمنى أن يكون لك مثل ما للغير من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، ويجوز أن يسمى منافسة.
"...وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" ٢٧٩.

قلت له مستطردة: أما الحسد فهو تمنى زوال النعمة من الغير، والحسد مرض نفسي يؤدي الحاسد وضرره على الحاسد أكبر من ضرره على المحسود، وقد أمرنا الله تعالى أن نتحصن ونستعيذ به من شر الحاسد.
"...وَلَا يَحِثُّ الْمُكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ..." ٢٨٠.

قال: وما الفرق بين الشر الذي يأتي من الإنسان والشر الذي يأتي من الله.
 قلت له: إن الشر لا يأتي من الله، إن الشرور ليست أمورًا وجودية، فالوجود هو خير محض.

قال: وكيف ذلك؟

قلت له: إذا قام شخص مثلاً وضرب شخص آخر حتى أفقده القدرة على الحركة، فقد اكتسب صفة الظلم، والظلم شر.
 لكن وجود القوة لدى من يأخذ عصا ويضرب بها شخص آخر ليس شرًا.
 ووجود الإرادة التي أعطاه الله له ليس شرًا.

^{٢٧٩} (المطفون: ٢٦).

^{٢٨٠} (فاطر: ٤٣).

ووجود قدرته على تحريك يده ليس شرًا.

ووجود صفة الضرب في العصا ليس شرًا.

إن كل هذه الأمور الوجودية هي خير، ولا تكتسب صفة الشر إلا إذا أدت إلى الضرر بإساءة استخدامها، وهو الشلل كما في المثال السابق، وبناءً على هذا المثال فوجود العقرب والأفعى ليس شرًا بعينه إلا إذا تعرض له الإنسان فلدغته، فالله تعالى لا يُنسب إليه الشر في أفعاله التي هي خير محض، بل في الأحداث التي سمح الله بوقوعها لحكمة معينة مع قدرته على منع حدوثها. والتي نتجت عن استخدام البشر لهذا الخير بصورة خاطئة.

قال: ومن خلق عاجزًا؟

قلت له: قال لي شخصٌ مقعد يومًا وقد كان في الخمسين من عمره: أنا أدرك الآن حكمة إصابتي الجسيمة والتي أقعدتني عن الحركة، فقد كنت أنوي قبل إصابتي أن أتجه إلى الإلحاد، وكنت بعيدًا جدًا عن الله وأنوي بإصرار الهجرة لكي أتمكن من هذا، وقد منعتني إصابتي من تنفيذ رغبتني، وأنا وبعد ثلاثين عامًا من الإصابة لأحمد الله عليها، وأراها من أكبر النعم التي أنعم الله بها عليّ، والتي جعلتني أقرب إليه، وإنني على يقين أن نفسي من السوء ما تجعلني لا أعود إلى الله إلا بمثل هذا الابتلاء، فالله يعلم نفوس عباده حتى من قبل أن تُولد.

قلت للسائل مستطردة: بما أن الشر نسبي وليس مطلقًا، والحياة دار اختبار وليس جزاء، والجزاء على قدر العمل، فتكون الابتلاءات كمن يقطع المسافة الشاقة على أمل الوصول للمراد وللمحبيب.

قال: وما الدليل على البعث؟

قلت له: إن شواهد الوجود والظواهر تشير جميعها إلى أن هناك دوماً إعادة للبناء والخلق في الحياة. والأمثلة كثيرة، كإحياء الأرض بعد موتها بالمطر وغيرها.

"يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ" ٢٨١.

وأيضاً الدليل الآخر على البعث هو النظام المحكم للكون الذي ليس فيه خلل، حتى الإلكترون متناهي الصغر لا يستطيع أن يتنقل من فلك إلى فلك آخر في الذرة إلا إذا أعطى أو أخذ مقداراً من الطاقة يساوي حركته، فكيف تتصور في هذا النظام أن يهرب القاتل أو يفر الظالم بدون حساب أو عقاب من رب العالمين.

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ" ٢٨٢.

"أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّنْجَانِهِمْ وَمَنَاقِبُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا كُتِبَتْ لَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ" ٢٨٣.

قلت له أيضاً: ألا تلاحظ أننا في هذه الحياة نفقد كثيراً من الأقارب والأصدقاء ونعلم أننا سوف نموت مثلهم يوماً ما، لكننا نشعر في قرارة أنفسنا أننا سوف نعيش إلى الأبد. لو كان جسم الإنسان مادي ضمن إطار حياة مادية ضمن القوانين المادية لما كان هناك معنى لهذا الشعور الفطري بالحرية، الروح تعلو على الزمن وتتخطى الموت.

قال: وكيف يجيبهم؟

٢٨١ (الروم: ١٩).

٢٨٢ (المؤمنون: ١١٥-١١٦).

٢٨٣ (الجاثية: ٢١-٢٢).

قلت له: كما خلقهم أول مرة.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن ثَرَابٍ ثُمَّ مِنْ طُفَّةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ يَخْرِجُ" ٢٨٤.

"أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن طُفَّةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" ٢٨٥.

"فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُعْجِزٍ لِّمُؤْتَىٰ. وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ٢٨٦.

قال: وكيف يحاسبهم في نفس الوقت؟

قلت له: كما يرزقهم في نفس الوقت.

مَا خَلَقْنَا وَلَا بَعَثْنَا إِلَّا لِكَيْفٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٢٨٧

ويجادل الذين كفروا بالباطل:

في حوار لي مع مجموعة كبيرة من فرنسيات يعملن في منظمة دولية، كنت قد واجهت صعوبة في التعامل مع ذوات الأصول العربية المسلمة منهن، فمع التجاوب الكبير من الفرنسيات غير المسلمات وجدت العجب من المسلمات. فكانت قد قاطعتني إحداهن وأنا أجيب على سؤال فرضية الحجاب في القرآن من سيدة غير مسلمة في المجموعة، وقالت بعصبية: الحجاب ليس فرض في الإسلام.

٢٨٤ (الحج: ٥).

٢٨٥ (يس: ٧٧-٧٩).

٢٨٦ (الروم: ٥٠).

٢٨٧ (لقان: ٢٨).

قلت لها: وهل تصلين الصلوات الخمس في أوقاتها.

قالت: لا، أنا لا أصلي.

قلت لها: إذاً معك حق، فالصلاة بالنسبة لك وفي حالتك أولى، ومتى بدأت

الصلاة فتعالي وناقشيني في موضوع فرضية الحجاب، فشعرت بإحراج شديد.

قالت أخرى: ولكن المرأة تولد مكشوفة الرأس، فالأصل أن تكشف عن رأسها.

قلت لها: إذاً فهي يجب أن تخرج عارية الجسد تمامًا بناءً على ذلك، فهي تولد

بلا ملابس.

قالت: غطاء الرأس تخلف ورجوع إلى الوراء.

قلت لها: وهل يوجد وراء أبعد من زمن آدم؟ كشف الرأس هو الرجوع إلى الوراء

بعينه، عودي إلى صور جدتك وهي في طريقها إلى المدرسة وانظري ماذا كانت

ترتدي؟ عندما ظهر مايوه السباحة لأول مرة خرجت مظاهرات في أوروبا وأستراليا

ضده لأنه مخالف للفترة والعرف وليس لأسباب دينية، وعكفت شركات التصنيع

على عمل إعلانات مكثفة باستخدام بنات في عمر الخمس سنوات حتى يظهرن

فيه بدايةً لتشجيع النساء على ارتدائه، وقد ظهرت أول طفلة تمشي به بجمل

شديد، ولم تستطع الاستمرار في العرض. وقد كان النساء والرجال آنذاك يعمون

بملابس سباحة تغطي كامل الجسد باللونين الأبيض والأسود.

قالت: وكيف عرفت ذلك؟

قلت له: قد درستها في دراستي الجامعية، حيث أنني عندما قررت ارتداء الحجاب

في السنة النهائية للثانوية العامة على رغبة شديدة مني لأن اقتدي بالنساء المؤمنات

على مر التاريخ واللاتي أخذن من الحجاب رمزاً لصلاهن، مثل السيدة مريم أم

المسيح وزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، في ذلك الوقت أدركت أنه لا

مجال لأن أجد في الأسواق ما هو جميل وأنيق للمحجبات، فقررت دراسة تصميم الأزياء من أجل هذا الغرض.

قلت لمن معقبة: ما الفرق بين حجاب الراهبة الكاثوليكية وحجاب المسلمة؟ إن نظرتن إليها من الخلف فلن تستطعن التفريق بينهما، حتى ترينهن من الأمام فتُفرقن عن طريق ملاحظة وجود الصليب على صدر إحداها من عدمه، وهذا هو الفرق الأساسي بين عقيدة المسلم والنصراني.

قالت إحداهن: لكن الراهبة متدبنة وهبت نفسها لله ولا تتزوج. قلت لها: إذا برأيك علينا أن نختار بين الزواج والتدين؟ أليس هذا ظلم في حق النفس وإجحاف عظيم لها، بأن نجعل النفس في صراع بين التوفيق بين الاحتياجات المادية والروحية، هذا قتل بطيء للنفس وعذاب أبدي في الدنيا والآخرة.

قالت: ولكن الحجاب ليس من الأمور الطبيعية لدينا. قلت لها: سوف أروي لك قصة رمزية لحاكم قرية من القرى، عندما أصيب بمرض خطير وقُطِعَ على أثره أنفه بناءً على تشخيص من طبيبه الخاص، وفي اليوم التالي لقطع أنفه، دخل الوزير على الملك فضحك اندهاشاً من منظر الملك، فغضب الملك وأمر الطبيب أن يقطع أنف الوزير، وفي اليوم الثالث، ضحك الوزراء المساعدين مندهشين من منظر الوزير، فغضب الوزير وأخبر الملك بالذي حدث فأمر الملك أن يقوم الطبيب بقطع أنوف الوزراء. وفي اليوم الرابع خرج الحاكم مع الوزير والوزراء المساعدين لحل بعض مشاكل الشعب، فضحك الشعب عليهم وأمر الملك حينها أن يقوم الطبيب أيضاً بقطع أنوف جميع الشعب وأنوف من يولد من الأطفال، وأصبح سكان القرية كاملة بلا أنوف، وعندما جاء لاحقاً

شخص طبيعي بأنف سليم من قرية أخرى لزيارة قريتهم أشار الجميع إليه بالبنان وقالوا: هذا له أنف إنه ليس إنساناً طبيعياً. وقد ضحكت المجموعة من القصة، وقالت إحداهن: نعم القصة فيها الكثير من الحقيقة.

سألت أخرى: لماذا لا يغطي الرجل لحيته كما تغطي المرأة شعرها؟ ولماذا اللباس الواجب ارتداؤه في الإسلام للرجل يختلف عنه عند المرأة، لماذا لا يغطون أجسادهم بنفس الطريقة؟

كان قد أضحكني سؤالها وقلت لها: عجيب! فلماذا ملابسك السباحة قطعتين إذاً وملابس زوجك السباحة قطعة واحدة؟ وحينها ضحكت المجموعة. قلت لها أيضاً: المرأة تغطي شعرها لدرة الفتنة، هل سمعت عن حادثة اغتصاب امرأة لرجل في حياتك قط؟ تخرج النساء في بلدانكم في مظاهرات مطالبة بحقوقها في الحياة الآمنة بدون تحرش ولا اغتصاب، ولم نسمع عن مظاهرات مشابهة قام بها الرجال.

فقلت إحداهن مستهزئة: ولماذا لا يمكن أن تكون امرأة نبياً مُرسلاً؟

قلت لها: أو ترغبين أن تكوني نبياً مُرسلاً؟

قالت: ولم لا؟

قلت لها: ما دام إيمانك بهذه القوة وعندك من قوة التحمل والجلد والعزيمة، إذاً ادعي الله أن يجعلك نبياً مُرسلاً، فضحكت المجموعة.

قالت إحداهن: وما الفرق بين المنقبة والمحجبة؟

قلت لها بناءً على علمي المسبق بتعلقهم الشديد بالسيدة مريم: المحجبة اقتدت بالنساء المؤمنات على مر التاريخ واللاتي أخذن من الحجاب رمزاً لصلاحيهن

كالسيدة مريم أم المسيح وغيرها، والمنقبة اقتدت بنساء الرسول عليه الصلاة والسلام.

فقلت: ولماذا يتزوج الرجل من أربع نساء؟

قلت لها: وفي فرنسا، كم امرأة يتزوج الرجل؟
قالت: واحدة فقط.

قلت لها: ويتخذكم من العشيقات؟

قالت المجموعة بصوت واحد: كثيرًا جدًا، وضحكن.

قلت لهن: هذا الوضع الذي تضحكن منه هو الوضع الذي كان سائدًا قبل الإسلام، وجاء الإسلام ليصححه، ويحفظ للمرأة حقوقها وكرامتها ويحولها من عشيقة إلى زوجة لها كرامة وحقوق.

قالت: ومن تقبل أن تكون زوجة ثانية؟ كيف تقبل المرأة الفرنسية أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة؟

قلت لها: من تقبل أن تكون عشيقة بلا حقوق الأولى بها أن تقبل أن تكون زوجة بحقوق لها ولأولادها.

فالعشيقة تعيش حياة مذلة بلا حقوق لها ولأطفالها، ومن العجيب تقبل فكرة العلاقات بدون زواج ومسؤولية، وأطفال بلا آباء أو المثلية، إلخ، ورفض فكرة زواج قانوني بين رجل وأكثر من امرأة.

قالت: ولماذا لا يحق للمرأة الزواج من أربعة رجال في وقت واحد كما يحق للرجل الزواج من أربع نساء؟

قلت لها: المرأة بإمكانها الزواج من رجل أعزب أو غير أعزب طالما أن لديه أقل من أربع زوجات، وهذا حق لها، في حين أن هذا الحق لا يتوفر للرجل، حيث

أنه لا يحق له الزواج إلا من غير متزوجة فقط وذلك لحفظ حقوق الأولاد من نسب وميراث.

قالت: ممكن أن يُحفظ حق الأولاد عن طريق فحص الحمض النووي.

قلت لها: وإذا خرجتِ إلى الدنيا ووجدت أمك تُعرفك على أبيك عن طريق هذا الفحص، ما كانت سوف تكون حالتك النفسية؟ ثم كيف تستطيع أن تقوم المرأة بدور زوجة لأربعة رجال بهذا المزاج المتقلب الذي لديها؟ إضافة للأمراض التي تسببها علاقتها مع أكثر من رجل في الوقت نفسه.

قالت أخرى: ولماذا الرجال قوامون على النساء في الإسلام؟

قلت لها: هذا تشريف للمرأة وتكليف للرجل أن يقوم على رعاية شؤونها وقضاء حوائجها، المرأة المسلمة تلعب دور الملكة التي تتمناه كل امرأة على وجه الأرض. قالت: لكنها في الواقع ليست ملكة.

قلت لها: الذكية هي التي تختار ما يجب أن تكون، إما ملكة مكرومة، أو كادحة على قارعة الطريق.

قالت: انظري كيف استغل الرجال هذه القوامة.

قلت لها: هذا لا يعيب بنظام القوامة بل يعيب بمن أساء استخدامها.

قالت: انظري إلى الرجال في بعض الدول العربية، كيف يقمع زوجته في البيت ويذهب إلى النوادي الليلية ليشرب الخمر ويلهو مع النساء.

قلت لها: كم عددهم؟ ألف، ألفين، ثلاثة؟ أتدريين ما تعداد المسلمين في أي دولة من هذه الدول؟

قالت: ولماذا أباح لهم القرآن ضرب المرأة؟

قلت لها: ومن قال هذا؟ محمد عليه الصلاة والسلام لم يضرب امرأة قط في حياته، أما الآية القرآنية التي تكلمت عن الضرب، فيقصد بها الضرب غير المبرح في حالة الشوز، وقد وُصف في القانون الوضعي في الولايات المتحدة الأمريكية في فترة ما على أنه الضرب المسموح به والذي لا يترك أثراً على الجسم، والذي يُلجأ إليه لمنع خطر أكبر منه، كأن تهزي كتف ابنك عندما توقظيه من النوم العميق كي لا يفوته وقت الاختبار على سبيل المثال.

قلت لها مستطردة: تخيلي أنك وجدت ابنتك تقف على طرف النافذة لترمي بنفسها، سوف تتحرك يديك إليها لا إرادياً وتمسكي بها وتدفعيها للخلف لكيلا تؤذي نفسها، هذا المقصود هنا من ضرب المرأة، أن يحاول منعها من تدمير بيتها وتدمير مستقبل أولادها، وطبعاً هذا بعد عدة مراحل كما ذكرت الآية.

"...وَالَّذِي تَخَافُونْ نُشَوْرُهُنْ فَمُطَوَّهْنْ وَاهْجُزُوهُنْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنْ فَإِنْ أَطَقْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيرًا" ٢٨٨.

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" ٢٨٩.

قالت: ولماذا لا تضرب المرأة زوجها إن أساء التصرف؟ قلت لها: إن استطاعت أن تأخذ حقها بيدها فلتفعل ولكن ذلك قد يتسبب في مضرة أخرى، لكن نظراً لضعف المرأة على العموم أعطاه الإسلام الحق في اللجوء إلى القضاء.

والأصل في العلاقة الزوجية في الإسلام أن تُبنى على المودة والسكينة والرحمة.

٢٨٨ (النساء: ٣٤).

٢٨٩ (الروم: ٢١).

قالت: أنا بنتي من ممارسي المثلية الجنسية ولا أستطيع أن أتدخل في قرارها.

قلت لها: ولو أَلقت بنفسها في النار هل كنت ستتدخلين أم لا؟

قالت: هذا الفرق بيني وبينك، فأنت تجدين هذا التصرف خطير وأنا أجده طبيعي، ألم تسمعي بالنسبية؟ فكما يوجد نظريات متنوعة لأصل الإنسان ونظريات لمفهوم الإله، كذلك فإن الأخلاق نسبية ولا يوجد قيم أخلاقية موضوعية، فنحن في فرنسا لا نجد إشكال في إقامة بناتنا علاقات مع زملائهن في المدرسة خارج نطاق الزواج مثلاً، وأنا عن نفسي أعطي ابنتي تكاليف إقامتها مع صديقها في فندق مجاور لتفادي لقائهم في غابة مجاورة مثلاً وتعرضهم لقطاع الطرق.

قلت لها: وجود نظريات وقناعات متنوعة عند البشر لا يعني عدم وجود حقيقة واحدة صحيحة، فمهما تعددت مفاهيمكن ونظرياتكن أنتن كمجموعة عن وسيلة المواصلات التي أستخدمها أنا للوصول إلى هنا يومياً، لا ينفي حقيقة أنني أملك سيارة سوداء اللون، ولو اعتقد العالم بأسره أن سيارتي حمراء فهذا الاعتقاد لا يجعلها حمراء، فهناك حقيقة واحدة وهي أنها سيارة سوداء.

فمن غير المنطقي أن تُقرّر قناعة بشر محكوم بهواه إن كانت عملية الاغتصاب شرّاً على سبيل المثال، بل من الواضح أن في الاغتصاب ذاته هنالك تعدي على حقوق الإنسان وانتهاك لقيمه وحرّيته، وهذا ما يدل على أن الاغتصاب شر، وكذلك المثلية الجنسية والتي هي خرق للسنن الكونية، وعلاقات خارج نطاق الزواج أيضاً. فلا يصح إلا الصحيح ولو اجتمع العالم بأسره على بطلانه، والخطأ واضح كوضوح الشمس ولو أقر بصحته جميع البشر.

وبالتالي فإن ممارسة ابتك للمثلية الجنسية هو تصرف خاطئ ومشين حتى لو اجتمع العالم على صحته، وأن الحقيقة الوحيدة والصحيحة أن الأخلاق غير نسبية ولا تتغير مع الزمان أو المكان.

وتعدد نظريات أصل الوجود لا ينفي وجود حقيقة واحدة وهي الإله الخالق الواحد الأحد الذي ليس له شريك ولا ولد، فلو أراد العالم بأسره تبني فكرة أن الخالق يتجسد في صورة حيوان مثلاً أو إنسان فهذا لا يجعله كذلك. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قالت إحداهن: لكن يجب أن نحترم آراء الآخرين ونظرياتهم. قلت لها: نحترم إرادة الاختيار التي وهبها الله للجميع ولكن لا نحترم التصرف المشين نفسه.

قالت أخرى: ولماذا حرم الإسلام التبني؟ قلت لها: وهل سمعت عن قصة الفتاة الأسترالية التي عرفت بالصدفة بعد ثلاثين عاماً أنها ابنة بالتبني وانتحرت. لو كانوا أخبروها منذ الصغر لرحموها ولأعطوها الفرصة لأن تبحث عن أهلها.

الإسلام يحث على كفالة اليتيم، ويحث كافل اليتيم على أن يعامل اليتيم كمعاملته لأبنائه، لكن يُقي الحق لليتيم لكي يتعرف على أسرته الحقيقية لحفظ حقه في ميراث أبيه ولتجنب اختلاط الأنساب.

قالت مسلمة أخرى: ولماذا الوحشية في عقوبة الزنا، انظري إلى الرقي الفرنسي. قلت لها: وبسبب الرقي الفرنسي كم من الملايين لا يعرفون من أين جاءوا؟ هل هذا رقي أم تخلف؟

قالت: ولماذا ترث المرأة نصف ما يرث الرجل؟

قلت لها: قالت لي صديقة مسلمة يومًا، إنها كانت تعاني من عدم فهم هذه النقطة حتى وفاة والد زوجها، وورث زوجها ضعف المبلغ الذي ورثته أخته، وقام هو بشراء الأساسيات التي كان يفتقدها من منزل خاص لأسرته وسيارة، وقامت أخته بشراء مجوهرات بالمبلغ الذي حصلت عليه وادخرت باقي المبلغ في البنك، حيث أن زوجها هو من عليه توفير المسكن وغيرها من الأساسيات، ففهمت صديقتي في هذه اللحظة الحكمة من وراء هذا الحكم، وحمدت الله.

قلت للسائلة مستطردة: ولقد حُرمت المرأة قبل الإسلام من الميراث، وحين جاء الإسلام شملها في الميراث بل وإنها تحصل على حصص أكثر من الذكور أو مساوية لهم وقد تراث ولا يرث الرجل في بعض الحالات، في حين أن الذكور يحصلون على نسب أعلى حسب درجة القرابة والنسب.

قالت: لكن في كثير من المجتمعات تعمل المرأة وتكد لرعاية أسرهما، فحكم الميراث هنا فاسد.

قلت لها: هل الخلل في هاتفك والذي تسببت أنت به بعدم اتباعك لتعليمات التشغيل، دليل على فساد تعليمات التشغيل؟

وجادلوا بالباطل لئُدحضوا به الحق:

وكانت قد استطردت الفرنسية بأسئلتها قائلة: إن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة بجعل شهادتها النصف من شهادة الرجل.

قلت لها: إن شهادة الرجل لم تقبل قط وحده حتى في أئفه القضايا المالية، ولم يعترض الرجل المسلم ويعتبر ذلك مساسًا لكرامته، غير أن المرأة قد امتازت على الرجل في سماع شهادتها وحدها دون الرجل فيما هو أخطر من الشهادة على الأمور الصغيرة، وذلك في الشهادة على الولادة وما يلحقها من نسب وإرث.

"وَأَشْتَسْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى" ٢٩٠.

أما "الإشهاد" في دين خاص التي تتكلم عنه الآية هنا، فهو نصيحة وإرشاد لصاحب الدين ذي المواصفات والملابس الخاصة وليست تشريعاً موجهاً إلى القاضي الحاكم في المنازعات، بناءً على عدم اشتغال النساء بأسواق المبيعات في ذلك الوقت، وهذا يختلف عن "الشهادة".

فالشهادة التي يعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل المؤسس على البيئة لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معياراً لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها؛ وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهد ذكراً كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود. وعلى أية حال يجب أن نعلم أن الشهادة تكليف ومسؤولية، وعندما يخفف الله عن المرأة في الشهادة فهذا إكرام لها وليس العكس.

قالت: ولماذا يحث الإسلام على الرِّق؟

قلت لها: لا توجد في القرآن الكريم ولا آية واحدة تحث على الرِّق، وقد كانت العبودية قبل الإسلام نظاماً قائماً معمولاً به بين الشعوب، وكانت بلا قيود، وكانت مكافحة الإسلام للعبودية تهدف إلى تغيير نظرة وعقلية المجتمع بأسره، بحيث يصبح العبيد بعد تحريرهم كأعضاء كاملين فاعلين في المجتمع دون الحاجة إلى اللجوء للمظاهرات أو الإضرابات أو العصيان المدني أو حتى الثورات العرقية. لقد كان هدف الإسلام التخلص من هذا النظام الممقوت بأسرع ما يمكن وبوسائل سلمية.

قالت: وكيف ذلك؟

قلت لها: الإسلام لم يسمح للحاكم بمعاملة رعيته معاملة استرقاق، كما منح الإسلام كل من الحاكم والمحكوم حقوق وواجبات ضمن حدود الحرية والعدالة المكفولة للجميع، فیتتم تحرير العبيد تدريجيًا من خلال الكفارات وفتح باب الصدقات والمساواة في الخير من خلال عتق الرقاب للتقرب لرب العالمين. والمرأة التي تلد لسيدها لم تكن تُباع وكانت تحصل على حريتها تلقائيًا عند موت سيدها، وبخلاف جميع التقاليد السابقة فإن الإسلام شرّع أن يلحق ابن المرأة العبد بأبيه فيكون حرًا. كما شرّع أن يشتري العبد نفسه من سيده من خلال دفع مبلغ من المال أو العمل لفترة محددة.

"... وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا... "٢٩١.

وفي المعارك التي أُجبر المسلمون على خوضها دفاعًا عن الدين، النفس والمال، كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بمعاملة الأسرى بالحسنى. وكان بإمكان الأسرى الحصول على حريتهم من خلال دفع مبلغ من المال أو تعليم الأطفال على القراءة والكتابة. كما أن نظام الأسر في الإسلام لم يجرم طفل من أمه أو أخ من أخيه.

وأمر الإسلام المسلمين بإظهار الرحمة لهؤلاء المقاتلين الذين يستسلمون.

"وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ" ٢٩٢.

٢٩١ (البور: ٣٣).

٢٩٢ (التوبة: ٦).

كما نص الإسلام على إمكانية مساعدة العبيد على تحرير أنفسهم من خلال الدفع من أموال المسلمين أو خزانة الدولة، حيث قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فدية لتحرير العبيد من أموال الخزانة العامة.

قالت: أليست شعائر الحج وثنية من تعظيم للكعبة وغيرها من الشعائر؟ قلت لها: هل يُفهم من احترام المواطنين في أي بلد من البلدان لأي نُصب تذكاري بنشر صورته ووضع علامته في الأوراق الرسمية ونحو ذلك بأن هذا عبادة للنُصب التذكاري؟ فرق كبير بين الديانات الوثنية، وبين تعظيم أماكن ومشاعر معينة سواء دينية أم وطنية وقومية.

قالت: ولماذا يُقبَل المسلمون الحجر الأسود؟

قلت لها: وهل تعيبي على شخص تقبيل مطروف فيه رسالة من والده مثلاً.

قالت: ورمي الجمرات؟

أما رمي الجمرات فهو حسب بعض الأقوال لإظهار مخالفتنا للشيطان وعدم اتباعه، واقتداء بفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما ظهر له الشيطان ليمنعه من تنفيذ أمر ربه وذبح ابنه فقام برميهِ بالحجارة^{٢٩٣}. وكذلك السعي بين الصفا والمروة فهو اقتداء بعمل السيدة هاجر عندما سعت للبحث عن ماء لابنها إسماعيل. وفي كل الأحوال وبغض النظر عن الآراء بهذا الخصوص، فجميع مناسك الحج هي لإقامة ذكر الله وللدلالة على الطاعة والانقياد لرب العالمين ولا يُقصد منها عبادة حجارة أو مكان أو أشخاص. في حين أن الإسلام يدعو إلى عبادة إله واحد وهو رب السماوات والأرض وما بينهما وخالق كل شيء ومليكه.

^{٢٩٣} الإمام الحاكم في المستدرک والإمام ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه.

"إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" ٢٩٤.

قالت: أنا بالنسبة لي هذه الشعائر خيفة، فكم من مسلم مات بسبب التزامه الشديد.

قلت لها: قد يموت في هذا الحدث السنوي العشرات بسبب التزامه، لكن من يموت بسبب شرب الكحول بالملايين سنوياً، وضحايا تجمعات ملاعب كرة القدم والمهرجانات في أمريكا الجنوبية وأكثر من ذلك، وعلى أية حال فالموت حق ولقاء الله حق، والموت على طاعة خير من الموت على معصية. مالكم كم إكس يقول:

"ولأول مرة بعد تسعة وعشرين عاماً قضيتها على هذه الأرض، وقفت أمام خالق كل شيء وشعرت أنني إنسان كامل، ولم أشهد في حياتي أصدق من هذا الإخاء بين أناس من جميع الألوان والأجناس، أمريكا بحاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل لمشكلة العنصرية" ٢٩٥. وتقول أيفلين كوبولد:

"والإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضاً، ويُعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفقاً لإرادة خالقه وأوامر ربه، والذي يعيش بسلام مع الله وعباده، ولعل أجمل ما في الإسلام هو الوحدةانية الإلهية وخلوه من التقاليد والبدع، والتصاقه الكامل بما في الحياة من أمور عملية. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح، وليس هناك في الإسلام إيمان دون عمل صالح أبداً، وهذا ما يجده المرء مردداً في القرآن أكثر من مرة في مختلف سورته وشئ آياته. ولقد

٢٩٤ (الأنعام: ٧٩).

٢٩٥ داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان أمريكي من أصل إفريقي (إفريقي أمريكي)، صحَّح مسيرة الحركة الإسلامية في أمريكا بعد أن انحرفت بقوة عن العقيدة الإسلامية ودعا للعقيدة الصحيحة.

فرض الإسلام الحج على المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فالمرضى معذور والفقير كذلك، والمستعبد أيضاً، ويُشترط في الحج أن تكون الطريق إليه خالية من المخاطر، لا ينتظم فيها مرض ولا ظُلامة، أما الحج نفسه فلا يوجد من يُنكر كبير شأنه وما يغمر النفس فيه من انطلاق إلى المثل الروحية العليا، وانفلات من أعراض الدنيا، والتوجه إلى الله بقلب سليم مع هذه الألوف المؤلفة من البشر على اختلاف أمصارهم، وتباعد لغاتهم، وتعدد مشاربهم وأذواقهم، يأتون من أقصى الأرض ويتحملون في طريقهم من المشقات واضطراب السبل وبعد المسافات ما ليس بالإمكان تقديره ولا تصوره، وكل ذلك ليقفوا في صعيد واحد أمام الله - جلَّ شأنه - يتقدمون إليه بقلوب صافية وأفئدة متشوقة ودموع جارية"^{٢٩٦}.

^{٢٩٦} الليدي افلين زينب كوبولد، كتبت كتاب "الحج إلى مكة" (لندن، ١٩٣٤)، مستشفقة أسكتلندية ولدت في ادنبره في أسرة ارستقراطية، اعتنقت الإسلام وأدت فريضة الحج سنة ١٩٣٣.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ:

أذكر أن أُنْتُ عليّ مُدرسة اللغة الألمانية مرّةً قائلة: من زرع فيك كل هذه الطاقة في حب العلم وبذل المجهود والمال والصحة في الدراسة والعمل ورعاية أولادك؟ قلت لها: من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: اغتنب خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلِكَ، وحياتك قبل موتك. قالت: عجيب! قمة في الحكمة، أنتم نوع فريد من البشر، فتذكرت حينها الآية الكريمة: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" ٢٩٧، وحمدت الله كثيرًا.

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين:

وفي حوار لي مع مجموعة من حملة شهادة الدكتوراه، كانوا قد جاءوا في زيارة لحضور مؤتمر دولي، وأثناء زيارتهم للمسجد سألتني أحدهم عن خطيئة آدم، واستهزأ قائلاً: فعلها آدم بسبب حواء وتحملناها نحن مدى الحياة. قلت له: هذا في عقيدتكم، أما في الإسلام فقد غفر الله لآدم، وعلمنا كيف نعود إليه متى أخطأنا على مر الحياة، إنها ليست الخطيئة الأصلية، إنها العفو الأصلي.

"فَقُلْنَا أَدَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" ٢٩٨.

٢٩٧ (آل عمران: ١١٠).

٢٩٨ (البقرة: ٣٧).

وبذلك فإن النساء لا تتحمل وزر خطيئة آدم، بل حرص الإسلام على رفع شأن المرأة. وقد لعبت المرأة دورًا كبيرًا في كثير من القصص التي ذُكرت في القرآن الكريم، مثل بلقيس ملكة سبأ وقصتها مع النبي سليمان والتي انتهت بإيمانها وإسلامها لرب العالمين.

"إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" ٢٩٩.

قال: وهل يستطيع أي إنسان أن يصبح مسلمًا؟
قلت له: بالتأكيد.

قال: وكيف ذلك؟

قلت له: كل طفل يولد على فطرته الصحيحة عابدًا لله، فهو دون تدخل الأهل أو المدرسة أو أي جهة دينية يعبد الله مباشرة، حتى سن البلوغ، فيصبح مكلفًا ومحاسبًا على أعماله، فحينها إما أن يأخذ المسيح وسيطًا بينه وبين الله ويصبح نصرانيًا، أو يتخذ بوذا وسيطًا ويصبح بوذيًا، أو كريشنا ويصبح هندوسيًا، أو يتخذ محمدًا وسيطًا ليحيد عن الإسلام تمامًا، أو أن يبقى على دين الفطرة عابدًا لله وحده، وحينها صفقت المجموعة.

قال: لماذا لا يُسمح لغير المسلم بدخول مكة؟

قلت له: حتى المسلم الذي يتخذ من محمد عليه الصلاة والسلام وسيطًا بينه وبين الله غير مُرحب به في مكة، ويُطلب منه التوقف عن التوسل بالرسول الكريم أو مغادرة المكان.

قال: ألا تجادلون ذلك ضد التسامح؟

قلت له: وهل تستطيع شراء الخضار من البنك في بلدك؟

قال: لا.

قلت له: لماذا؟

قال: لأن البنك فقط للمعاملات المالية في حين أن شراء الخضار يكون من المتجر.

قلت له: إذا فحارس البنك لا يكون غير متسامح عندما يقول لك: هذا المكان للمعاملات المالية، اذهب إلى المتجر لشراء الخضار.

قلت له مستطردة: مكة المكرمة عبارة عن مكان خُصص لعبادة الله وحده بدون وسيط، وهو للعبادة فقط وليس للسياحة، وليس من المنطقي أن يأتي البوذي إلى هذا المكان ويلجأ إلى بوذا بالطلب، ويأتي النصراني ليلجأ إلى المسيح بالطلب، أو حتى المسلم يأتي ليلجأ إلى النبي محمد بالطلب، من أراد أن يعبد غير الله فلا يأتِ إلى بيت الله.

قال أحدهم: لماذا يُرسل الله إلى الناس رسلاً مثلهم؟ لماذا لا يُرسل إليهم ملائكة؟

قلت له: إن الذي يناسب البشر هو بشر مثلهم يكلمهم بلغتهم ويكون قدوة لهم، ولو أرسل إليهم ملكاً رسولاً وفعل ما استصعب عليهم لاحتجوا بأنه مَلَك يستطيع ما لا يستطيعون.

"قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا" ٣٠٠ .
 "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ" ٣٠١ .

٣٠٠ (الإسراء: ٩٥).

٣٠١ (الأنعام: ٩).

قال: أنا أؤمن بالله ولا أؤمن برسالة محمد ولا بالمسيح، ولا أؤمن أن الله يرسل رسلاً.

أدركت من تعليقه أنه من الديانة اليهودية، وقلت له: إنك لو عرفت الله تعالى حق المعرفة لعلمت أنه لا يمكن أن يخلق الناس ثم لا يمدّهم بما تحتاج إليه أرواحهم من هداية، كما تفضل عليهم بكل ما تحتاجه أجسامهم من طعام وشراب وأرض وهواء وشمس وقمر، بل يتركهم يقعون في التباس وحيرة وقلق، ثم إذا كنت لا تؤمن بأن الله يرسل رسلاً، فكيف تؤمن بموسى؟ من الذي أرسل إليه الكتاب الذي جاء به؟

"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ دَرَسُوا فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ" ٣٠٢.

قال: وما الدليل على نبوة محمد؟

قلت له: الدليل على صدق نبوته تجدها في سيرته، فقد عُرف رجلاً صادقاً أميناً، وقد كان أميناً لا يقرأ ولا يكتب.

"وَمَا كُنتُمْ تَثَلَوْنَ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ ۚ إِذَا لَازَنَابُ الْمُبْطِلُونَ" ٣٠٣.

وكان الرسول أول من يطبق ما يدعو إليه، ويصدق أقواله بالأفعال، وأنه لم يكن يطلب أجراً دنيوياً على ما يدعو إليه، فعاش فقيراً كريماً رحيماً متواضعاً، وكان أكثرهم تضحية وأزهدهم فيما عند الناس.

"أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبَدَّلَ اللَّهُ فَخْرَهُمْ فَقُلْ لَّا أَنَالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ" ٣٠٤.

٣٠٢ (الأنعام: ٩١).

٣٠٣ (العنكبوت: ٤٨).

٣٠٤ (الأنعام: ٩٠).

وقدّم أدلة على صدق نبوته بما أتاه الله من آيات القرآن الكريم الذي جاء

بلغتهم وكان من البلاغة والفصاحة ما يجعله يعلو على كلام البشر.

"أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" ٣٠٥.

"أَمْ يَتَّبِعُونَ أَفْئِرَةً قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ٣٠٦.

"فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" ٣٠٧.

قال: ما الفرق بين النبي والرسول؟

قلت له: النبي من أُوحي إليه ولم يأت برسالة أو منهج جديد، وأما الرسول

فيعثه الله بمنهج وشريعة تناسب قومه، (التوراة، الإنجيل، القرآن، صحف

إبراهيم، الزبور).

قال: هل الإمام في الإسلام مثل القسيس في النصرانية؟

قلت له: كلمة إمام تعني من تقدم قومه بالصلاة أو برعاية شؤونهم وقيادتهم،

وهي ليست رتبة دينية محصورة في أشخاص معينين، ولا يوجد طبقة في

الإسلام، والناس كلهم سواسية كأسنان المشط، والأولى بإمامة الصلاة هو

الأكثر حفظاً والعارف بما يلزم معرفته من الأحكام المتعلقة بالصلاة، ومهما

حصل الإمام على احترام من المسلمين فإنه في كل الحالات لا يسمع لاعتراض

ولا يغفر الذنوب كما هو الحال عند القسيس.

قال: ما الفرق بين الفكر الإسلامي والفلسفة؟

٣٠٥ (النساء: ٨٢).

٣٠٦ (هود: ١٣).

٣٠٧ (القصص: ٥٠).

قلت له: الفكر الإسلامي هو مجموعة العلوم والمعارف القائمة على أسس وضوابط إسلامية، وإذا كان مخالفاً لهذه الضوابط فهو فكر غير إسلامي. والفلسفة في الأصل هي البحث عن الحكمة، وعرفها سقراط بأنها البحث العقلي عن حقائق الأشياء المؤدية إلى الخير، وهي بهذا المعنى أمر حسن، ولكن واقع الفلسفة هو الخوض في علم الكلام، وتحكيم العقل في العقائد ومنها الإلهيات والنبوات والغيبيات وغيرها دون التصديق بالوحي، وهذا يناقض بديهيات العقيدة.

قال: ما الفرق بين الرسول والفيلسوف؟

قلت له: إن معرفة الحقائق القصوى مصدرها الله، والفيلسوف يعتمد على عقله ومنطقه في استنباط الحقائق، وإدخال مفاهيم فلسفية فيها، ويتجاهل محدودية تفكيره كبشر. أما الرسول فتأتيه الحقائق من عند الله عن طريق الوحي. ولا مقارنة بين الرسول والفيلسوف، فعلى الفيلسوف أن يتبع الرسل وليس على الرسل أن تتبع الفيلسوف، فالرسول مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه، والوحي حاكم والعقل محكوم عليه.

قال: وما هو الشرع الجديد؟

قلت له: هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً، لم يكن في التشريع السابق. **"وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ" وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا** "٣٠٨".

قال: الكون هو المصدر الوحيد للمعرفة ولا مكان للوحي.

قلت له: بل كلاهما معاً، الكون والوحي، أي خَلَقَ الله ووحي الله.

فمصادر العلم عند المسلم هي الكون والوحي، ووسائله هي الحس والعقل، وأما المنهج فيختلف باختلاف نوع العلم ونوع المصدر.

"وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٠٩"

قال: وما رأي الإسلام في نظرية المعرفة وعقلانية الاعتقاد؟
قلت له: إذا كنت تقصد بنظرية المعرفة بأنه القول المطابق للواقع فهذا ما جاء به الإسلام.

كان بعض العرب يعتقدون أن الرجل الذكي له قلبان، وكان الواحد منهم إذا غضب من زوجته قال لها أنت كأمي، وكان الواحد منهم يتبنى ابن غيره وينسبه إلى نفسه كأنه ولده، كما يفعل الناس الآن في الغرب، فحكم الله تعالى على كل هذه الدعاوى بأنها مجرد كلام لساني وأنها مخالفة للحق.

"مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلْتَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٣١٠"
" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٣١١".
وهذا هو الفرق بين الحق والباطل، فالحق يعكس العلم الحقيقي المطابق للواقع، وأما الباطل فهو وهم.

القرآن الكريم يؤكد على إمكانية اكتساب العلم بعد ولادة الإنسان.
"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣١٢"

٣٠٩ (التكوير: ١٩-٢٠).

٣١٠ (الأحزاب: ٤).

٣١١ (الحج: ٦٢).

٣١٢ (النحل: ٧٨).

والحواس كالسمع والبصر مرتبطة كلها بالدماغ، وهي مصدر المدخلات، ويقوم العقل بعملية تفكيك هذه المدخلات (عملية التعقل)، فتنجح الفكرة التي ترتبط بالشعور الذي يدفع الإنسان إلى سلوك مُعَيَّن، والعقل هو الذي يحول المادة الآتية عن طريق الحواس إلى أشياء لها معنى بالنسبة للإنسان، ويعرض العقل على القلب الأفكار والخواطر والتي بضوئها تنفعل له عضلة القلب، ويقوم بدوره بالتصديق عليها. ويمكن تشبيه ذلك ببطارية موجودة في جوف الدماغ ومربوطة بسلك عصبي بمصباح موجود في عضلة القلب، فالمصباح يضيء من هذه البطارية التي في الدماغ، ولذلك نرى في القرآن الكريم قول الله تعالى:

"فَإِنَّهَا لَا تَعْقَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْقَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" ٣١٣.

أي أن الضلال في عقل الإنسان يُطفأ نور القلب الذي في الصدر، وهو انعكاس ما في باطن الإنسان من أفكار ضالة.

وأكثر الحواس ارتباطاً بالعقل هو السمع.

الإنسان يسمع:

- أصواتاً للأشياء الطبيعية كالرعد والريح والطيور.
 - الكلام، وهو أصوات تدل على معاني، ويستعمل القرآن الكريم السمع غالباً بهذا المعنى.
- أما الذي لا يعقل الكلام ولا يستفيد منه فإن القرآن يشبهه بالدابة التي لا تسمع من الكلام إلا الأصوات.
- "أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَفْقَهُونَ ۚ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۚ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَيْلٍ" ٣١٤.

٣١٣ (الحج: ٤٦).

٣١٤ (الفرقان: ٤٤).

"وَمَقُلْ الَّذِينَ كَفَرُوا كَغُلٍّ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ۚ صُمُّ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" ٣١٥.

وأما الكلام فمنه ما هو حق ومنه ما هو باطل، ولا سبيل إلى معرفة ذلك بالحس وحده، فلا بد أن ينضم إليه العقل فيقرر أولاً ما إذا كان الكلام متناقضاً أم متسقاً، فإذا وجد متناقضاً حكم ببطلانه.

ومع أن الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، لكن عقله يأتي مفطوراً على التوحيد.

فنقرأ في حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

"كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" ٣١٦.

نفهم هنا أن:

- الإنسان يولد وفي عقله بذرة التوحيد، أي الإقرار بأنه لا إله يستحق أن يُعبد إلا الإله الخالق الواحد.

- الإنسان يولد بفطرة لا يناسبها إلا الحقائق والأحكام التي جاء بها الإسلام كمعتقد وسلوك.

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" ٣١٧.

ولذلك فإنه لا يشعر بالطمأنينة والراحة النفسية إلا إذا كان مسلماً عابداً لله.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۚ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" ٣١٨.

قال: هل الحقيقة نقيضاً للجمال والفن والثقافة في الإسلام؟

٣١٥ (البقرة: ١٧١).

٣١٦ (صحيح مسلم).

٣١٧ (الروم: ٣٠).

٣١٨ (الرعد: ٢٨).

"الحقيقة" في الإسلام صيغت لتتوافق والذوق الجمالي المرفه وتخطب فطرة الإنسان، وتشير إلى ما تتحقق به سعادته في الدنيا والآخرة.

"قُلْ لِيْ صَلَاتِيْ وَنُسُكِيْ وَمَخَاتِيْ وَلِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ لَا شَرِيْكَ لَهٗ وَبِذٰلِكَ اُمِرْتُ وَاَنَا اَوَّلُ الْمُسْلِمِيْنَ" ٣١٩.

إن النص القرآني الكريم يقرن الظواهر الجمالية كلها بضرورة شكر خالقها، كما أن نصوص الحديث الشريف بينت أن المسلم مطالب بإظهار نعم الله عليه بالزينة الظاهرة والباطنة، واعتبرت ذلك من شكر الله ومحبته.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال" ٣٢٠.

والجمال هنا يأخذ مشروعيته من تعاليم الإسلام التي تحض المسلم على أخذ الزينة في كل تفاصيل حياته اليومية، بدايةً من التطهر للصلاة والاهتمام بجمال المظهر والملبس والمسكن والمركب، مرورًا بجماليات التواصل والتخاطب، والتوجيهات المرتبطة بالمبالغة في التزين في العلاقات الزوجية، وهي علاقة يحيطها الإسلام بمهالة من التوصيات الجمالية التي لا تغفل تفاصيل الكلمة الجميلة، والنظرة الحانية، وانتهاءً بالآداب المختلفة لقضاء الحاجة والسواك والتطيب وانتقاء الجميل من الثياب، وهي تربية جمالية موجهة وقاصدة، تهدف إلى تشكيل السلوك الجمالي للمسلم، ويتجلى في إبداعه اليومي، ركوعًا وسجودًا، دعاءً وابتهالاً، صيامًا وتحجّدًا، كتابةً وتأليفًا، رسمًا ونقشًا، بناءً ومعمارًا.

في الواقع مشكلة تناقض الدين مع الجمال هي عبارة عن مشكلة غربية وليست إسلامية، فإن تزعزع القيم الدينية في الغرب والموقف السيء الذي وقفه المفكرون

٣١٩ (الأعام: ١٦٢-١٦٣).

٣٢٠ (صحيح مسلم).

والأدباء والفنانون عامة من التصورات الكنسية وتاريخها قد ساعد على محاولة إقصائها عن الحياة والفكر والفن بصفة عامة، كما حدث بينها وبين السياسة والعلم.

إن العالم اليوم في أمسّ الحاجة إلى إنتاجات جمالية تُرجع الإنسان إلى إنسانيته، وتحقق له السعادة التي افتقدها في غمرة انشغالاته المادية، وعدم قدرته على المواءمة بين متطلبات الروح وحاجات الجسد، بعد أن تبلدت أحاسيسه وصار يستهلك كل ما تلفظه وسائل الإعلام من مواد، والتي تصل بيوتنا اليوم، والتي ضيقت وعي الإنسان وجعلته أسيرًا للشاشة الصغيرة في البيت.

يقول "بريجنسكي" مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق في كتابه "الانقيار": "نحن أصبحنا مجتمع إبادة الاستباحة؛ الفرد لدينا استباح كل شيء، ولم يعد في قاموسه كلمة حرام أو محرم؛ وبهذا لا تستقيم حضارة ولا تستمر، السفينة كلها تغرق ولا يملك أحد إنقاذها، وإنقاذها مرهون بالعودة إلى الدين والأخلاق".

قال الزائر: الفن والجمال هما مصدر الثقافة.

قلت له: الثقافة هي التي تنتج الفن والجمال لا العكس.

"وليس" عالم الأنثوجرافيا الثقافية يقول:

"إن الحدود بين الفنون وغير الفنون يجب أن يعاد رسمها أو إلغاؤها كلية، فمن الضروري ألا يُكتفى بنقد وجهة النظر القائلة بأن المساهمة في الفن تنتج الثقافة، بل يجب علينا الإعلان عن أن الثقافة هي التي تقوم فعليًا بإنتاج الفن وليس العكس".

لقد قدّمت الفلسفات المختلفة منذ القدم تصوراتها في الفن والجمال، فجاءت هذه التصورات مضطربة متناقضة كما نرى في الأمثلة التالية:

- "أفلاطون" يُرجع الجمال إلى المثل الخالد وهو من بقايا ذكريات الروح، ويفسّر ذلك بنظرية المحاكاة.
- "أرسطو" نقض نظرية المحاكاة وعالم المثل واهتم بالواقع، وكان الجمال عنده تناسق التكوين.
- "بومبارتن" ربط الجمال بالحس والشعور.
- "كانط" اعتبر الفن غاية في ذاته.
- "جوتيه" يرى أنه لا وجود لشيء جميل حقًا إلا إذا كان لا فائدة له وكلّ ما هو نافع فهو قبيح.
- "فيخته" يرى أن الفن هو تحرير الذات.
- الفيلسوف الألماني "شوبنهاور" يرى أن الجمال هو في التأمل الخالص روحياً دون أن نمزج به إرادتنا، فألغى إرادة الإنسان^{٣٢١}.

أما الأدب والفن في الإسلام هو الأدب الملتزم التزام صدق ويقين والتزام لغة ودين، وهو تعبير عن قضية أو موضوع بوسيلة طاهرة مباحة، وتوفير المتعة الحلال التي أحلها الله لعباده والأمن والأمان، وليعين الإنسان على الوفاء بعهده مع الله سبحانه وتعالى: عبادةً وأمانةً وخلافةً وعمارةً للأرض بالإيمان والتوحيد. وقد نقل الإسلام الأدب نقلة واسعة جدًا لم يحدث مثلها في التاريخ البشري، فقد نقل اللغة العربية من كونها لغة شعب واحد إلى كونها لغة النبوة الخاتمة، ولغة العبادة لكل مسلم أبداً الدهر، عبادة وطاعة لله على امتداد الأرض والزمان.

^{٣٢١} الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته. عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي.

وتحقق الجمالية الإسلامية في تبليغ رسالة التوحيد إلى العالم، إفراداً لله بالعبودية، وتنزيهاً له عن الشركاء والأنداد.

"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" ٣٢٢.

ويتجلى الجمال في فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، ثم في نفس الإنسان المؤمن وخلقه، ثم في عمله، ثم في كلمته وبيانه: صبر جميل، صفح جميل، سراج جميل، هجر جميل، وغير ذلك، هكذا يمتد الجمال في تصور المؤمن حتى إنه يعيش الجمال الحق في أمره كله، على قدر إيمانه واتصاله بالكون وإدراك جماله، واتصاله بخالق الكون ٣٢٣.

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ" ٣٢٤.

"وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" ٣٢٥.

"وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنشَأَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" ٣٢٦.

قال: وكيف نشأت اللغة؟ ألم تنشأ كما يقول العلماء تطوراً عن أصوات القردة؟ أضحكي سؤاله وأجبته بما قرأته يوماً وأعجبني ٣٢٧: لقد ثبت أن ملكة اللغة مبرمجة فطرياً (جينياً) في بنية أدمغتنا، وأن لغات العالم جميعها تشترك في نفس القواعد التي تحكمها.

٣٢٢ (فصلت: ٣٣).

٣٢٣ الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته. عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي.

٣٢٤ (التين: ٤-٦).

٣٢٥ (النحل: ٥-٦).

٣٢٦ (الغل: ٨٨).

٣٢٧ مقتبس بنصرف من كتاب وهم الإلحاد. دكتور عمرو شريف. طبعة الأزهر نوفمبر/ ديسمبر ٢٠١٣.

"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" ٣٢٨.

لقد ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه تعالى علم آدم الأسماء كلها.

"وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ٣٢٩.

وتعليم آدم الأسماء يعنى أنه تعلم أن لكل شيء اسمًا، سواء كان شيئًا ماديًا كالماء والسماء، أو شيئًا غير مادي كالألم والضوء، أو معنى مجردًا كالحرية والسعادة، وهذا ما يُسمى بالترميز. والقدرة على الترميز من أرقى الملكات العقلية الإنسانية التي لا يمارسها سواه، وتُعتبر أحد الفروق الجوهرية بين الإنسان وغيره من الكائنات.

"خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" ٣٣٠.

والبيان هو صياغة الأفكار بتعقل وتبعًا لقواعد، ويستعمل الإنسان في ذلك الرموز التي أطلقها على الأشياء، كما يستعمل قواعد اللغة المبرمجة في عقله.

"قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ" ٣٣١.

والنطق هو المرحلة التالية في اللغة المنطوقة، ويقوم بها جهاز النطق (الحنجرة والبلعوم والفم) والمراكز المخية المسؤولة عن عمل هذا الجهاز.

ولا يكون لهذه المنظومة فائدة وقيمة بدون مُستقبل لهذه المعلومات المنطوقة، لذلك خلق الله تعالى لنا السمع.

"قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" ٣٣٢.

٣٢٨ (الروم: ٢٢).

٣٢٩ (البقرة: ٣١).

٣٣٠ (الرحمن: ٤:٣).

٣٣١ (الذاريات: ٢٣).

٣٣٢ (الملك: ٢٣).

وتكتمل منظومة اللغة الإنسانية بأن يعقل الإنسان ما يسمعه ويفهمه.
"... كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ٣٣٣.

وقد توصل الطب الحديث إلى أنواع من الخلل الذي يمكن أن يصيب هذه المنظومة، فمن إنسان لا يعقل ما يسمعه، إلى آخر غير قادر على السمع، إلى ثالث غير قادر على النطق، وآخر لا يستطيع صياغة أفكاره، إلى أخير ينظر إلى الشيء ولا يجد له في عقله اسماً.

قال: وما رأيكم بمفهوم نسبية الزمن الذي توصل إليه آينشتاين عندما قال: "ليس لنا أن نتحدث عن الزمان دون المكان، ولا عن المكان دون الزمان، وما دام كل شيء يتحرك فلا بد أن يحمل زمنه، وكلما تحرك الشيء أسرع فإن زمنه سينكمش بالنسبة لما حوله من أزمنة مرتبطة بحركات أخرى أبطأ منه"؟

قلت له: قد أشار القرآن الكريم إلى نسبية الزمن، وذكر أن هناك يوماً طوله ألف سنة، ويوماً يبلغ طوله خمسين ألف سنة.

"يَذُكِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" ٣٣٤.

"تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" ٣٣٥.

والزمن كما يقول آينشتاين ليست له حقيقة منفردة وقائمة بذاتها، وإنما هو من خواص المادة، ولذلك فالكون أشبه ما يكون بكتاب سُجلت فيه الحوادث بدقة، بحيث إن كل حركة أو فعل أو قول مسجل في هذا الكون، وكل ما يتلفظ

٣٣٣ (الروم: ٢٨).

٣٣٤ (السجدة: ٥).

٣٣٥ (المعارج: ٤).

به الإنسان من يوم ولادته وحتى وفاته يبقى محفوظاً، وهذا ما ذكر بدقة عجيبة في القرآن الكريم.

" مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ " ٣٣٦.

ولدينا أيضاً دلالة أخرى على تطرق القرآن الكريم لمفهوم نسبية الزمن.

" وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا " ٣٣٧.

وقد ذكر الله تعالى هنا أن أصحاب الكهف لبثوا ٣٠٠ سنة وازدادوا تسعاً.

وقد سبق القرآن كل علوم الفلك حينما قدر الفترة التي لبثها أهل الكهف

بثلاثمئة سنة، والتي تعدل في الوقت

نفسه ٣٠٩ عام، بمعنى أن كل ٣٠٠ سنة شمسية = ٣٠٠ × ٣٦٥, ٢٥ = ١٠٩٥٧٥ يوماً.

٣٠٠ سنة قمرية = ٣٠٠ × ٣٧, ٣٥٤ = ١٠٦٣١١ يوماً.

الفرق بين التقويمين: ١٠٩٥٧٥ - ١٠٦٣١١ = ٣٢٦٤ يوماً = ٩ سنوات.

أي أن ٣٠٩ عام قمرى يقابلها ٣٠٠ سنة ميلادية بفرق ٩ سنوات.

وأيضاً هنا:

إن ٣٠٠ عامًا على الأرض (١٠٩٥٧٥ يوم) تعادل على عطارد = ١٠٩٥٧٥

÷ ٨٨ (سنة عطارد ٨٨ يوماً أرضياً) = ١٢٤٥ سنة.

على الزهرة = ١٠٩٥٧٥ ÷ ٢٤٣ = ٤٥١ سنة.

٣٣٦ (ق: ١٨).

٣٣٧ (الكهف: ٢٥-٢٦).

وهكذا يظل الزمن نسبيًا، أما القيمة الحقيقية فلا توجد إلا عند من أحاط بالزمان والمكان وهو الله تعالى.

"قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ٣٣٨.

ويتطرق القرآن الكريم إلى نسبية الحياة الدنيا أيضًا.

"قَالَ كَمْ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَاذِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّهُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" ٣٣٩.

"وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْتُوا عِزَّ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ" ٣٤٠.

"كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا" ٣٤١.

قال بعدها: يقول كثير من العلماء إن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره؛ لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر، فكل عصر يحاول أن يرى الماضي من خلال اهتماماته والأفكار السائدة فيه، فالتاريخ نسبي أيضًا.

قلت له: هذا صحيح ولكنه لا ينفي أن للأحداث حقيقة واحدة شئنا أم أبينا، وتأريخ البشر المعرض للتشويه وعدم الدقة للأحداث والقائم على الأهواء ليس كتأريخ رب العالمين لها، والذي هو غاية الدقة ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

"غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سِتْفِيلُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" ٣٤٢.

٣٣٨ (الكهف: ٢٦).

٣٣٩ (المؤمنون: ١١٢-١١٤).

٣٤٠ (الروم: ٥٥).

٣٤١ (النازعات: ٤٦).

٣٤٢ (الروم: ٥-٢).

تحدث هذه الآيات عن هزيمة البيزنطيين على أيدي الفرس في معركة أنطاكية، وقد كان وعدًا للمسلمين أن تنقلب الهزيمة في بضع سنين إلى انتصار للبيزنطيين، وقد كان انتصارهم أمرًا مهمًا للمسلمين، لأنهم كانوا نصارى ويُعدون من أتباع دين سماوي، بينما يُعد الفرس من أتباع الديانة الزرادشتية وهي ديانة وثنية. وقد دارت المعركة في المنطقة المحيطة بالبحر الميت، (في أحود وادي الأردن)، والحقيقة المثيرة للاهتمام لغير المسلمين والتي اكتشفت مؤخرًا من خلال الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الحديثة أن المنطقة المحيطة بالبحر الميت هي الأقل ارتفاعًا على الأرض، وهذه معجزة قرآنية، فلم تكن هذه الحقيقة معروفة أو متوقعة لهم في القرن السابع، حيث لم تكن الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الحديثة متاحة في هذا الوقت، التفسير الممكن الوحيد هو أن النبي محمد قد تلقى وحياً إلهياً من الله خالق الكون ومبدعه، وبعد حوالي ٧ سنوات من نزول الوحي بهذه الآيات، تحقق وعد الله بانتصار الرومان في القرآن بإعجاز.

وقد سبق القرآن الكريم نظرية نسبية التاريخ أيضاً في تدوين الأحداث في لوح محفوظ.

"وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" ٣٤٣.

قال: كيف تنظرون لمفهوم التنوير؟

قلت له: يقوم المفهوم الإسلامي للتنوير على قاعدة راسخة من الإيمان والعلم، والتي تجمع بين تنوير العقل وتنوير القلب، بالإيمان بالله أولاً، ثم بالعلم الذي لا ينفصل عن الإيمان.

وقد تم نقل مفهوم التنوير الأوروبي للمجتمعات الإسلامية كغيرها من المفاهيم الغربية الأخرى، والتنوير بالمفهوم الإسلامي لا يعتمد على العقل المجرد غير المهتدي بنور الإيمان، وبالقدر نفسه لا ينفع المرء إيمانه إن لم يستخدم ما وهبه الله من نعمة العقل في التفكير والتدبر والتأمل وتصريف الأمور على الوجه الذي يحقق المصلحة العامة التي تنفع الناس وتمكث في الأرض.

لقد قام المسلمون في القرون الوسطى المظلمة بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية. وكانت حركة التنوير في أوروبا رد فعل طبيعي على الجبروت التي مارسته السلطات الكنسية ضد العقل والإرادة الإنسانية، وهو وضع لم تعرفه الحضارة الإسلامية.

"اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" ٣٤٤.

وبالتأمل في هذه الآيات القرآنية نجد أن الإرادة الإلهية هي التي تتولى إخراج الإنسان من الظلمات، وتلك هي الهداية الربانية للإنسان التي لا تتم إلا بإذن الله، لأن الإنسان الذي يخرج الله سبحانه من ظلمات الجهل والشرك والخرافة إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة الحق هو إنسان منور العقل والبصيرة والوجدان. وكما أن الله تعالى قد أشار إلى القرآن الكريم بالنور.

"...فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ" ٣٤٥.

والقرآن الكريم والتوراة والإنجيل الغير مخرفة أنزلها الله تعالى على رسوله ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور، وبذلك جعل الله الهداية مرتبطة بالنور.

٣٤٤ (البقرة: ٢٥٧).

٣٤٥ (المائدة: ١٥).

"إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ..."^{٣٤٦}.

"...وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ"^{٣٤٧}.

ولا هداية بلا نور من الله، ولا نور يضئ قلب الإنسان وينير حياته إلا بإذن من الله.

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..."^{٣٤٨}.

وهنا نلاحظ أن النور يأتي في القرآن مفردًا في كل الحالات، بينما تأتي الظلمات جمعًا، وفي هذا منتهي الدقة في وصف هذه الأحوال^{٣٤٩}.

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا:

أذكر أن جاءتني مكالمة من زميل لي في يوم إجازتي لإخباري أن ملاكمًا من أمريكا الجنوبية - خلال مشاركته في مسابقة دولية في الملاكمة - أراد أن يتعرف على الإسلام، وهو غير متفرغ إلا في يوم الجمعة ولا يتكلم الإنجليزية أبدًا، ويريدون من يتحدث الإسبانية للحوار معه.

استشرت زوجي وقال: أننا نستطيع مقابله سويًا في مكان عام، وفعلاً خرجنا يوم الجمعة وقابلناه في مقهى قريب، برفقة وفد من النادي المستضيف له، وكان قد أعلن إسلامه في نهاية اللقاء.

سألني الشاب من ضمن ما سأل:

هل يوجد في الإسلام قديسين؟

^{٣٤٦} (المائدة: ٤٤).

^{٣٤٧} (المائدة: ٤٦).

^{٣٤٨} (النور: ٣٥).

^{٣٤٩} ١٣/١١٢٩٤١٣-١-١٦-١١-٢٠٠١ <https://www.albayan.ae/five-senses> من مقال التنوير في الإسلام. د. التوجيهي.

قلت له: لا.

قال: إذاً ليس لديكم أناس صالحين؟ ألا تقدسون صحابة الرسول محمد؟ قلت له: نحن نخذو بحذو الصالحين وصحابة الرسول ونحبهم ونحاول أن نكون صالحين مثلهم، ونعبد الله وحده كما فعلوا هم، ولكن لا نقدسهم ولا نجعل منهم وسيطاً بيننا وبين الله.

قال: أنا مثلاً أحمل قلادة عليها نجمة داوود لأنني أدعي ديفيد، فهل إذا أسلمت عليّ أن أحلعلها؟

قلت له: بدايةً، النبي داوود عليه السلام من أنبياء الله المكرمين في القرآن كغيره من الأنبياء، وقد برأهم الله في القرآن الكريم من كل التهم التي نسبت إليهم من تحريفات في كتب العهد القديم والجديد. وقد ذكر القرآن الكريم لنا كيف كانت مخلوقات الله تُسبِّح الله مع داوود لجمال صوته.

"وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَآلَتُنَّ لَهُ الْحَدِيدَ" ٣٥٠.

فالمسلم ليس لديه مشكلة مع أنبياء الله، ولكن المشكلة مع الذين حرفوا دين الله، وجعلوا من هذه النجمة رمزاً سياسياً.

قال: ما الفرق بين الشيعة والسنة؟

قلت له: محمدًا لم يكن سنيًا ولا شيعيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا، والمسيح لم يكن كاثوليكيًا ولا غيرها، كلاهما عبد الله وحده بلا وسيط، فلم يعبد المسيح نفسه ولم يعبد أمه، وكذلك لم يعبد محمد نفسه ولا ابنته ولا زوج ابنته.

وعندما أشاع قوم في المدينة المنورة أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم ابن النبي، خطب بهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال عبارة كانت بمثابة رسالة لكل من

يتبنى خرافات لا تُحصى عن كسوف الشمس حتى يؤمننا هذا. قال بكل وضوح وبيان قبل أكثر من أربعة عشر قرناً:

"إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يُخَسِفَانِ لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ"^{٣٥١}.

وظهور فرق كثيرة بسبب مشاكل سياسية أو انحرافات عن الدين الصحيح أو غيرها من الأسباب وارد، ولا علاقة له بالدين الصحيح الواضح البسيط، وفي كل الأحوال فإن كلمة "سُنَّة" تعني اتباع منهج الرسول بمخفايه، وتعني كلمة "شيعه" فرقة من الناس انشقوا عن النهج الذي ينتهجه عامة المسلمين.

"إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" لَمَّا أَمَرَهُمُ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَهَيِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"^{٣٥٢}.

ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يُوقنون:

سأل الشاب مستطرداً: وما معنى الجهاد؟

قلت له: الجهاد يعني مجاهدة النفس في الكف عن المعاصي، جهاد الأم في حملها بتحمل آلام الحمل، اجتهد الطالب في دراسته، جهاد المدافع عن ماله وعرضه ودينه، حتى المثابرة على العبادات مثل الصوم والصلاة على وقتها تعتبر نوعاً من أنواع الجهاد.

والإسلام يقدر الحياة، فلا يجوز مقاتلة المسلمين والمدنيين كما يجب حماية الممتلكات والأطفال والنساء حتى في أثناء الحروب، كما لا يجوز التشويه أو التمثيل في القتل فهي ليست من أخلاق الإسلام.

^{٣٥١}(صحيح البخاري).

^{٣٥٢}(الأعام: ١٥٩).

"لَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" ٣٥٣.

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ لَئِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ" ٣٥٤.

فغير المسلم هو واحد من أربعة:

مستأمن: وهو الذي أُعطي الأمان.

"وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ" ٣٥٥.

معاهد: وهو الذي عاهده المسلمون على ترك القتال.

"وَإِنْ كُنْتُمْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمُّوا كُفْرَهُمْ لَا يُمَانٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ" ٣٥٦.

ذِمِّي: الذمة هي العهد، وأهل الذمة هم غير المسلمين الذين تعاقدوا مع المسلمين على اعطاء الجزية والالتزام بشروط معينة مقابل بقائهم على دينهم وتوفير الأمن والحماية لهم. وهو مبلغ بسيط يُدفع على حسب استطاعتهم، ويُؤخذ من المقاتلين دون غيرهم، وهم الرجال الأحرار البالغين الذين يقاتلون دون النساء والأطفال والغير عاقلين. وهذا المبلغ يدفعه هؤلاء المقاتلون وهم صاغرون بمعنى خاضعون للقانون الإلهي. في حين أن الضريبة التي يدفعها

٣٥٣ (الممتحنة: ٨-٩).

٣٥٤ (المائدة: ٣٢).

٣٥٥ (التوبة: ٦).

٣٥٦ (التوبة: ١٢).

الملايين في يومنا هذا تشمل جميع الأفراد وبمبالغ كبيرة مقابل رعاية الدولة لشؤونهم وهم خاضعون لهذا القانون الوضعي.

"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" ٣٥٧.

محارب: وهو من أعلن القتال ضد المسلمين، فهذا لا عهد له ولا ذمة ولا أمان. وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ ابْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" ٣٥٨.

وفئة المحاربون هي من يجب مقاتلتها فقط، ولم يأمر الله بالقتل ولكن بالمقاتلة وهناك فرق كبير بينهما، فالمقاتلة هنا بمعنى المواجهة في الحرب بين مقاتل ومقاتل للدفاع عن النفس، أو قتال من أعلن القتال ضد المسلمين ومنع المسلمين من تبليغ عقيدة التوحيد.

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَمُوتُكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْتَدِينَ" ٣٥٩.

قال: أليست كلمة كافر تحقيراً للطرف الآخر؟

قلت له: ألا أُعتبر كافرًا بالنسبة للنصراني لأنني لا أؤمن بعقيدة التثليث؟ كلمة كفر تعني إنكار الحق، والحق بالنسبة لي كمسلمة هو التوحيد، وبالنسبة للنصراني هو التثليث.

قال: ولماذا يُكافأ من يقوم بالعمليات الانتحارية بالخور العين في الإسلام؟

قلت له: إنه من غير المنطقي أن يأمر واهب الحياة من الموهوب إليه أن يزهقها، ويزهق حياة آخرين دون ذنب وهو القاتل "ولا تقتلوا أنفسكم"، وغيرها من

٣٥٧ (النوبة: ٢٩).

٣٥٨ (الأفان: ٣٩).

٣٥٩ (البقرة: ١٩٠).

الآيات التي تنهى عن قتل النفس إلا بوجود مبرر كالقصاص أو دفع العدوان، دون انتهاك للحرمت أو الإقدام على الموت وتعريض النفس للتهلكة لخدمة مصالح جماعات لا علاقة لها بالدين أو بمقاصده، وتبتعد عن سماحة وأخلاق هذا الدين العظيم. ولا يجب أن يُبنى نعيم الجنة على تلك النظرة الضيقة بالحصول على الحور العين فقط، فالجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن معاناة الشباب اليوم من الظروف الاقتصادية وعدم المقدرة على تحصيل الأمور المادية التي تعينه على الزواج، تجعلهم فريسة سهلة للمروجين لهذه الأعمال المشينة، وخصوصاً المدمنين منهم والذين يعانون من اضطرابات نفسية. ولو صدق المروجون لتلك الفكرة لكان الأولى أن يبدؤوا بأنفسهم قبل أن يرسلوا الشباب لهذه المهمة.

نخلص مما سبق أنه لا نهضة ولا تقدم ولا علم حقيقي إلا بالإسلام، في إطار الفهم الرشيد لوظيفة الدين في الحياة، والموازنة الواعية بين مقتضيات الشرع وبين متطلبات الحياة دون إخلال بقاعدة من قواعد الدين الخفيف، أو تنازل عن ثابت واحد من ثوابت الدين الراسخة. والعقل وحده لم يستطع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه إلى معرفة كل الحقيقة، بل أدى إلى انحرافهم وفساد رأيهم لأنه جزء من حقيقة كاملة لا تكتمل إلا بأمور أخرى، وكذلك أخطأ الذين تجاهلوا العقل والتمسوا المعرفة الباطنية عن طريق الحدس أو الوجدان وحده، ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة، جامعة بين العقل والقلب، وجامعة بين عالم الشهادة وعالم الغيب.

ولقد عرّف القرآن الناس بخالقهم بكلام لا يجدونه في كتب الفلاسفة ولا كتب الديانات الأخرى، وفي إرشادهم إلى الطريق التي يجب أن يعبدوا بها هذا الخالق،

وإلى الخلق الذي ينبغي أن يسلكوه في معاملة بعضهم لبعض، وفي إرشادهم إلى ما يسمو بروحهم ونهيمهم عما يحط من قدرهم، وزودهم بمنهج حياة متكامل من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، إلى النظام الاجتماعي فردًا وأسرة ومجتمعًا، وإلى العلاقات مع غير المسلمين، وذلك بطريقة متوازنة تلي المتطلبات العقلية، والحاجات الجسدية والروحية.

"...كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ" ٣٦٠.

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً

فطرت الله التي فطر الله عليها:

في حوار لي مع أسرة بريطانية تتكون من أب وأم وطفل عمره عشرة أعوام، وأثناء إجابتي عن سؤال الأم عن عقيدة المسلمين، قال الطفل الصغير وقد كان غاية في الجمال والذكاء: إذا أفهم من كلامك أنه إذا كنت في قاعة الاختبار في مدرستي وصعب عليّ سؤال، وتوجهت لله مباشرة بالدعاء ولم أتوجه إلى المسيح، فأنا في هذه اللحظة مسلم؟ قلت له: نعم. وتذكرت حينها الآية الكريمة "فَطَرْتُ اللَّهَ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"^{٣٦١}، وقد ابتهجت فرحاً بتعليق الطفل، والذي شعرت من إجابته أن الرسالة التي أريد أن أوصلها لهم قد وصلت وبسهولة.

ورحمة ربك خير مما يجمعون:

أذكر قصة لحواري مع لاعب كرة قدم لاتيني شهير مع والدته والطبيب المعالج الذي صاحبه أثناء الزيارة، وبعد اقتناعهم التام بالتوحيد، كان من ضمن ما سألوا هو عن تقصير المسلمين في التعبير عن أنفسهم وعن إبلاغ الدين الصحيح، حيث قال اللاعب: الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للرسول محمد هي عبارة عن سلسلة لرسوم مسيئة للمسيح أيضاً ومسيئة للخالق نفسه، فمن يرسم هذه الرسوم هم مجموعة من الملحنين الذين يكرسون وقتهم وجهدهم للاستهزاء

^{٣٦١} (الروم: ٣٠).

بجميع الرموز الدينية لجميع الديانات، فلماذا لا يتظاهر المسلمون غضبًا عندما يُساء إلى الإله الخالق مثلاً أو حتى المسيح ويتظاهرون فقط من أجل الرسول محمد؟ لقد نجم عن هذه التصرفات سوء فهم كبير، حيث أننا بتنا متيقنون أن محمدًا إله المسلمين.

قلت له: هذا صحيح، لكن المسلمين غير مثاليين، هم بشر يخطئون ويصيبون. قلت لهم معقبة: وأنا نفسي أتعجب جدًا كيف يتواجد أعداد هائلة من المسلمين في أوروبا مثلاً، ولا زال الأوروبي لا يعرف عن دين المسلمين سوى أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم فقط، ولا يعرف أركان الإيمان والتي من ضمنها الإيمان بنبوّة عيسى المسيح والإيمان بالإنجيل الصحيح.

وفي نهاية الحوار أعلن اللاعب ووالدته وطبيبه إسلامهم وسط أجواء من الفرح والسرور.

وأذكر قصة لمجموعة كبيرة من دولة بنما اللاتينية، وكان باص كبير قد أقلعهم إلينا، وجاءوا في وقت متأخر جدًا حيث كان موعد مغادرتي بعد يوم حافل بالعمل، وتبين لي أن المرشدة السياحية التي رافقتهم قد جاءت بهم في وقت متأخر حتى لا تعطيتهم فرصة للاستماع للعرض المختصر عن الإسلام لضيق الوقت لديها في جدول برنامجها لذلك اليوم، حيث أخبرتني أن الوقت محدود، وقالت لي مازحة: أنت تبدين متعبة ولم يتبق على أذان المغرب كثير من الوقت، حيث يتوجب عليهم مغادرة قاعة المسجد فورًا.

قلت لها: لا عليك، أنا لست متعبة، وأستطيع أن أنهي الزيارة قبل أذان المغرب.

وقبلت على مضض، وبدأت أنا بالتحدث إليهم وفوجئت بالجميع يجلس على الأرض وقد اهتموا عليّ بالأسئلة ومن ضمنها الفرق بين دين الإسلام واليهودية والنصرانية ونبوءة سيدنا محمد، وغيرها من الأسئلة.

قلت لهم: دين الإسلام هو دين التوحيد الذي يمارسه الكثير في بلدكم بالفطرة، وهو عبادة الله وحده بدون وسيط، والإيمان بأن المسيح هو أحد رسل الله. قالوا: ومن هو الله؟

قلت لهم: يستخدم المسيحيون واليهود والمسلمون في الشرق الأوسط كلمة (الله) إشارة إلى الإله، وهي تعني الإله الواحد الحق، إله موسى والمسيح، وقد ذكرت كلمة الله في النسخة القديمة للعهد القديم ٨٩ مرة ٣٦٢.

قال أحدهم: أنا قرأت القرآن، لماذا يشير الخالق إلى نفسه بصيغة الجمع ما دام هو واحد أحد وليس ثالثاً؟

قلت له: استخدام رب العالمين لكلمة "نحن" في التعبير عن ذاته في كثير من آيات القرآن الكريم تُعبّر عن أنه وحده جامع لصفات الجمال والجلال وتُعبّر كذلك عن القوة والعظمة في اللغة العربية، وتُسمّى في اللغة الإنجليزية "نحن الملكية"، حيث يستخدم ضمير الجمع للإشارة لشخص في منصب كبير (كالمملك، العاهل أو السلطان)، غير أن القرآن كان دوماً يُشدد على وحدانيّة الله فيما يتعلق بالعبودية.

واشتد غضب المرشدة وهي تواجه بالرفض منهم كلما طلبت منهم المغادرة لضيق الوقت، ودخل موعد الصلاة ولم يقبلوا الخروج لكثرة الأسئلة، وقد كان

٣٦٢ (سفر التكوين ٢:٤، سفر دنيال ٦:٢٠، الترجمة العربية والعربية للإنجيل).

التعليق المتداول بينهم: وجدنا الحقيقة، وقد ضاعت سنين عمرنا دون أن نعرفها.

وأذكر أيضًا قصة لفريق كرة سلة مكسيكي، كان لمجموعة من الشباب الذين لا تتجاوز أعمارهم العشرين عامًا، لكن مختارون بعناية من طوال القامة، وحضر معهم الطاقم المرافق لهم، وعندما قلت لهم: المسلم هو من يؤمن بإله واحد أحد، ويعبده وحده بدون وسيط، ومحمد رسول، والمسيح رسول، صرخوا بصوت واحد وقالوا: هذا ما نؤمن به، وشهد أكثر من نصف الفريق بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحافت الباقي على طلب ترجمة معاني القرآن بالإسبانية وكتيبات للقراءة ومنهم من بكى، وقلت في نفسي: ما الذي قلته لهم حتى يجعلهم متألّفين فرحًا؟ أنا لم أتكلم سوى بضع دقائق، فسبحان من جبل القلوب السليمة على الدين السليم.

أذكر أيضًا في لقائي مع سيدة بريطانية في التسعين من عمرها، وهي أرملة لشخصية مرموقة، كانت قد جاءت مع صديقتها البريطانية وسائقها الهندي، وبكت السيدة بمجرد أن بدأت أنا بالكلام، وقالت: أنا أعتقد أن لا إله إلا الله وأن المسيح رسول الله.

وقالت بعدها: أنا أحب زوجي جدًّا، وقد مات منذ عشرة أعوام، فإذا أسلمت الآن، ما سيكون مصير زوجي؟ هل سألقاه في الجنة؟

قلت لها: ما كانت عقيدة زوجك في المسيح؟ هل كان يؤمن مثلك أنه نبي أم إله؟

قالت: هل تصدقني إن قلت لك أنني لا أعرف؟ لقد استمر زواجنا ستين عاماً، ولا أذكر أن تناقشنا بهذا الموضوع، وزاد بكاء السيدة حتى شعرت أنني أتألم من الحزن عليها.

قلت لها: إن الله رحيم بخلقه أكثر من الأم بولدها، وهو يرحم من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، لعل زوجك كان منهم، وأمره إلى الله.

وغادرت السيدة المسجد تحت إلحاح من صديقتها، والتي لم يَرُق لها الحوار، ولم تطلب مني السيدة حينها اعتناق الإسلام.

وعادت السيدة بعد حوالي ثلاثة أشهر برفقة حفيدها وصديقتها وسائقها الشخصي الذي جاء في المرة السابقة، وسألت موظفات الاستقبال عني، وكنت قد فرحت جداً لرؤيتها.

قال لي سائقها: هي لم تتوقف عن الحديث عن اللقاء السابق منذ خرجت المرة الماضية، وهي تريد أن تعلن إسلامها، فهي مقتنعة أنه الدين الحق، وبصراحة أنا أيضاً مقتنع بذلك جداً.

قلت له بعد أن نطقت السيدة بالشهادة: وهل تريد أن تشهد مثلها؟ قال: للأسف مع اقتناعي العميق بهذا الدين، ولكن لا أستطيع أن أغير دين آبائي وأجدادي.

أفنجعل المسلمين كالمجرمين:

سألني ملحدٌ يوماً: لماذا يعذب الله عباده إذا لم يؤمنوا به؟ قلت له: يجب أن نفرق بين الإيمان والتسليم لرب العالمين.

فالحق المطلوب لرب العالمين الذي لا يسع أحد تركه هو التسليم له بالوحدانية وعبادته وحده لا شريك له، وأنه الخالق وحده له الملك والأمر، سواء رضينا أم أبينا وهذا أصل الإيمان، ولا نملك خيارًا آخر، والتي على ضوءها يحاسب الإنسان ويعاقب.

وما يقابل التسليم هو الإجماع.
"أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ" ٣٦٣.
 وأما الظلم فهو جعل شريك أو ند لرب العالمين
"...فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" ٣٦٤.
"الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ" ٣٦٥.
 قال: ماذا أحسر لو كفرت بالخالق؟ قلت له:

من كفر بالخالق حاله في الحياة الدنيا:

أكثر الناس حزنًا ولو تظاهر بالفرح ٣٦٦.
"وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى" ٣٦٧.
 عند المصيبة فإنه غير مأجور.
"وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا" ٣٦٨.
 إذا أراد شيئًا فلا يجد من يطلب منه.
"لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَافٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" ٣٦٩.

٣٦٣ (القلم: ٣٥).

٣٦٤ (البقرة: ٢٢).

٣٦٥ (الأنعام: ٨٢).

٣٦٦ من أقوال الشيخ مشاري الحراز.

٣٦٧ (طه: ١٢٤).

٣٦٨ (الفرقان: ٢٣).

٣٦٩ (الرعد: ١٤).

أقصى أحواله المخلوقات الضعفاء.

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ".^{٣٧٠}

إذا أفرجه شيء علم أنه بالموت لن يدوم.

"...وَفَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ".^{٣٧١}

ولو تعرض لظلم فلا يعتقد أنه سينصره حي قيوم.

"مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِذْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَنْتَظِرْ هَلْ يُزِيلُهُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ".^{٣٧٢}

فكيف لا ينتحر؟

ومن كفر بالخالق حاله في الحياة الآخرة:

يطلب الأمان فلا يجد.

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِلاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَافَةً حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ".^{٣٧٣}

يطلب النجدة من الذين عبدتهم من دون الله فيتحلوا عنه.

"وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ".^{٣٧٤}

يطلب النعيم فلا يجد.

"وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ خَرَجَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ".^{٣٧٥}

يطلب الفوز فلا يجد.

^{٣٧٠} (البقرة: ٢٥٧).

^{٣٧١} (الرعد: ٢٦).

^{٣٧٢} (الحج: ١٥).

^{٣٧٣} (النور: ٣٩).

^{٣٧٤} (القصص: ٦٤).

^{٣٧٥} (الأعراف: ٥٠).

"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصُرِبَ بَنَهُم بِسَوْرٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُتَادَوْنَ فِيهِمْ كَتُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكَيْتُمْ فَتَقِمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفُّعُمْ وَارْتَبِعْكُمْ وَالْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَمَ بِاللَّهُ الْقُرُورُ (١٤) قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ" ٣٧٦.

حتى أنه يطلب الهلاك ليتخلص من العذاب ولا يستطيع.
 "وَتَادَوُا يَا مَالِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا أَكُونُ" ٣٧٧.

حتى الشيطان يتخلى عنه.

"وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي ۚ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ٣٧٨.

يخلد في النار.

"فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعْنَا فِيهِمْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ" ٣٧٩.

فلو تكلمت الأحجار، ونطقت الأشجار والأطيار، لقالت لا إله إلا الله الملك
 القهار.

"أَلَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" ٣٨٠.

لا إله إلا الله حصن الله ومفتاح الجنة وأمان من العذاب، وهي أفضل الذكر،
 وليس بينها وبين الله حجاب، وموجبة لشفاعته الرسول.

٣٧٦ (الحديد: ١٣-١٥).

٣٧٧ (الزخرف: ٧٧).

٣٧٨ (إبراهيم: ٢٢).

٣٧٩ (هود: ١٠٦-١٠٧).

٣٨٠ (الحشر: ٢١).

قال رسول الله: "... أَسْعِدِ النَّاسَ بِشِفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ تَقْسَهُ" ^{٣٨١}.

قال رسول الله: " وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ " ^{٣٨٢}.

قال: ماذا أكسب لو أسلمت؟

حال المؤمن في الدنيا والآخرة:

لا خوف عليه ولا حزن.

"لِإِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" ^{٣٨٣}.

وعده الله بالأمان.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ" ^{٣٨٤}.

وعده الله بالأجر عند المصيبة.

"فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" ^{٣٨٥}.

"وَلَيَبْلُوَكُمْ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ" وَيَسْتَبْشِرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" ^{٣٨٦}.

يجد من يلجأ إليه في الشدائد.

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" ^{٣٨٧}.

^{٣٨١} (صحيح البخاري).

^{٣٨٢} (صحيح الترمذي).

^{٣٨٣} (الأحقاف: ١٣).

^{٣٨٤} (الأأنعام: ٨٢).

^{٣٨٥} (آل عمران: ١٧٠).

^{٣٨٦} (البقرة: ١٥٥ - ١٥٦).

^{٣٨٧} (البقرة: ١٨٦).

ولِيُّهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

"اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..."^{٣٨٨}.

يُنَابَ عَلَى صَبْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

"وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ" لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"^{٣٨٩}.

"قُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ" إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ"^{٣٩٠}.

وَعَدَهُ اللهُ النَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

"إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ"^{٣٩١}.

وَعَدَهُ اللهُ النِّعِيمَ الْأَبَدِيَّ.

"وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ" عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ"^{٣٩٢}.

قال: وكيف أطبق التوحيد في حياتي؟

قلت له: قال رسول الله:

"يَا عَالَمُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحَقُّظْ! اللهُ يَحَقُّظُكَ، أَحَقُّظْ! اللهُ تَجِدُهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهُ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَحُفَّتِ الصُّحُفُ"^{٣٩٣}.

إن خفت فقل:

^{٣٨٨} (البقرة: ٢٥٧).

^{٣٨٩} (النحل: ٤١).

^{٣٩٠} (الزمر: ١٠).

^{٣٩١} (غافر: ٥١).

^{٣٩٢} (هود: ١٠٨).

^{٣٩٣} (رواه الترمذي).

"... حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" ٣٩٤.

"قَالَهُنَّ يُدْعِمُكَ مِنَ اللَّهِ وَقَدْ لَمْ يَمَسْسَهُنَّ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" ٣٩٥.

وإن مكر بك فقل:

"... وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" ٣٩٦.

"فَوَقَاةَ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا" ٣٩٧.

وإن طلبت الدنيا وزينتها قل:

"... مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ..." ٣٩٨.

"فَقَسِي رَّبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ" ٣٩٩.

وإن أصابك غم فقل:

"... لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" ٤٠٠.

"فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنِّتَاهُ مِنَ النَّفَمِ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ" ٤٠١.

والإيمان قضية غيبية تقتضي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،

والقبول والرضا بقضاء الله وقدره.

"قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ٤٠٢.

الآية الكريمة أعلاه تدلنا على أن الإيمان مرتبة ودرجة أرفع وأسمى وهي الرضا

والقبول والقناعة، والإيمان درجات ومراتب يزداد وينقص. فقدرة الإنسان وسعة

٣٩٤ (آل عمران: ١٧٣).

٣٩٥ (آل عمران: ١٧٤).

٣٩٦ (غافر: ٤٤).

٣٩٧ (غافر: ٤٥).

٣٩٨ (الكهف: ٣٩).

٣٩٩ (الكهف: ٤٠).

٤٠٠ (الأنبياء: ٨٧).

٤٠١ (الأنبياء: ٨٨).

٤٠٢ (الحجرات: ١٤).

قلبه على استيعابه للأمور الغيبية تختلف من شخص لآخر، والبشر يتمايزون في سعة إدراكهم لصفات الجمال والجلال ومعرفتهم برهم.

فلن يعاقب إنسان على قلة إدراكه للغيبات أو ضيق أفقه، ولكن يؤاخذ الله الإنسان على الحد الأدنى المقبول منه للنجاة من الخلود في النار، ويجب التسليم لله بالوحدانية وأن له الخلق والأمر وعبادته وحده، وبهذا التسليم يغفر الله ما سواه من الذنوب لمن يشاء. ولا خيار آخر أمام الإنسان، فإما الإيمان والفوز وإما الكفر والخسران، إما أن يكون شيء أو لا شيء.

"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٠٣.

فالإيمان قضية تتعلق بالغيب وتتوقف عندما ينكشف الغيب أو تظهر علامات الساعة.

"... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ٤٠٤

والإنسان إن أراد أن ينتفع من إيمانه بالأعمال الصالحة ويزيد من حسناته فلا بد أن يكون ذلك قبل قيام الساعة وانكشاف الغيب.

أما الإنسان الذي ليس له أعمال صالحة فيجب ألا يخرج من الدنيا إلا وهو مستسلم لله ومسلم بقضية الوحدانية، والعبادة له وحده، إذا ما كان يرجو النجاة من الخلود في النار، فالخلود المؤقت قد يقع لبعض أهل المعاصي، وهذا تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له وإن شاء أدخله النار.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" ٤٠٥.

٤٠٣ (النساء: ٤٨).

٤٠٤ (الأنعام: ١٥٨).

٤٠٥ (آل عمران: ١٠٢).

والإيمان في دين الإسلام قول وعمل، فهو ليس إيماناً فقط كما في تعاليم النصرانية اليوم، ولا عملاً فقط كما هو الحال في الإلحاد، ولا تستوي أعمال الإنسان في مرحلة إيمانه بالغيب وصبره مع الإنسان الذي عاين وشاهد وانكشف له الغيب في الآخرة، كما لا يستوي من عمل لله في مرحلة الشدة والضعف وعدم معرفة مصير الإسلام مع من عمل لله والإسلام فيها ظاهر وعزيز وقوي.

"... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْقَذَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَطْعَمَ دَرَجَةً مِمَّنْ الَّذِينَ أَنْقَذُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا" وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْخُسَىٰ " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" ٤٠٦.

ورب العالمين لا يعاقب بدون سبب، فالإنسان إما يحاسب ويعاقب على تضييع حقوق العباد أو حق رب العالمين عليه كما يلي:

- الحق الذي لا يسع أحد تركه للنجاة من الخلود في النار وهو التسليم لرب العالمين بالوحدانية وعبادته وحده لا شريك له، بقول: " أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله وأشهد أن رسل الله حق وأشهد أن الجنة حق والنار حق". والقيام بحقها.
- عدم الصد عن سبيل الله أو معاونة أو مساندة أي عمل يقصد به الوقوف في وجه الدعوة أو انتشار دين الله والذي هو رسالة التوحيد التي توفر تواصل مباشر بين العبد وخالقه.
- عدم هضم أو ضياع حقوق الناس أو ظلمهم.

- كف الشر عن الخلق والمخلوقات، وإن تطلب ذلك أن ينأى بنفسه أو يعتزل الناس.

فالإنسان ربما لا تكون له أعمال صالحة كثيرة لكنه لم يضر أحدًا أو ينشغل بأي عمل يسيء لنفسه أو للناس، وشهد الله بالوحدانية، فهذا يُرجى له بذلك النجاة من عذاب النار.

"مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ" وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ٤٠٧.

فالبشر يتم تصنيفهم على مراتب ودرجات ابتداءً من أعمالهم في الدنيا في عالم الشهادة وحتى قيام الساعة وانكشاف عالم الغيب وبدء الحساب في الآخرة، فمن الأقوام من يبتليهم الله في الآخرة كما ورد في الحديث الشريف.

فرب العالمين يعاقب الأقوام كلاً حسب أعماله وأفعاله السيئة فيما يعجلها في الدنيا وإما يؤخرها للآخرة، ويتوقف ذلك على مدى فداحة الفعل وإذا ما كان له توبة، ومدى أثره وضرره على الحرث والنسل وسائر المخلوقات والله لا يحب الفساد.

فالأقوام السابقة كقوم نوح، هود، صالح، لوط، فرعون وغيرهم ممن كذبوا بالرسول فعاجلهم الله العقوبة في الدنيا وذلك بسبب أفعالهم المنكرة وطغيانهم، فهم لم ينأوا بأنفسهم أو يكفوا شرهم بل تمادوا، فقوم هود تجبروا في الأرض، وقوم صالح قتلوا الناقة، وقوم لوط أصروا على الفاحشة، وقوم شعيب أصروا على الفساد وضياع حقوق الناس في المكيال والميزان، وقوم فرعون لحقوا بقوم موسى بغياً وعدواً، ومن قبلهم قوم نوح أصروا على الشرك بعبادة رب العالمين.

"فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبَاحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ يَظْلِمُونَ" ٤٠٨.

"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" ٤٠٩.

قال: هذا لأنك وُلدت في أسرة مسلمة فإنك تدافعين عن الإسلام، لو كنت ولدت في أسرة نصرانية لكنت الآن تبشرين بالنصرانية، لا أحد يستطيع أن يغير دين آباءه وأجداده.

قلت له: أنت جعلت الإنسان بذلك تابعًا لغيره، وجزمت أنه لن يترك دين أهله! وسلبت منه حق الاستقلال الفكري والتمييز بين الحق والباطل وحكمت على طلبه للعلم! وهذا خطأ جسيم، لأنه من حق الإنسان أن يطلب العلم ويبحث في آفاق هذا الكون، فالله سبحانه وتعالى أودع فينا هذه العقول لنستخدمها لا لنعطلها، فكل إنسان يتبع دين آباءه دون إعمال للعقل وبلا تفكير وتحليل لهذا الدين فهو بلا شك ظالم لنفسه محتقر لذاته، محتقر لهذه النعمة العظيمة التي أودعها الله تعالى فيه ألا وهي العقل.

قلت له مستطردة: فكم من مسلم نشأ في أسرة موحدة وحاد عن الطريق بالشرك بالله، وهناك من نشأ في أسرة مشركة أو نصرانية يؤمن بالتثليث، ورفض هذه العقيدة وقال: لا إله إلا الله.

قلت له: سأروي لك قصة رمزية لتوضح هذه النقطة، حيث قامت زوجة بطبخ سمكة لزوجها ولكنها قطعت الرأس والذيل قبل أن تطبخها، وعندما سألها زوجها: لماذا قطعت الرأس والذيل؟ قالت: إن أمي تطهوها بهذه الطريقة، سأل

٤٠٨ (العنكبوت: ٤٠).

٤٠٩ (فصلت: ٤٦).

الزوج الأم: لماذا تقطعين الذيل والرأس عندما تطبخين السمك؟ أجابت الأم: إن أُمِّي تطهوها بهذه الطريقة. بعدها سأل الزوج الجدة: لماذا تقطعين الرأس والذيل؟ أجابت: كان قدر الطهي في البيت صغيراً وكان عليّ أن أقطع الرأس والذيل لأتمكن من إدخال السمكة في القدر.

الواقع أن كثيراً من الأحداث السابقة والتي جرت في العصور التي سبقتنا كانت رهينة عصرها وزمنها، ولها أسبابها التي ارتبطت بها ولعل القصة السابقة تعكس ذلك، والواقع أنها كارثة بشرية أن نعيش في زمان ليس بزماننا وأن نقلد أفعال غيرنا دون أن نفكر أو نسأل رغم اختلاف الظروف وتغير الأزمنة.

"...إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...".^{٤١٠}

قال: وما مصير من لم تبلغه رسالة الإسلام؟

قلت له: هؤلاء لن يظلمهم الله عز وجل ولكنه سوف يمتحنهم في يوم القيامة.

قال: والبشر الذين لم تحن لهم الفرصة بالتعرف على الاسلام جيداً؟

قلت له: فهؤلاء ليس لهم عذر، لأنه كما ذكرنا فلا ينبغي لهم التقصير في البحث والتفكير.

وإن حكم الله تعالى عليهم بالعذاب ليس ظلماً بعد كل هذه الحجج التي أقامها عليهم من العقل والفطرة والرسالات والآيات في الكون وفي أنفسهم، وأقل شيء كان من المفترض عليهم أن يفعلوه مقابل ذلك كله هو أن يعرفوا الله تعالى ويوحده كحد أدنى، ولو فعلوا ذلك لنجوا من الخلود في النار ولحققوا السعادة في الدنيا والآخرة، أعتقد أن هذا صعباً؟

^{٤١٠} (الرعد: ١١).

المشكلة الحقيقية ليست في أن يخطئ الإنسان أو أن يرتكب ذنبًا؛ لأن من طبيعة الإنسان الوقوع في الخطأ، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن المشكلة هي في التمادي في اقتراف المعاصي والإصرار عليها، والعيب أيضًا هو أن يُنصح الإنسان فلا يسمع النصيحة ولا يعمل بها، وأن يُذكر فلا تنفعه الذكرى، وأن يوعظ فلا يتعظ ولا يعتبر ولا يتوب ولا يستغفر، بل يصر ويولي مستكبرًا.

"وَإِذَا ثَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُفْرًا قَبِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"
٤١١.

قال: ولماذا لا نعصي الله؟

قلت له: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه وأخرج من أرضه، وابحث عن مكان آمن لا يراك الله فيه. وإذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك قل له أخرجني حتى أتوب توبةً نصوحًا وأعمل لله عملاً صالحًا، وإذا جاءتك ملائكة العذاب يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قاومهم وامتنع عن الذهاب معهم وخذ بنفسك إلى الجنة، فهل تستطيع فعل ذلك ٤١٢؟

قال: لا.

قلت له: إنك حين تقتني حيوانًا ألبنًا في منزلك فأقصى ما ترجوه منه هو الطاعة، وهذا لأنك اشتريته فقط ولم تخلقه، والله المثل الأعلى، فما بالك بخالقك وبارئك، ألا يستحق منك الطاعة والعبادة والاستسلام، ونحن مستسلمون رغمًا عنا في هذه الرحلة الدنيوية في كثير من الأمور، قلبنا ينبض، جهازنا الهضمي

٤١١ (لقان: ٧).

٤١٢ قصة إبراهيم بن آدم.

يعمل، حواسنا تدرك على أكمل وجه، وما علينا إلا أن نُسلم لله بباقي أمورنا التي خَيْرنا فيها لنصل سالمين إلى بر الأمان.

قال: وما هو بر الأمان؟

قلت له: تتلخص نهاية الرحلة ووصول بر الأمان في هذه الآيات.

"وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسَيُجَنَّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حُفَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَبِلْتُمْ مِنْ ثَوَابِ الْمُكَذِبِينَ (٧٢) وَسَيُجَنَّبُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَابَمَا فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ" ٤١٣.

٤١٣ (الزمر: ٦٩-٧٤).

رسالة الإسلام

لا يوجد في تعاليم الإسلام ما يقود الناس إلى الإلحاد، لا يوجد في الإسلام ألغاز أو غموض تُربك العقل، الإسلام بسيط وممتن، وتتلخص تعاليمه فيما يلي:

- للكون إلهٌ واحدٌ أحد، وهو الله، الخالق للكون وما يحتويه، والذي ليس كمثله شيء، وعلى المسلم عبادة خالقه وحده وذلك بالتواصل معه مباشرةً عند التوبة من ذنب أو طلب المعونة، وليس من خلال قسيس ولا قديس ولا أي وسيط. وأن رب العالمين رحيم بخلقه أكثر من الأم بأولادها، فهو يغفر لهم كلما رجعوا وتابوا إليه. وأنه من حق الخالق أن يُعبد وحده ومن حق الإنسان أن يكون له صلة مباشرة بربه.

- الخالق لا يأت إلى الأرض بصورة إنسان ولا حيوان ولا حجر ولا صنم، وليس له شريك ولا ولد، وأنه تعالى أرسل الأنبياء والرسل كعيسى المسيح وموسى ومحمد لنشر رسالة التوحيد في العالم. خلق المسيح من غير أب وخلق آدم من غير أب ولا أم، فهو يخلق ولا يلد، وأمرنا بعبادته بالتوجه إليه وحده كما فعلوا هم، فالمسلم يعبد الله كما عبد المسيح الله ولا يعبد المسيح نفسه، ويعبد الله كما عبد محمد الله ولا يعبد محمد نفسه.

- الإيمان بالخالق يقوم على حقيقة أن الأشياء لا تظهر بدون سبب أو بمحض الصدفة، ناهيك عن هذا الكون المادي المأهول الضخم وما فيه من مخلوقات، تمتلك وعيًا غير ملموس وتطيع قوانين الرياضيات غير المادية. وإنه لشرح وجود كون مادي محدود، نحتاج إلى مصدر مستغني بذاته وأبدي لا يفنى ولا يزول.
- الإله الخالق حي قيوم غني قادر، ليس بحاجة لأن يموت من أجل البشر، فهو الذي يمنح الحياة أو يسلبها، لذلك هو لم يمت متجسدًا في المسيح على الصليب كما أنه لم يُبعث. هو الذي حمى وأنقذ رسوله عيسى المسيح من القتل والصلب، كما حمى رسوله إبراهيم من النار، وموسى من فرعون وجنوده، وكما يفعل دومًا مع عباده الصالحين في حمايتهم وحفظهم.
- الدرس الذي علمه الله للبشرية عند قبوله توبة آدم بسبب أكله من الشجرة المحرمة هو بمثابة أول مغفرة لرب العالمين للبشرية، حيث أنه لا يوجد معنى للخطيئة الموروثة، فلا تزر وازرة وزر أخرى، فكل إنسان يتحمل ذنبه وحده؛ وهذا من رحمة رب العالمين بنا. وأن الإنسان يُولد نقيًا بلا خطيئة، ويكون مسؤولاً عن أعماله ابتداءً من سن البلوغ.
- الإنسان لن يُحاسب عن ذنب لم يقترفه، كما أنه لن ينال النجاة إلا بإيمانه وعمله الصالح، منح الله الحياة للإنسان وأعطاه الإرادة لامتحان والابتلاء، وهو مسؤول فقط عن تصرفاته. وأن الإنسان يمتلك حرية الاختيار فقط في حدود معرفته وإمكانياته. فالحساب مرهون بوجود المسؤولية وإمكانية الاختيار، فالخالق لن يحاسب المرء

على شكله ووضعه الاجتماعي. والحرية المحفوفة بالصراع والكفاح أعظم درجة وتكريم للمرء من الإنسان السعيد مسلوب الإرادة، فالحساب والثواب ليس لهما معنى بدون الإرادة.

- الإيمان بكافة الرسل الذين بعثهم الله للبشر دون تمييز. وأن إنكار أي رسول أو نبي يتعارض مع أساسيات الدين. وأن جميع أنبياء الله بَشَرُوا بقدم خاتم الرسل محمد عيه الصلاة والسلام. كما أن العديد من الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله للأمم المختلفة ذُكرت أسمائهم في القرآن الكريم (مثل نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، داود، سليمان، المسيح إلخ....)، هناك آخرون لم يُذكروا. فإن احتمالية كون بعض الرموز الدينية في الهندوسية والبوذية (مثل رام، كريشنا، وغواتاما بوذا) قد تعود أصولها لأناس صالحين تم تقديسهم من شعوبهم أو أنبياء أرسلهم الله هي فكرة غير مستبعده. وقد ظهرت الفروقات بين المعتقدات عندما قُدّست الشعوب أنبياءها وعبدتها من دون الله.

- الإيمان بالكتب والعهود السابقة التي لم يطرأ عليها أي تحريف أو تغيير، بل ويجعل الإيمان بالرسل والكتب السابقة من أسس الإسلام. ويُكرّم كافة الرسل والأنبياء ويُبرئهم من التهم والنقائص، ويبرهن على إخلاصهم لرب العالمين ووحدانية الرسالة. علمًا بأن النص الكامل لكتابه (القرآن الكريم) لا يزال بلغته الأصلية (العربية) وبدون أي تغيير أو تحريف أو تبديل، ولا يزال محفوظًا كما هو حتى وقتنا هذا، وسيبقى كذلك، كما وعد رب العالمين بحفظه. وهو متداول بأيدي

جميع المسلمين ومحفوظ في صدور الكثير منهم، وأن الترجمات الحالية للقرآن بلغات متعددة والمتداولة بين أيدي الناس، ما هي إلا ترجمة لمعاني القرآن فقط. وتعاليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأقواله تم نقلها وتوثيقها من خلال سلسلة من الرواة الموثوقين.

- الانسجام الموجود بين أجساد البشر وأرواحهم يُبين أنه من غير الممكن جعل هذه الأرواح تسكن في أجساد الحيوانات ولا يمكن لها التحول بين النباتات والحشرات (تناسخ الأرواح) ولا حتى في أشخاص. ولقد ميّز الله الإنسان بالعقل والمعرفة وجعله خليفة في الأرض، وفضّله وكرّمه ورفع من شأنه على كثير من الخلائق. ومن حكمة وعدل الخالق وجود يوم القيامة الذي سيبعث الله فيه الخلائق ويحاسبهم وحده، ويكون مآلهم إلى الجنة أو النار، وكل الأعمال الصالحة والسيئة سوف تُوزن في هذا اليوم.

- دين الله الصحيح دائماً في توافق وانسجام مع الطبيعة البشرية، وهو دين واحد، سهل، مفهوم، بسيط، وصالح لكل زمانٍ ومكان، وأن تعدد الديانات ناتج عن اتخاذ الوسطاء بين الخالق والمخلوق في العبادة، وعند توجه البشر لعبادة الخالق مباشرة بدون وسيط، والإيمان جميعاً بمحمد خاتم الرسل واتباع شريعته، تتوحد القلوب على دين واحد، وهذا هو مفتاح البشرية نحو التناغم والتواءم.

- فعل الخيرات واجتناب السيئات مثل حق الوالدين بالإحسان لهما، ومن ثم حق الأولاد في الحصول على حياة كريمة، والمحافظة على مال اليتيم والقسّط في الوزن والمكيال، والعدل في القول والفعل، والوفاء

بالعهود، والنهي عن اقتراف الفواحش أو حتى الاقتراب منها، وعدم قتل النفس البشرية بغير حق. وهي مبادئ فطرية معنوية وبالتالي فإن الناس مُدركون لهذه القيم بشكل طبيعي وغريزي.

- معاملة الناس بعضهم بعضًا بِخُلُقٍ حَسَنٍ بهدف نفع الإنسانية وتعمير الأرض لا يُغني عن الإيمان بالخالق والالتزام بالأخلاق العالمية تحت مظلة الدين، لأن تعميم الأرض والخلق الحسن ليسا الغاية للدين، لكنهما في الحقيقة وسيلة. فغاية الدين أن يُعرّف الإنسان برّبّه، ثم بمصدره هو وطريقه ومصيره، ولا يتحقق حُسن النهاية والمصير إلا بالحصول على رضا رب العالمين، والسبيل إلى ذلك يكون بتعمير الأرض والخلق الحسن.

- لا يوجد كهنوت في دين الله والدين للجميع، الناس سواسية كأسنان المشط أمام الله، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

- من أحد صفات رب العالمين الحكمة، فهو لا يخلق شيئًا عبثًا بدون غاية أو هدف، فهو خلقنا ليرحمنا ويسعدنا ويعطينا، وكل الصفات البشرية الجميلة مشتقة من صفاته. وأن وجودنا في هذه الدنيا هو لهدف وغاية سامية وهي معرفة الله عز وجل والتوجه إليه بالتوبة والاستعانة به مباشرة.

- القاعدة هي الخير والشر هو الاستثناء. فالأشياء المنظمة ستنتهز وتتلاشى دائمًا ما لم يجمعها شيء من الخارج، أو أن تكون جيدة على نطاق واسع كما هي دون أن ينظم الخالق هذه الظواهر

العشوائية التي تظهر في الأشياء الرائعة مثل الجمال والحكمة والفرح والحب.

- الخالق وضع قوانين الطبيعة والسنن التي تحكمها وتصون نفسها بنفسها عند ظهور فساد أو خلل بيئي وتحافظ على وجود هذا التوازن بهدف الإصلاح في الأرض واستمرار الحياة على نحو أفضل. وأن ما ينفع الناس والحياة هو الذي يمكث ويبقى في الأرض. وعندما يقع في الأرض من كوارث يتضرر منها البشر كالأزمات، البراكين، الزلازل والفيضانات، تتجلى أسماء الله وصفاته كالشافي والحفيظ مثلاً، في شفائه للمريض وحفظه للناجي، أو اسمه العدل في عقاب الظالم لغيره والعاصي، ويتجلى اسمه الحكيم في ابتلاء وامتحان غير العاصي والذي يُجازى عليه بالإحسان إن صبر وبالعذاب إن ضجر، وبذلك يتعرف الإنسان على عظمة ربه من خلال هذه الابتلاءات تماماً كما يتعرف على جماله من خلال العطايا. فإن لم يعرف الإنسان إلا صفات الجمال الإلهي فكأنه لم يعرف الله عز وجل.

- الذي يقع من ابتلاءات هو إرادة الله، والذي أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، حيث أنه لا يوجد شر مطلق بالوجود، وأن الحياة الدنيا التي يعيشها الإنسان ليست إلا لحظة مقارنة بالحياة الأخرى الأبدية ومن ثم يهون كل ما عاناه في الدنيا بغمسة واحدة في نعيم الجنة. وأن الحياة الدنيا بداية لرحلة أبدية يستأنفها الإنسان بعد الموت بالبعث والحساب ومن ثم الجزاء.

- عظمة الدين في شموليته وبساطته، فمصطلح الإسلام غير مرتبط بأي شخص أو مكان أو جماعة خاصة، ولكنه يعكس العلاقة مع رب العالمين.
- ومن تعاليمه أيضاً:
 - دوام التواصل مع رب العالمين عن طريق الصلاة.
 - تقوية إرادة الإنسان وتَحْكُمُه بنفسه وتنمية مشاعر الرحمة والتآلف مع الآخرين عنده بالصيام.
 - إنفاق نسبة بسيطة من مدخراته للفقراء والمساكين عن طريق الزكاة، وهي عبادة تساعد الإنسان على تغليب صفات البذل والعطاء على نوازع الشُّح والبخل.
 - التجرد والتفرغ للخالق في وقت ومكان مُعَيَّن، من خلال أداء مناسك ومشاعر واحدة لكافة المسلمين المقتدرين مادياً وصحياً، عن طريق الحج الى مكة، وهي رمز للوحدة في التوجه للخالق على اختلاف الانتماءات البشرية وثقافتهم ولغاتهم ودرجاتهم وألوانهم.
- علاقة الإنسان بخالقه يجب أن تكون أفضل وأقوى من أي علاقة، فلذلك فالمسلم يجب أن يحرص على تطبيق تعاليم الإسلام، وهذه العلاقة هي العلاقة الحقيقية التي ستجلب له الخير كله واحترام الآخرين.
- كثيراً من الناس يمرون بفترة يعتريها الشك والبحث والضياع، ولا يجدون السلام التام والراحة إلا بعد أن يجدوا طريقهم لرب العالمين. تماماً كطفل

ضائع يبحث عن والدته، وعندما يجدها يشعر بالسكينة ويكتشف أن هذا
الأمان الذي كان يبحث عنه.



أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأشهد أن محمد عبده ورسوله

وأشهد أن رسل الله حق

وأشهد أن الجنة حق والنار حق.



كتب المؤلف:

- الرسالة الحقيقية للمسيح عليه السلام في القرآن والإنجيل. ٢٠١٧، صدر بالإنجليزية ومترجم إلى ١٥ لغة.
- المفهوم الحقيقي للإله. ٢٠١٨، صدر بالإنجليزية ومترجم إلى ٧ لغات.
- لماذا الإسلام؟ ٢٠١٩، صدر بالإنجليزية ومترجم إلى ٥ لغات.
- عين على الحقيقة. ٢٠٢٠، صدر بالإنجليزية ومترجم إلى ٤ لغات.

الحمد لله

لماذا الدين؟

رحلة من الذاكرة



Faten Sabri



fatensabri.com



faten@fatensabri.com



la luz-the light



la luz (the light)



laluz_thelight

في قصة لي مع مدرس اللغة الفرنسية الكاثوليكي في أفريقيّا عندما فاجأني يومًا أمام الطلاب في الفصل - وقد كنت المسلمة الوحيدة بينهم - حيث قال: أنا أحب الإسلام. وحينما سألته عن السبب قال: المسلمون يعبدون إلهًا واحدًا، ولديهم كتابًا مقدسًا واحدًا، ويصلون باتجاه واحد، فأنا معجب جدًا بهذا الدين. شعرت حينها بفرحة كبيرة وفخر بهذا الدين العظيم، وكانت هذه اللحظة نقطة انطلاق لي لتكريس وقتي وجهدي لدراسة الطريقة السليمة لعرض الإسلام وتغيير أسلوب الحوار الدارج بين الدعاة، والذي يُنقّر من الإسلام أكثر مما يُقرّب إليه. فالإسلام دين الفطرة، بسيط ومفهوم، ولكن يُعرض بطريقة معقدة، وتكاد تكون خاطئة. ومن هنا بدأت الرحلة.